سلسلة الدراسات التاريخية 4

حصار الخرطوم وتحريرها

يناير 1884-1885

ميمونة مرغني حمزة

الطبعة الثانية 2022م

حصار الخرطوم وتحريرها- ميمونة مرغني حمزة يناير 1884-1885

القارىء الكريم:

سلسلة الدراسات التاريخية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آريثيريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها بالشراكة مع مجلة القلزم للدراسات التوثيقية.. خدمةً للبحث العلمي في مجال الدراسات و البحوث التوثيقية.

القارئ الكريم:

تثمن دار آريثيريا للنشر والتوزيع المجهودات العلمية لجميع المفكرين والمختصين والباحثين من مختلف الدول العربية وخارجها، وتؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد.

القارئ الكريم:

العالم اليوم يؤمن بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الإيجابي على الفرد والمجتمع، ومن خلال هذا المحور نعمل دائما - بحول الله تعالى - كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. بإذنه تعالى.



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

حصار
الخرطوم وتحريرها

يناير 1884-1885

ميمونة ميرغني حمزة

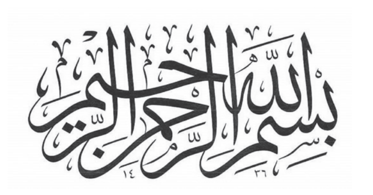
الكتاب : حصار الخرطوم وتحريرها

تاريخ النشر : الطبعة الثانية 2022م

التصميم والإخراج: علي عبد الحليم كابتود



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution
جوال : 00249910785855 00249121566207-
arithriaforpublishing@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾

(آل عمران.. الآية 140)

المحتـــــويات

كلمة شكر وتقدير 7

رموز المصادر 8

قائمة بالملاحق 9

تقييم المصادر الأساسية 13

الرسائل 16

الفصل الأول

تمهيد: نبذة في تاريخ مدينة الخرطوم 31

المهدي من أبا إلى الخرطوم 35

الفصل الثاني

مهمــة غــوردون وخطتــه الأساســية 40

الفصــل الثالــث

مخططات غوردون والمهدي للسيطرة على الخرطوم 57

الفصل الرابع

مشاكل الحصار 80

الفصل الخامس

عوامل حاسمة في تقرير نتيجة الحصار 104

الفصل السادس

من عمليات الحصار إلى سقوط الخرطوم 131

المصاد 150

خريطة منطقة الخرطوم

مقدمة الطبعة الثانية

الان وقد صدرت الطبعة الثانية من كتاب حصار الخرطوم وتحريرها فاني اعبر عن امتناني وشكري الجزيل لمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر ومديره مؤرخنا النابه أ. د. حاتم الصديق لمبادرته وتنفيذه هذا العمل . وانتهز هذه الفرصة لتوجيه شكري لكل الذين اشادوا بالكتاب عند صدور الطبعة الاولي وفي مقدمة هؤلاء الامام الراحل الصادق المهدي طيب الله ثراه . وقد جاءتني ملاحظة من احد القراء حول استعمال كلمة سقوط في العنوان وهي توحي بشعور سلبي مع ان الفعل ايجابيا بامتياز . قررت التجاوب مع الملاحظة رغم تحفظي عليها وسيظهر الكتاب في هذه الطبعة تحت عنوان (حصار الخرطوم وتحريرها).

كلمة شكر وتقدير

الآن وقد فرغت من كتابة هذا البحث أجد من واجبي أن أتقدم بكلمة شكر وعرفان بالجميل لكل الذين قدموا لي العون الصادق والمساعدة المقدرة، وأخص بالشكر من هؤلاء السيد الدكتور يوسف فضل حسن أستاذ التاريخ بكلية الآداب ومدير شعبة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم لتكرمه بالإشراف عليه. فكانت توجيهاته ومقترحاته القيمة خير عون لي في إبراز هذا البحث بالصورة التي هو عليها الآن.

وبالشكر والامتنان أتقدم أيضاً إلى البروفسير مكي شبيكة الذي ساعدتني مقترحاته في إنجاز أجزاء من هذا البحث كما مكنتني إرشاداته من الحصول والاطلاع على بعض الوثائق التي تعالج الفترة قيد الدراسة.

وأتقدم بشكري أيضاً إلى المستر د. هل الذي لم يدخر وسعاً أثناء وجوده في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درهام لمعاونتي في الاطلاع على كل الوثائق المحفوظة لديه.

وبكثير من التقدير أتوجه إلى البروفسير إحسان عباس الأستاذ بالجامعة الأميريكية ببيروت الذي تفضل مشكوراً ، رغم كل مشاغله ، فقام بمراجعة هذا البحث فصحح وقوم ما أعوج من قواعد اللغة.

لهؤلاء العلماء الاجلاء ولكل من قدم لي مساعدة مكنتني من إعداد هذا البحث عظيم شكري وفائق إمتناني.

(المؤلفــة)

رموز المصادر

الطريقـة التـي إتبعتهـا في الهوامـش بالنسـبة للمصـادر كثـيرة التكـرار هـي طريقـة المصـدر المختـصر . وقـد أثبـت أدنـاه المصـدر بالكامـل مـع إختصـاره المسـتعمل.

وإخترت إسم المؤلف ، ليرمز إلى المصدر باستثناء حالات ثلاث:

أ- المصـادر التـي اشـتهرت بعناوينهـا أكـثر مـن أسـماء مؤلفيهـا ، أثـرت الرمـز إليهـا بـالأولى كـما هـو الحـال بالنسـبة للفيوضـات الوهبيـة لصاحـب الخلافـة المصطفيـة.

ب- في حالـة الاسـتفادة مـن أكـثر مـن مصـدر واحـد لنفـس المؤلـف إضطـررت إلى الرمـز إليهـا بعناوينهـا كـما هـو الحـال في منشـورات المهـدي.

ج- آثـرت عـدم تطبيـق القاعـدة (ب) عـلى مؤلفـات محمـد نصحـي باشـا . فقـد اشـتهر تقريـر مجلـس الضبـاط باسـمه فرمـزت بـه إليـه وأبقيـت عنـوان تقريـر شـندي ((جورنـال الحـوادث)) كـما هـو.

المصدر	الرمز
إبراهيم البورديني	
إبراهيم البورديني	حصار الخرطوم وتحريرها
إبراهيم فوزي	
السودان بين يدي كتشنر وغوردون	إبراهيم فوزي
أحمد العوام	
نصيحة العوام للخاص والعام	أحمد العوام
إسماعيل بن عبدالقادر	
سعادة المستهدي في سيرة الإمام المهدي	إسماعيل بن عبدالقادر
بابكر بدري	
تاريخ حياتي	بابكر بدري
عبد الرحمن النجومي	
مخطوط النجومي	النجومي
عوض الكريم علي المسلمي	
الفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية	
محمد المهدي المنتظر	فيوضات
محمد أحمد المهدي	

منشورات الإمام المهدي الجزء الأول	منشورات جـ 1
منشورات الإمام المهدي الجزء الثاني	إنذارات ب
محمد خالد زقل	
مخطوط محمد خالد زقل	
محمد عبدالرحيم	
النداء في دفع الإفتراء	محمد عبدالرحيم
محمد نصحي باشا	
جورنال الحوادث	جورنا الحوادث
نعوم شقير	
جغرافية السودان وتاريخه	نعوم شقير
يوسف ميخائيل	
تاريخ حياتي	يوسف ميحائيل

Cuzzi, G., 15 Years Prisoner of the False Prophet Cuzzi

Gordon, C. G., Journals of Gordon, At Khartoum, Journals of Gordon.

Nushi Pashh

Nushi Pasha, & Native Officers, Life of Gordon Pasha, in Khartoum

Ohrawlder, J. Ten Years Captivity Ohrawlder in the Mahdist Camp 18821892-.

Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan,	Slatin
Sudan Notes and Records	SNR
Dictionary of National Biographies	DNB

الملاحق

عبدالقادر إبراهيم إلى غوردون
18 ذو القعدة 1301
أ

غوردون إلى عبدالقادر إبراهيم
(بلا تاريخ)
أ

عبدالقادر إبراهيم إلى غوردون
30 ذو القعدة 1301
ب

غوردون إلى عبدالقادر إبراهيم
30 ذو القعدة 1301
ب

عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون
21 ذو القعدة 1301
ج

غوردون إلى عبدالرحمن النجومي
23 ذو القعدة 1301
ج

عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون
2 ذو الحجة 1301
د

غوردون إلى عبدالرحمن النجومي

2 ذو الحجة 1301

د

عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون

(بلا تاريخ)

هـ

المهدي إلى غوردون

2 محرم 1302

و

عبدالله محمد جبارة إلى غوردون

ز

أحمد المصطفى الأمين إلى الملك خشم الموس

19 ذو القعدة 1301

حـ

أحمد المصطفى الأمين إلى عثمان بك

23 ذو الحجة 1301

ط

الصديق الطاهر وحامد ولد إدريس الشايب إلى عثمان بك

23 ذو الحجة 1301

ي

صورة التلغراف الصادر من غوردون إلى فرج الله بك

3 محرم 1302

ك

صورة جواب من العلماء إلى الشيخ عبدالقادر وولد النجومي

23 ذو القعدة 1301

ل

خريطة الخرطوم

م

قائمة بالأسماء التي وردت خطأ في يوميات غوردون مع تصحيحها

القسم الأول

إلى اسْتِقلالٍ دونَ دِماء

تقييم المصادر الأساسية

كانت الخرطوم في حالة حرب في الفترة ما بين مارس 1884 إلى يناير 1885، ولهذا فقد كان لابد أن تتعرض بعض الوثائق التي تعالج تلك الفترة سواء كان من جانب المحاصَرين أو المحاصِرين إلى الضياع غير المتعمد أو الإتلاف المقصود. كان غوردون (C.G. Gordon) يواظب على إرسال تقاريره إلى مصر منذ أن وطئت قدماه أرض السودان، إلا أن الأنصار لم يمهلوه طويلاً، فقد قامت مجموعة منهم بنزع أعمدة سلك التلغراف وقطعت بالتالي أنجع وسائله في الإتصال بمصر [1]إستعان بعد ذلك بالجواسيس ولعل قليلاً من رسائله التي بعضها عبر هذا الطريق قد وصلت إلى وجهتها ولابد أن كثيراً منها قد تعرض للضياع. بالإضافة إلى هذا هناك مجموعة من الوثائق لها قيمة تاريخية من الدرجة الأولى، تلك الرسائل هي التي حملها ستيورت (J.D.H. Stewart) معه عند مغادرته الخرطوم في 9 ديسمبر 1884. وقد شملت هذه مجموعة من الرسائل وجهها غوردون إلى الخديوي وبيرنج (E. Baring) [2]عن الحالة في المدينة، ويوميات ستيورت التي بدأ في تسجيلها منذ أول أيام وصوله. ومن المرجح أن تكون هذه الوثائق ضمن الأوراق

---

(1) غوردون باشا، شارلس جورج (1833-1885) اسكتلندي ، انضم إلى المهندسين الملكيين (Royal Engineers) في عام 1852 وفي عام 1860 غادر بلاده ليشترك في حرب (القرم Crimea) وعند انتهائها أوفد للصين حيث قام بدور بارز في القضاء على ثورة (Tai-Ping) التي نشبت هناك ما بين 1863 – 04 بدأت صلته بالسودان حينما قابل نوبار باشا بوغوس في القسطنطينية وقبل عرضاً منه بالانخراط في خدمة الخديوي كحاكم للمديرية الإستوائية. وقد عمل أثناء ولايته تلك بنشاط لتوسيع رقعة الأراضي المصرية كما أنشأ عدة محطات على النيل الأبيض في محاولاة لإيقاف تجارة الرقيق. استقال من منصفه عام 1876 إلا أنه عاد مرة أخرى في 1877 كحاكم عام للسودان وقد اشتهر خلال هذه الفترة بكثرة تجواله في أنحاء متفرقة من البلاد. ثم أنهى خدماته عام 1880 أثر إقالة الخديوي إسماعيل ليعمل في عدة مناطق من آسيا وأفريقيا.

علم بالثورة المهدية أثناء وجوده في زيارة خاصة لفلسطين وعند عودته لبلاده قبل عرضاً تقدمت به الحكومة الإنجليزية ليقوم بمهمة رسمية في السودان.

.Lord Elton, General, Gordon, pp. 13-39, B. Allen, Gordon And The Sudan pp. 1-170

(2) بيرنج، أفلين. لورد كرومر الأول (1917-1841) 1st. Earl of Cromer تخرج عام 1855 من مدرسة وو لويك الحربية وشغل أول منصف له في جزر ايونيا (Ionian Islands) بدأ عمله الدبلوماسي في كورفو (Corfu) وفي عام 1872 رافق نورث بروك (Northbrook) إلى الهند كسكرتير خاص له. وفي عام 1877 عين ممثلاً لبريطانيا في (Caisse de la Detta) وبعد الإحتلال البريطاني لمصر أوكلت له مهمة إنجاز الإصلاح الداخلي في سبتمبر 1883 وأصبح منذ ذلك الحين المسئول الفعلي عن السياسة المصرية فقام بدور رئسي في معالجة مشكلة السودان بعد هزيمة هكس باشا في نوفمبر 1883. شغل منصب مندوب بريطانيا في مصر حتى عام 1907.

.Cromer, Modern Egypt

التـي أخذهـا جماعـة سـليمان نعـمان ود قمـر مـن الباخـرة ((العبـاس)) وأرسـلوها إلى بربـر حيـث تـم نقلهـا إلى المهـدي وكان في ذلـك الحـين قـد وصـل إلى مشـارف الخرطـوم. كانـت فكرة المهـدي في بـادئ الأمـر هــي إرجـاع الرسـائل بكاملهـا إلى غـوردون إلا أنـه عـدل عـن هـذا وكتـب إليـه رسـالة مطولـة ضمنهـا مقتطفـات مـن المكاتبـات التـي وقعـت في يديـه بهـدف تأكيـد الواقعـة لغـوردون. وجـاء في خطـاب المهـدي إشـارة إلى رسـائل باللغـة الإنجليزيـة توضح ((كيفيـة حصـار الخرطـوم وكيفيـة صناعـة الوابـورات ومقـدار مـا بهـا مـن العسـاكر والأسـلحة والمدافـع وعـن الحـركات العسـكرية وإنهـزام جماعتكـم وطلبكـم الإسـعاف بالامداديـة ولـو بفرقـة [3])) ولعـل هـذه هـي مذكـرات سـتيورت . وسـواء ضاعـت تلـك الرسـائل عنـد سـقوط المدينـة أو فيـما بعـد أو أن المهـدي قـام بإعدامهـا في وقـت إسـتلامها خشـية تسربهـا بوسـيلة مـا للخـارج فهـو أمـر يقـع في دائـرة التكهنـات حتـى اللحظـة.

هنـاك أيضـاً مذكـرات مفقـودة ((تخـص دكتـور نكـولا الاغريقـي)) الـذي عينـه غـوردون إثـر وصولـه للخرطـوم مفتشـاً طبيـاً لهـا، وبقـي هنـاك حتـى سـقوط المدينـة وربمـا ضاعـت مذكراتـه تلـك فيـما بعـد.

أمـا المصـادر المعروفـة حاليـاً فهـي أساسـاً تقاريـر ورسـائل الأفـراد الذيـن عـاصروا تلـك الأحـداث ويـأتي في مقدمـة هـؤلاء غـوردون والمهـدي . فمـن ناحيـة المحاصريـن هنـاك التقاريـر الرسـمية وشـبه الرسـمية التـي بعـث بهـا كل مـن غـوردون وسـتيورت إلى بيرنـج قبـل إنقطـاع خـط التلغـراف . بالإضافـة إلى رسـائل ف.بـور (F. Power) التـي نشرتهـا صحيفـة ((التايمـز)) اللندنيـة . ورغـم أن هـذه تعتـبر مصـدراً أساسـياً في كشـف وجهـة النظـر الرسـمية، إلا أنهـا تشـمل فـترة أقـل مـن شـهرين ، وهـي الفـترة التـي لم يكـن الحصـار قـد بـوشر خلالهـا بصـورة فعليـة.

أمـا بالنسـبة للحقبـة التـي أعقبـت إنقطـاع الخـط التلغـرافي ، فمصادرنـا هـي معلومـات مسـتقاة مـن التقاريـر التـي كتبهـا الأشـخاص الذيـن عاشـوا في المدينـة أثنـاء الحصـار . وتختلـف هـذه التقاريـر عـن بعضهـا البعـض في عـدة نـواح مـن حيـث الحجـم والزمـن الـذي سـجلت فيـه ، ومكانـة الكاتـب ودوره في الأحـداث، ففـي حـين جـاءت يوميـات غـوردون مثـلاً في مجلـد مـن سـتة أجـزاء إقتـصرت بعـض إفـادات الجنـود والمدنيـين عـلى بضعـة أسـطر .

---

(3) المهدي إلى غوردون 2 محرم 1302.

ورغم أن هذه المجموعة الأخيرة تحوي معلومات ذات قيمة تاريخية إلا أنها تعاني من عدة نقائص ، فهي شديدة الإختصار ، جاء معظمها رداً على إستفسار بعينه أو حادثة محددة بالإضافة إلى أنها بلا إستثناء قد كتبت من الذاكرة فقط بعد سنوات من الحصار .

وسأحاول في الصفحات التالية إلقاء مزيد من الضوء على تلك التقارير وبعض المصادر الأخرى التي عالجت الفترة قيد البحث.

1 - يوميات غوردون:

بدأ غوردون في تسجيلها في 10 سبتمبر 1884 - أي بعد مغادرة ستيورت مباشرة - وانتهى منها في 14 ديسمبر من نفس العام.

وتعتبر اليوميات مصدراً أساسياً لتوثيق هذه الفترة ، إذ أن مؤلفها هو الرجل الذي كان يجلس على قمة جهاز المسئولية في الخرطوم . ولقد سجل أحداث المدينة اليومية طوال فترة ثلاثة أشهر ، فجاءت إنطباعاته وخواطره بمثابة الرأي الرسمي . كما أن بعض الرسائل التي ألحقها باليوميات تكشف لنا عن عدة جوانب للحصار ، وهي في ذات الوقت النسخ الوحيدة التي وجدت حتى الآن.

إتجه غوردون أثناء تسجيل اليوميات إتجاهين، فهو يدون الأحداث اليومية المتعلقة بالاستعدادات العسكرية، والأمور المالية والإدارية ، وموقف التموين ، ونشاط الأهالي . ويسجل من ناحية أخرى ، خواطر وآراء متعلقة بالسياسة العامة . فهو يتعرض لتطور الأحداث في البلاد منذ مجيئه ويملأ الصفحات بنقد مركز لسياسة كل من مصر وبريطانيا . وقد شغلت حملة الإنقاذ جزءاً كبيراً من تفكيره ، فأسهب في تقديم المقترحات عما يجب عليها تنفيذه . ولا بد للمرء أن يلاحظ أن هذا الاتجاه قد تغلب على الاتجاه الأول فجاء ذكره لأحداث المدينة عابراً متقطعاً .

ولعل القارئ يجد له عذراً فقد كان يعيش فترة حرجة تأكد له خلالها أن حصار الخرطوم بواسطة جموع الأنصار قد أصبح حقيقة واقعة ، وجاء فشل مهمة ستيورت ليقطع أمله الأخير في الإتصال بالخارج . ولقد إكتشف في أكتوبر أن مجموعة من أعيان المدينة ومن أعوانه كانت تتصل سراً بالمهدي وتقدم له العون المادي والمعنوي ، هذا في الوقت الذي اشتدت فيه وطأة أزمة الغذاء . كما شهدت تلك الفترة أعنف المعارك ضد الأنصار فقد فيها خيرة رجاله . لم يكن غوردون يرى في هذا الجو الخانق

مخرجاً سوى عون عسكري من الخارج ، ومن ثم فقد أسهب في شرح أهمية هذا العون مضمناً التفاصيل عن قوته ، والطريق التي يجب سلكها ، على أمل أن تصل هذه المعلومات إلى السلطات ، فيعجلوا بالتنفيذ . ولا بد أن تكون هذه التفاصيل ذات قيمة حقيقية لدراسة جوانب أخرى من تاريخ تلك الحقبة . إلا أنها لا تفيد كثيراً في محاولة البحث عن حقيقة الوضع داخل الخرطوم خلال فترة الحصار فاليوميات لا تتحدث كثيراً عن مشاكل غوردون الإدارية ، والعسكرية والغذائية ، بل أننا نجمع منها خطوطاً عريضة ونغذيها من مصادر أخرى .

تعاني اليوميات أيضاً من ضعف آخر . فهي لا تتناول إلا أحداث ثلاثة أشهر فقط من العشرة أشهر التي قضتها المدينة تحت الحصار ، وبما أن تسجيلها قد بدأ بعد ستة أشهر من وضع الحصار فهي تشير إلى قضايا لا يجد القارئ نفسه ملماً تماماً بجذورها وبدايتها . ولعل طبيعة تسجيل اليوميات لا تساعد كاتبها في التعرض لمنشأ القضية . قبل الخوض في تطورها كما هي الحال في كتابة التقارير . فيوميات غوردون هي في الواقع خواطر ومقترحات ومجموعة أفكار تحتل مركزاً أولياً في دراسة شخصية له ولكنها لا تمثل بالنسبة للموضوع قيد البحث مصدراً غنياً بالمعلومات ، التي يمكن أن تبنى عليها دراسة شاملة .

قام أجمونت هيك (Egmont Hake) بنشر اليوميات دون أن يتعرض لمحتوياتها بالتحقيق أو التصحيح إلا في حالات الأخطاء الإملائية . كتب غوردون بعض أسماء الأعلام وأسماء الأماكن بطريقة غير مألوفة جعلت ما ترمز إليه خاضعاً في أغلب الأحيان لتكهنات القارئ .

ولقد ضاعف هيك هذه المشكلة بنقله بعض الأسماء بطريقة مغايرة لتلك التي ظهرت بها في اليوميات . وليس هذا بالأمر الشاذ ، فقد كان كل من المؤلف والناشر غريبين عن عالم الأسماء العربية بصفة عامة والسودانية بصفة خاصة ، ورغم زيارات غوردون المتكررة للسودان فلم يكن من السهل عليه التمكن من اللفظ الصحيح للأسماء فدرج على كتابتها كما ينطقها . وهو محق في هذا فلم تزل كتابة الأسماء العربية بلغات أخرى مشكلة حتى اليوم بعد مضي أكثر من نصف قرن من الزمان . أما أسماء الأماكن فقد كانت ولم تزل خاضعة لكثير من المغالطات بين الباحثين ولعل طبع (Sudan Gazetteer) بواسطةمصلحة المساحة السودانية يساعد في إيجاد صيغة موحدة لكتابة هذه الأسماء .

ولقد قمت بمحاولة لتصحيح بعض الأسماء التي وردت في اليوميات ونشرت كما هي ، وتلك الأسماء التي ظهرت صحيحة في الأصل ونشرت محرفة . (ملحق ن) .

الرسائل المتبادلة بين غوردون وأمراء المهدي

وجدت مع يوميات غوردون مجموعة من الرسائل التي تبودلت بينه وبين أمراء المهدي أثناء فترة الحصار . ولقد أورد الناشر ترجمة لبعض هذه الرسائل سأحاول في الصفحات التالية إثارة نقاط معينة بصددها والتعرض لبعض أجزائها .

تتكون المجموعة من خطابين من الشيخ عبدالقادر إبراهيم [4] وثلاثة خطابات من عبدالرحمن النجومي وعبدالله نور [5] ، وخطاب من عبدالله ود جبارة [6] وخطاب من المهدي [7] . ويلاحظ أن هذا هو الخطاب الوحيد من جملة خطابات المهدي الذي أرفقه غوردون مع اليوميات . ورغم أن بعض المصادر تشير إلى أنه تسلم خطاباً بتاريخ 19 نوفمبر 1884 أي قبل أن ينتهي من كتابة اليوميات في 14 ديسمبر ، ولكنه لم يعثر عليه ضمن ملاحقها . هناك أيضاً نسخة من رسالة العلماء التي بعثوا بها للشيخ عبدالقادر إبراهيم وعبدالرحمن النجومي [8]، وثلاثة خطابات من أمراء مهدويين إلى قادة غوردون [9]أما ردود غوردون فهي تشتمل على خطابين لعبدالقادر إبراهيم [10] وخطابين لعبدالرحمن النجومي [11]، وهناك أيضاً نسخة من رسالة برقية بعث بها غوردون إلى فرج الله بك قومندان طابية أم درمان بتاريخ 3 محرم 1302، 24 أكتوبر 1884 [12].

درج المترجم أيضاً على إستعمال كلمة ((الدراويش)) [13]على لسان الشيخ عبدالقادر

---

(4) ملحق أ – ب .

(5) ملحق ج - د - هـ .

(6) ملحق و .

(7) ملحق ز .

(8) ملحق ل .

(9) ملحق ح – ط – ي .

(10) ملحق أ - ب .

(11) ملحق ج – د .

(12) ملحق ك .

(13)Ibid 279- 81.

في حين أن هذا التعبير لم يظهر في أية رسالة منه ، بل كان يدعوهم بـ ((فقراء الأنصار)) ولعل المترجم كان متأثراً بذلك اللفظ الشائع الذي كان يطلق على أتباع المهدي ، وكثر تداوله له لدرجة أن المهدي أصدر منشوراً يحرم فيه إستعماله .

لم يلتزم المترجم أيضاً الدقة في نقل الأسماء كما وردت في الأصل ، فهو يقول عبدالقادر إبراهيم مرة وإبراهيم عبدالقادر مرة أخرى [14].

جاءت النسخة العربية لرد غوردون على هذه الرسالة رديئة الخط . ضعيفة الأسلوب وبلا تاريخ [15]ولقد وردت في ختامها العبارة التالية ((وإذا كان .... محمد أحمد المهدي فلماذا يفضل لحد الآن بالابيض بل اللازم أن .... كافة البلاد)) . والإشارة هنا واضحة إلى مدينة الأبيض ولكن المترجم يقول إن الكاتب يعني النيل الأبيض [16] .

أما رد غوردون الثاني فهو يختلف عن سالفه من حيث الخط والأسلوب ولابد أنه قد حرر بواسطة كاتب آخر ، فجاء مقروءاً ومؤرخاً 30 ذو القعدة 1301هـ (21 سبتمبر 1884) [17]. ورد في النسخة العربية قوله: ((...... فاخبروا ولد النجومي وأبوقرجة بأنهم يتوجهوا لكردفان وفيما بعد عند عمل ترتيبات نجعلهم سلاطين)) وضع المترجم كلمة دنقلا مكان كردفان [18]وهذا تغيير لم أجد له ما يبرره .

فقد كان غوردون يعني كردفان وقد أشار إلى هذا الموضوع عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور في رسالة لغوردون بالقول ((.... تذكروا له أنه يخبرنا نحن وأبوقرجة نتوجه لدار الغرب أولاً لنا وعند عمل ترتيبات تجعلونا سلاطين)) [19].

حذف المترجم من تلك الرسالة فقرة ذات أهمية فهي تكشف لنا أن غوردون كان يحاول استمالة الشيخ عبدالقادر بكافة الوسائل ، فبعث له بهدية أشار إليها بقوله ((.... وأنا أعرف أنه يلزم لكم صابون لغسل وجهكم فها هو مرسل لكم صندوق صغير من غسيل وجهنا)).

حمل أو خطاب من عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور تاريخ 21 ذو القعدة

(14) Ibid, pp. 279-81, pp. 299-391.

(15) غوردون إلى الشيخ عبدالقادر ، ملحق أ .

(16) Journals of Gordon, pp. 281-2.

(17) غوردون إلى الشيخ عبدالقادر ، ملحق ((ب)).

(18) Journals of Gordon pp. 289-9.

(19) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون باشا ملحق د .

1301هـ (13 سبتمبر 1884) حذف المترجم فقرة قد تساعد في إجلاء الحقيقة حول عدد الرسائل التي بعث بها غوردون إلى المهدي ، فحتى اللحظة لدينا نسخة من رسالة واحدة هي تلك الرسالة المؤرخة 12 ربيع ثان 1301هـ (10 فبراير 1884) إلا أن بعض المصادر أشارت إلى أنه قد كتب رسائل أخرى وأورد بعضها نصوصاً لتلك الخطابات .

يقول الأميران في خطابهما ((... وحيث أنك أولاً بحال حضورك بالخرطوم قد كاتبك الإمام المهدي عليه السلام بالتسليم لأمر الله ورسوله وأعلمك بالحقيقة التي لا كذب فيها وأوعدك بعد هذا إن لم تسلم لأمر الله ورسوله فإن حزب الله واصل إليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فاستدعيت ملك عباده مع أن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده الصالحين ومع ذلك رددت لسيادته رداً غير المقصود والمفهوم منه عدم الامتثال والإنقياد لما أمرك به)). [20]

فهل تعني الإشارة هنا أن غوردون قد بعث للمهدي برسالة بعد أن استلم رد المهدي على خطابه الأول؟.

لقد أورد نصحي باشا رسالة نقلها عنه نعوم شقير ولأنها مؤرخة بـ 19 نوفمبر . فلابد أن إشارة الأميرين هنا لخطاب آخر [21] ولعله ذاك الذي بعث به العلماء للمهدي فهما يقولان في نفس المصدر ....((وخاطبت سيد الجميع عليه السلام بعدم الامتثال مستدلاً بآيات قرآنية وأحاديث نبوية على لسان كتابك وعلمائك الضالون)) .

حمل رد غوردون إلى النجومي تاريخ 23 ذو القعدة 1301 ، (15 سبتمبر 1884). وقد حذف المترجم أجزاء لها مدلولها في الكشف عن نظرة غوردون واستخفافه بالمهدية ، فهو يكتب ((أما من جهة المدافع والصواريخ الذي تريدوا ضربنا بهم فمع أنه موجود عندنا مثلهم كثير كنا نقرأ في الجوابات أن المهدي يهلك بدون مدافع ولا صواريخ فما هي الحقيقة)) كما حذف فقرة أخرى تعكس مبالغة غوردون في مقدرته الذاتية وعدم تقديره الصحيح لأهمية التأييد الذي يسبغه عليه سكان المدينة ، فهو يقول ((... وكذلك الأهالي والعلماء الذين تقولوا إنهم مظاهرين معنا وباطنهم معكم ويوم ما يحصل القتال يتركونا ويهربوا عندكم فإننا ليس حاجزنهم بطرفنا ولا جابرنهم من التوجه لطرفكم فتوجههم وعدمه على حدا سوى ولماذا لم يتوجهوا لمقابلتكم))[22] .

---

(20) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون باشا ملحق ج .

(21) Nushi Pasha, p.182,

(22) غوردون إلى عبدالرحمن النجومي ملحق ج .

ولقـد أرسـل غـوردون خطابـاً آخـر لعبدالرحمـن النجومـي بتاريـخ 21 ذو الحجـة 1301هـ (24 سـبتمبر 1884) وتعاقـب مـع خطـاب النجومـي الـذي يحمـل نفـس التاريـخ [23]. أغفـل المترجـم الجـزء الأول مـن هـذه الرسـالة رغـم أهميتهـا في تصويـر أسـاليب غوردون لإرهـاب خصمـه بإعطائـه معلومـات مبالـغ فيهـا عـن قـوة حملـة الإنقـاذ وعـن معـارك لم تحـدث عـلى الإطـلاق أعقبتهـا إنتصـارات وهميـة . فهـو يصـف الحملـة ((... الذيـن وصلـوا مـن جيـوش الإنجليـز لجهـة مـروي عـشرة آليـات بيـادة وخيالـة وطوبجيـة والباقـين خلفهـم في دنقـلا ووادي حلفـا وأن مديـر دنقـلا أجـرى قتـل الفـكي الهـدي والشريـف محمـود . وصـار قطـع جيوشـهم عـن آخرهـم ومـن إخباريـة أخـرى حـضرت لنـا مـن مخصـوص مـن جهـة بربـر بـأن وابوراتنـا دخلوهـا ومنتظريـن حضـور العسـكرية ..)) [24]

أمـا خطابـات الأمـراء ، فهـي تشـمل عـلى خطـاب مـن الصديـق الطاهـر ، وحامـد ولـد إدريـس الشـايب إلى عثـمان بـك قائمقـام طابيـة أم درمـان [25] وخطابـين مـن أحمـد المصطفى الأمـين، أحدهـما إلى عثـمان بـك ، والآخـر لخشـم المـوسى [26] لم يرفـق غـوردون أي نسـخ للـردود عـلى هـذه الرسـالة مـع اليوميـات ، ويبـدو أن قادتـه لم يبعثـوا بـردود كـما هـو واضـح مـن خطـاب أحمـد المصطفـى ، فهـو يخاطبهـم ((أيهـا الأحبـاب لقـد طالمـا دعوناكـم إلى اللـه ورسـوله ومهديـه عليـه السـلام بـلا أجوبـة فلـم تحـضروا ولا ترسـلوا لنـا رسـل مـن طرفكـم كـما طلبنـا منكـم ذلـك))[27].

حمـل خطـاب الصديـق الطاهـر وحامـد ولـد إدريـس الشـايب تاريـخ 23 ذي الحجـة 1301هـ (5 أكتوبـر 1884) . أعطـى المترجـم ملخصـاً لهـذه الرسـالة ولكنـه نقـل اسـم الصديـق الطاهـر ((السـيد الطاهـر)) [28].كذلـك حمـل خطـاب أحمـد المصطفـى لعثـمان بـك نفـس التاريـخ . فـسر المترجـم الإشـارة إلى الباخـرة التـي حملـت سـتيورت لتعنـي باسـم

---

(23) غوردون إلى عبدالرحمن النجومي ملحق د .

عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون باشا ملحق د .

(24))غوردون إلى عبدالرحمن النجومي ملحق د .

(25) الصديق الطاهر وحامد ولد إدريس الشايب إلى عثمان بك ، ملحق ي .

(26) أحمد المصطفى إلى عثمان بك ، ملحق ح .

أحمد المصطفى إلى خشم الموسى ، ملحق ط .

(27) أحمد المصطفى إلى عثمان بك ملحق ح .

(28) Journals of Gordon pp. 311-2.

((خرطومية)) [29]ولكن لم تكن بين أسطول غوردون باخرة تحمل هذا الإسم . وعندما يقول الكاتب إن ((الوابور الخرطومية قبضت والفقرا أهلكوا من فيها)) فلا بد أنه يعني الباخرة ((العباس)).

تقرير مجلس الضباط:

في رمضان 1303 (يونيو 1886) وضع مجلس من العسكريين والمدنيين برئاسة محمد نصحي باشا تقريراً باللغة العربية عن حصار الخرطوم، منذ وصول غوردون إليها وحتى سقوطها تحت عنوان ((حياة غوردون باشا في الخرطوم)) [30] . اقتصرت عضوية المجلس على كل من السيد أمين أفندي الذي كان أثناء الحصار قائداً للفرقة الرابعة ، واحتل مركزاً من خط النار غرب بوابة الكلاكلة ، وحسن أفندي عبدالله وكيل المديرية ، ومرزوق أفندي رزق ، وعبدالقادر بك حسن ، وميخائيل أفندي داود . ليست هناك معلومات مؤكدة عما إذا كان هؤلاء قد أقاموا في الخرطوم طوال مدة الحصار ، وإلى أن سقطت المدينة ، ولكن يلاحظ أن أعضاء المجلس بإستثناء نصحي باشا ومرزوق أفندي رزق قد قدموا شهود في محاكمة حسن بك بهنساوي التي إنعقدت في القاهرة[31].

فلا بد أنهم قد عاصروا الحصار وشهدوا السقوط . إلا أن نصحي باشا لم يكن هناك، إذ غادر المدينة إلى شندي في 30 سبتمبر 1884 ، ولم يعد إليها مرة أخرى .

ولم يذكر المؤلفون عما إذا كان تقريرهم قد كتب من الذاكرة أم أنهم إستعانوا ببعض الوثائق التي سجلت أثناء الحصار.

من المرجح أن يكون نصحي باشا قد إحتفظ بمثل هذه السجلات ، إذ أنه ترك لنا يوميات شاملة عرفت بـ ((جورنال الحوادث)) سجل فيها وقائع الفترة التي قضاها في شندي . ولعله قد فعل ذلك الشيء أثناء وجوده في الخرطوم .

.4-Ibid, pp. 313 (29)

(30) محمد نصحي باشا (1838-1903) تركي الأصل، درس العلوم العسكرية في برلين، واشترك في الحرب الروسية – التركية ١٨٧٧، ذهب إلى السودان وشهد إندلاع الثورة المهدية وساهم في حصار الخرطوم، إلا أنه غادر المدينة بآخر سبتمبر ليقود الأسطول المكلف بانتظار حملة الإنقاذ في شندي . بعد سقوط الخرطوم ، رجع مع الحملة إلى مصر وفي نفس العام تمت ترقيته إلى ربتة لواء ، ولكنه تقاعد بعد ذلك بقليل.

.Hill, Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, p.241

(٣١) كان حسن بك بهنساوي أثناء الحصار مسئولًا عن خط الدفاع الممتد من النيل الأبيض وحتى بوابة الكلاكلة. ولقد اتهم عند رجوعه إلى القاهرة بتهاونه في صد هجوم الأنصار عشية ٢٦ يناير ١٨٨٥. فعقدت له محكمة عسكرية في أبريل ١٨٨٧ وبعد الاستماع إلى عدد من الشهود قررت تبرأته.

.90-Wingate,Mahdiism and the Egyptian Sudan, pp. 556

ويبدو أن التقرير قد كتب بمبادرة من الضباط أنفسهم في محاولة لتسجيل أحداث تلك الفترة من وجهة نظرهم . ولقد قام نعوم شقير بترجمته للإنجليزية ، وإعتمد عليه في تأليف الجزء الخاص بحصار الخرطوم في كتابه ((جغرافية وتاريخ السودان)). ولأن كل الذين تطرقوا لمعالجة تلك الفترة إعتمدوا في الأساس على نعوم شقير يبقى هذا التقرير المصدر الذي أعطى حصار الخرطوم صورته المعروفة حتى الآن في التاريخ.

كان ونجت على علم بوجود التقرير ، إلا أن محاولاته في الحصول عليه قبل إنجاز كتابه (Mahdiism and the Egyptian Sudan) لم تثمر ، ولكنه علم فيما بعد أن الخديوي يحتفظ به في مكتبته الخاصة ، فاستأذنه في الإطلاع عليه ، وقدم ملخصاً له في (SNR XIII, 1930) . إعتمد ونجت هنا على ترجمة نعوم شقير ونشرها كما هي ، اللهم إلا تعديلات طفيفة في الأسلوب وحذف بعض الفقرات التي رأى أنها ليست على أي قدر من الأهمية .

ويعتبر التقرير الوثيقة الوحيدة المعروفة حتى الآن التي تعالج حصار الخرطوم منذ بدايته إلى نهايته وبصورة تفصيلية .

فهو يقع في حوالي 280 صفحة فلسكاب كتبت بخط اليد . وقد ركز على الأحداث اليومية دون أن يسجل أي إنطباعات أو آرء سياسية . ولعل هذه هي ميزته الرئيسية على يوميات غوردون . فأمدنا التقرير بمعلومات عن موضوعات شتى ، منها سلوك سكان المدينة وتعاونهم مع غوردون وإستجابتهم لإجراءاته وعلاقتهم بالأنصار . وأعطى تفاصيل عن الأمور المالية ، والإدارية ، والعسكرية ، وتطرق إلى مشكلة الغذاء ودورها في تصعيد الأزمة والتعجيل بالسقوط . كشف لنا أيضاً عما إتخذ من خطوات في سبيل تنفيذ الإخلاء كما أورد معلومات عن البعثة التي أوفدها غوردون لإنتظار حملة الإنقاذ في شندي .

تضمن التقرير أيضاً ملخصات لبعض الرسائل المتبادلة بين غوردون والأنصار، وبين هذه الرسائل رسالة من عبدالقادر إبراهيم ورد غوردون عليها ، ورسالتان من المهدي ورد غوردون عليهما ، ورسالة من علماء المدينة إلى المهدي ، ورسالة من أبي قرجة ، ورسالتان من النجومي ورد غوردون عليهما .

وإذا ما قارن القارئ بالمصادر الأخرى ، فإنه قلما يجد تناقضاً في الحقائق الأساسية ، كما أن إبراهيم البورديني ، وهو تاجر مصري أقام في الخرطوم وبقي حتى سقوطها

، قد كلف بقراءة التقرير وتسجيل ملاحظاته عليه ، ورغم أنه أبدى بعض التحفظات ولكنه قبله بصورة عامة .

ويلمس القارئ بي سطور تعليق البورديني أن نصحي باشا قد ألبس نفسه ثوباً أكبر مما يستحق ، وأنه لم يكن بأي حال ذاك الرجل الذي صوره المؤلفون . وإذا استعنا بالمصادر الأخرى ثبت بالفعل أن نصحي باشا قد اضطلع أثناء الحصار ببعض المهام ذات المسئولية والأهمية . فقاد بعض الحملات العسكرية الناجحة ضد الأنصار .

كما أن بعثته إلى سنار عادت محملة بالأغذية ، وأنعم عليه غوردون بلقب الباشوية ، ثم عقد إليه لواء قيادة إسطول شندي .

ولكن يبدو أن تلك الثقة لم تكن مطلقة ، وربما كان إرساله لشندي محاولة لإبعاده ، خاصة ، أن غوردون سبق أن طلب منه مغادرة البلاد مع الجنود المصريين ، كما يلاحظ من يوميات غوردون وجورنال الحوادث أنه درج على مخاطبة نصحي باشا بلهجة عنيفة طوال مدة بقائه في شندي .

بالإضافة إلى هذا فقد رفع توصية عن طريق يومياته لقائد حملة الإنقاذ طالباً منه بألا يعود بأي من ((الجنود البيض)) المتمركزين في إسطول شندي مرة أخرى للخرطوم . ومن ثم لابد أن يميل القارئ إلى الإعتقاد بأن نصحي باشا قد جنح إلى المبالغة في تصوير نشاطه أثناء الحصار ، ولعه يهدف من وراء ذلك للحصول على أكبر قدر من الإنعامات المادية والمعنوية من الحكومة المصرية .

ومن ناحية أخرى ، علينا أن نأخذ تعليق البورديني بحذر ، إذ لا يبدو أنه خال من الغرض . فقد كتب هو تقريراً منفصلاً وصور نفسه تاجراً يُشار إليه بالبنان ، وساعد غوردون الأيمن الذي كثيراً ما أنقذه من الأزمات المالية والإدارية ، إلا أن مؤلفي التقرير تجاهلوه تماماً ولم يذكروا اسمه إلا في مناسبتين لم يكن الحديث فيهما من مصلحته : وكانت المناسبة الأولى تتعلق بحادثة التاجر الإغريقي الذي يملك مخبزاً مناصفة مع البورديني . وقد اتهم هذا التاجر بإخفاء الذرة حتى يتمكن من بيعها بسعر عال عند اشتداد الحصار . ورغم أن الإتهام لم يوجه للبورديني إلا أن الإشارة كانت كافية لإثارة الشك حول نشاطه . أما المناسبة الثانية فتشير إلى أن البورديني كان يدل أحمد سليمان عند سقوط المدينة على الجميلات من النساء والأثرياء من الأهالي . وقد أنكر البورديني التهمة الأولى ولكنه اعترف بالثانية وبررها بأنها كانت ضرورية لحماية أمواله

الخاصة . ولعل استماتة البورديني في الدفاع عن نفسه هنا كانت مرتبطة بخشيته من أن يتهم بالتعاون مع الأنصار ، ويتعذر عليه بالتالي إسترداد أي مبالغ يحتمل أن يكون قد أقرضها لغوردون مقابل أوراق البون أثناء الحصار . فربما جاء إذن تشككه في الدور الذي لعبه نصحي باشا كرد فعل لتجاهل المؤلفين له .

ولقد أورد التقرير ترجمة لخطابين بعث بهما غوردون إلى المهدي أولهما بعث به بعد إستلامه لرد المهدي على خطابه الأول ، والثاني أرسله له بعد وصوله إلى أم درمان [32] ولم تذكر أي مصادر أخرى شيئاً عن هذه الخطابات سوى نعوم شقير [33]وقد جزم البورديني أن غوردون لم يبعث للمهدي سوى رسالة واحدة تلك التي تحمل تاريخ 10 فبراير 1884.

نقل التقرير أيضاً ترجمة للخطابات التي بعث بها الأمراء لغوردون ، إلا أن أجزاء من هذه تختلف إختلافاً كبيراً عن الأصل كما يلاحظ القارئ في بعض الحالات وجود فقرات لم ترد على الإطلاق ، مما يدل على أنهم كانوا يكتبون هذه الرسائل من معلومات سماعية ، أو لأنهم قد قرأوها في وقتها ولكنهم نسوا محتوياتها عند كتابة التقرير .

وفي ترجمة لخطاب من عبدالرحمن النجومي ذكر المؤلفون على لسانه ((أنا أمير أمراء قوات المهدي ، فاتح كردفان وجبل قدير الملقب بالسيف المشهور)) [34]لم ترد هذه العبارة في أي من خطابات النجومي ولعل الفقرة التي سمع بها المؤلفون هي قوله (إن المهدي) ((قد عينا نحن العاملين المذكورين بهذا وأمدنا برجال ثقات من أصحابه يحبون الموت كحبكم للحياة)) [35] .

ولقد تعرض رد غوردون للتحريف أيضاً ، ولعلهم كانوا يسعون إلى تصويره كالبطل المقدام الذي لا يهاب مخاطبة خصمه بلهجة مثل ((عليكم أن تتأكدوا أني لن أعر سيدكم المزيف المهدي إهتماماً وسترون عما قريب جيشكم منهاراً كما حدث لقوات أبو قرجة ، وجيش إبن عمكم في الحلفاية فأمسكوا ألسنتكم وكفوا عن هذا الهراء[36].

(32) Nushi Pash, p. 74, p. 182.

(33) نعوم شقير ص 847 .

(34) Nushi Pasha, p. 113.

(35) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون باشا ، ملحق ، ج .

(36) 4-Nushi Pash, p. 113.

إختلفت المصادر حول الكيفية التي إستسلم بها صالح المك عندما كان محاصراً في جزيرة فداسي من قبل أعوان محمد الطيب البصير . ذكر التقرير أن هذا تم نتيجة لخدعة من أبي قرجة والعبيد بدر اللذين أوهما صالح المك بأن الخرطوم قد سقطت . فما كان منه إلا أن رمى عدته وعتاده الحربي في النهر واستسلم وهو مكتئب [37] وقد ذكر التقرير أن أبا قرجة إخترع هذه الحيلة بعد أن ذهب إلى الخرطوم ، وتأكد له أنه لن يتمكن من إقتحام بواباتها بالقوة التي لديه . فسار إلى فداسي على أمل أن يجبر صالح المك على التسليم ويعزز جيشه بجنود الشايقية وأسلحتهم . ولكن إسماعيل بن عبدالقادر يورد رواية مختلفة يذكر فيها أن صالح المك قد استسلم من تلقاء نفسه ، وكتب رسالة للمهدي يعلن فيها اعتذاره عما إقترفه سابقاً في حق الأنصار ، ويسأله أن يبعث بأحد قادته ليتم التسليم على يديه . وأنه كان متخوفاً من التسليم لمحمد الطيب البصير خشية من أن يتعرض هو ورجاله إلى بعض الإجراءات الإنتقامية . فإستجاب المهدي لطلبه وبعث بمحمد عثمان أبي قرجة الذي سار من توه لفداسي وتوجه منها إلى الخرطوم ، حيث شرع في وضع الحصار ، ولقد أيد إبراهيم فوزي هذه الرواية .

وذكر التقرير أيضاً حادثة في هذا الشأن تجعل القارئ يتشكك في صدق رواية المؤلفين. فهو يقول : إن غوردون كان على علم بنوايا أبي قرجة ، فبعث برسول لصالح المك يحذره ألا يعير أي أنباء ينقلها له أبو قرجة التفاتاً [38] وقد تأكد تبليغ تلك الرسالة لصالح المك فإذا كان الأمر كذلك ، لماذا استسلم وهو يعلم سلفاً أن رواية سقوط المدينة إنما هي محض إختلاق .

تقرير إبراهيم البورديني:

كان إبراهيم البورديني يعمل بالتجارة في الخرطوم وبقي فيها حتى وصول غوردون. ولقد عاصر فترة الحصار حتى سقوط المدينة . ثم سافر إلى بربر فيما بعد ، وتمكن من الفرار إلى سواكن في يونيو 1887 ومنها وصل إلى القاهرة . ولقد كتب تقريراً بعنوان (حصار الخرطو وسقوطه 1 ذو الحجة 1304) . وهو يقع في حوالي 20 صفحة تشمل الفترة منذ وصول غوردون إلى ما بعد سقوط المدينة .

---

(37) Ibid, p. 63 .

(38) 1-Nushi Pasha, pp. 40.

ويعالـج البوردينـي في الأسـاس الجانـب العسـكري فهـو يصـف المعـارك التـي جـرت بـين قـوات الحكومـة والأنصـار ، ويركـز عـلى المرحلـة الأخـيرة مـن الحصـار .

وذكـر التقريـر أن المهـدي أرسـل لغـوردون ((كسـوة الزهـاد)) مـع خطـاب بعـد وصولـه إلى ديـم أبي سـعد ، ولكـن هـذا قـد تـم قبـل مجـئ المهـدي بحـوالي خمسـة أشـهر حينـما كان مقيـماً بالرهـد . ورغـم أن البوردينـي قـد جـزم في معـرض تعليقـه عـلى تقريـر نصحـي باشـا أن غـوردون لم يرسـل للمهـدي سـوى رسـالة واحـدة إلا أنـه يعـود ويذكـر في تقريـره أن غـوردون قـد كلـف إبراهيـم بـك رشـدي ليكتـب خطابـاً للمهـدي يحـذره مـن الإتصـال بـه مـرة أخـرى . وقـد جـاءت هـذه الرسـالة بعـد تسـلمه لخطـاب المهـدي الـذي يرفـض فيـه سـلطنة كردفـان .

نصيحة العوام للخاص والعام

كان أحمـد العـوام كاتبـاً لعـرابي باشـا ونفـي إلى الخرطـوم بعـد معركـة التـل الكبـير ، وقـد أبـدى تعاطفـاً مـع المهـدي وبـذل محـاولات لإقنـاع الأهـالي بدعوتـه ، فـكان يخطـب علانيـة في التجمعـات منـدداً بوعـود غـوردون ، ومشـيداً بإنتصـارات المهـدي ، حـاول غوردون التفاهـم معـه فعينـه كاتبـاً ، ويقـال إنـه حـرر بعـض الخطابـات التـي بعـث بهـا غـوردون للأمـراء . ولكـن مـا أن وصـل المهـدي إلى أم درمـان حتـى عـاود سـيرته القديمـة . فذكـرت بعـض المصـادر أنـه كان يقـوم بـكل مـا مـن شـأنه أن يغضـب الحكومـة ، وفي النهايـة أوعـز لإحـدى النسـاء إضرام النـار بمخـزن الذخـيرة ، فاكتشـف أمـره وقـرر غـوردون الحكـم عليـه بالإعـدام ونفـذ فـوراً.

ولقـد كتـب العـوام نصيحتـه في 20 رمضـان 1301هــ ، وصدرهـا بقولـه ((هـذه الرسـالة المسـماة بنصيحـة العـوام للخـاص والعـام مـن إخوانـه أهـل الإيمـان والإسـلام في وجـوب إتحادهــم وإئتـلاف قلوبهــم بإتبـاع سـيدنا إمـام الزمـان محمـد المهـدي المنتظـر عليـه السـلام)). وهـي ليسـت سـجلاً للأحـداث بقـدر مـا هـي خواطـر وآراء في الديـن والسياسـة وتقـع في حـوالي 60 صفحـة قسـمها إلى خمسـة فصـول .

ويبـدو أن الغـرض مـن كتابـة النصيحـة كان رغبتـه في النيـل مـن الحكومـة التركيـة ، فهـو يحملهـا كافـة مسـؤولية مـا يحـل بالمسـلمين مـن بلايـا ، لأن الحـكام لا يتقيـدون بكتـاب اللـه وسـنة رسـوله . وهـو يدعـو المسـلمين إلى عـدم إتخـاذ اليهـود والنصـارى أوليـاء لهـم ، ووجـوب وقـف القتـال بـين بعضهـم البعـض ، والالتفـاف حـول المهـدي لأنـه يدعـو إلى إقامـة

دين الحق .

السودان بين يدي كتشنر وغوردون

ضمن إبراهيم فوزي كتابه بالعنوان أعلاه فصلاً عن حصار الخرطوم منذ وصوله إليها مع غوردون في 18 فبراير 1884 . ولم يكن إبراهيم فوزي غريباً عن البلاد ، فقد سبق أن عمل فيها أثناء ولاية غوردون الأولى ، وقد اتهم بالاشتغال بتجارة الرقيق حينما كان حاكماً على بحر الغزال ، ولكن غوردون عفا عنه وطلب منه أن يعود معه مرة أخرى للسودان عندما إلتقى به في القاهرة .

أورد إبراهيم فوزي معلومات أساسية عن أحداث المدينة ولكنه يميل إلى الإختصار، ويعطي أحياناً معلومات غير دقيقة . وهو يقول أن غوردون بعث بخطابه إلى المهدي من كورسكو في حين يذكر ستيورت أن هذا قد تم من قرية شمال بربر بقليل ولعل تاريخ الخطاب (10 فبراير) يؤيد الرأي الأخير .

ويورد المؤلف أرقاماً مبالغاً فيها ، من ذلك مثلاً تقديره لسكان الخرطوم الأجانب بـ 200 ألف ، والوطنيين الذين هجروا المدينة إلى المهدي بـ 30 ألف ، وقدر قوات أبي قرجة بـ 20 ألف مقاتل ، والذين ساروا مع المهدي 800 ألف تقريباً .

سعادة المستهدي في سيرة الإمام المهدي

لمؤلفه إسماعيل بن عبدالقادر ، أبن أخت أحمد الولي الكردفاني . درس في الأزهر وأصبح مفتياً لمديرية كردفان ومقيماً في الأبيض . عند وصول المهدي إلى منهل كابا أعلن تأييده له وبقي في معيته إلى أن كلفه الخليفة عبدالله بكتابة سيرة المهدي . فاستعان بالأنصار الذين شاركوا في الأحداث ، فكتب سيرة شاملة للفترة منذ قيام المهدي إلى ما قبل موقعة توشكى (رمضان 1298 إلى 3 ربيع أول 1306) . ولقد وشى به البعض فنفاه الخليفة إلى الرجاف 1893 وحرق كل نسخ سيرته ، ولكن أحد العساكر المصريين تمكن من إخفاء نسخة إستعان بها نعوم شقير فيما بعد في كتابة تاريخه .

ويبدو أنه سلمها لونجت فحفظت ، مع أوراقه في جامعة درم.

وقد ركز إسماعيل بن عبدالقادر على المعارك التي خاضها الأنصار ضد قوات الحكومة بل هو يعالج تاريخ المهدية من خلال ((الغزوات)) . فسجل حصار الخرطوم من خلال حملات الأمراء مبتدئاً بـ ((سرية محمد عثمان)) الشهير بأبي قرجة ثم

((سرية عبدالرحمن النجومي)) ثم ((ذكر فتح خندق أم درمان)) . ورغم أنه قد أعطى تفاصيل للأحداث إلا أنه لم يورد أي أرقام . ويلاحظ القارئ أنه لم يذكر شيئاً عن الرسائل المتبادلة بين غوردون والأمراء سوى رسالة أبي قرجة .

رسالة كوزيGuzzi, G. Fifteen Years Prisoner of the False Prophet.

جاء المؤلف جوسيبي كوزي إلى الخرطوم في 82/1/1 كمندوب لإحدى الشركات التجارية . وبقي فيها إلى ما بعد هزيمة يوسف الشلالي حين سافر إلى سنار ، ولكنه عاد مرة أخرى في يونيو 1883 وبقي حتى آخر نوفمبر ، ثم سافر إلى بربر وبقي هناك إلى ما بعد سقوط المدينة . ووقع في أسر الأنصار حتى أطلق سراحه عند مجئ جيش كتشنر . إذن ، فالمعلومات التي أوردها عن الحصار هي في مجموعها سماعية لأنه لم يكن داخل المدينة أثناء تلك الفترة رغم أنه قد زارها لمدد قصيرة . وفوق هذا لم يؤلف الكتاب بنفسه بل أعطى المعلومات لصحفي ألماني فنشرها هذا بإسمه في أبريل 1899 .

ولقد أورد في الفصل الأول والثاني معلومات عن المهدية منذ بداية الدعوة في أبا إلى معركة شيكان ولعله قد حصل على هذه من بعض الأشخاص الذين إلتقى بهم أثناء الأسر . فاشتملت على وصف لأحداث وقع بعضها وبعضها الآخر لم يقع وبعضها هو جرائم إرتكبها الأنصار ، فهو يذكر مثلاً أنهم كانوا يقتلون يمنة ويسرة عند دخولهم الأبيض . في حين أن هذا لم يحدث على الإطلاق .

ولقد ركز في الفصول التي تلت هذه (الثالث – الرابع – الخامس – السادس) على أحداث بربر ومجيئه إلى الخرطوم كرسول من قبل محمد الخير ، ثم سفره لمقابلة المهدي ورجوعه مرة أخرى إلى بربر ، وخصص الفصل السابع للفترة التي أعقبت سقوط المدينة وحتى مجئ جيش كتشنر .

ولقد أخطأ كوزي حينما قال: إن غوردون أرسل هدية مع خطاب إلى المهدي بعد وصوله الخرطوم ، فقد تم هذا قبل وصوله إلى بربر ، ثم أن غوردون لم يعترف به سلطاناً على السودان الغربي حسب رواية المؤلف ، بل على كردفان فقط.

النداءفي دفع الافتراء:

عالج مؤلفه محمد عبدالرحيم موضوعات متفرقة عن تاريخ المهدية . وكان المؤلف

قد شهد حصار الخرطوم مع الأنصار ولكنه سجل بعض الأحداث المتعلقة بالجانبين ، فوصف المعارك التي دارت مدعمة بالتواريخ والأسماء .

ولقد إنفرد هذا المصدر بإيراده نصاً قيل إنه للخطاب الذي ألقاه غوردون عند وصوله للمدينة ، ورغم أنه تضمن بعض المعلومات التي رددتها مصادر أخرى إلا أن القارئ لا يملك إلا أن يتشكك في بعض التفاصيل . منها مثلاً قول غوردون ((... وقد خابرت السيد محمد أحمد المهدي بفحوى مأموريتي)) ومصدر الشك هنا أن غوردون كان يتجنب دعوة المهدي بهذا الإسم ، لأن هذا يعني الإعتراف به ، وقد خاطبه في رسالته التي ضمنها مجموعة المسلمي بـ ((السيد محمد أحمد)) فقط وأشار المؤلف إلى أن غوردون قد إعترف به سلطاناً على ((السودان الغربي برمته)) ولكن خطاب غوردون يحدد السلطنة بكردفان فقط . وعن تجارة الرقيق ذكر المؤلف أن كل الأوامر الصادرة بشأنها قد ألغيت ورغم أن نصحي باشا قد أورد معلومات مماثلة إلا أن المنشور الذي أصدره غوردون في هذا الشأن كان ينادي بإلغاء الإتفاق الذي صدر عام 1844 والذي نص على عتق الرقيق بعام 1889 فقط كما أن العفو الذي أصدره غوردون لم يشمل((جميع المسجونين على إختلاف جرائمهم)) كما يذكر المؤلف هنا بل إستثنى القتلة .

تاريخ حياتي :

كان بابكر بدري ، مؤلف هذه السيرة ، يقيم مع عائلته برفاعة، وعند إندلاع الثورة إستجاب والده لدعوة المهدي فحضر بعائلته إلى أم درمان فوجد المهدي قد إستقر في ديم أبي سعد . ولقد شارك المؤلف في العمليات التي شهدتها الأيام الأخيرة من الحصار وكان بين أوائل الذين دخلوا المدينة في صبيحة 26 يناير من الجزء الجنوبي الغربي من الخندق الذي هدمه فيضان النيل .

ولقد تعرض لأحداث الحصار في بضع صفحات كانت أساساً حول الأسابيع التي سبقت سقوط المدينة ، ولم يورد أرقاماً ولا تواريخ . وقد أخطأ في تاريخ بعض الأحداث ، فهو يذكر مثلاً أن المعركة التي قتل فيها ساتي بك تمت بعد مجئ النجومي ولكنها في الواقع قبله وهو يقول أيضاً إن صالح المك قد سلم للشيخ العبيد بدر ، ولكن المصادر تتفق على أن التسليم قد تم على يد أبي قرجه وربما بحضور الشيخ العبيد.

الفصل الأول

الفصل الأول

تمهـــيد

نبذة في تاريخ مدينة الخرطوم

تمهـــيد

نبذة في تاريخ مدينة الخرطوم

يجمـع المؤرخـون أن الخرطـوم – كقريـة صغـيرة يؤمهـا صائـدو الأسـماك قـد وجـدت في التاريـخ منـذ أزمـان سـبقت قيـام مملكـة الفونـج في 1504 إلا أنهـا لم تحـظ بـأي إهتـمام مـن جانـب أي مـن الحـكام ، ولعـل كل مـا اكتسـبته في العهـد الجديـد هـو قيـام عـدة خـلاو لرجـال الديـن في منطقتهـا [39]، فنشـأت إحـدى هـذه الخـلاوي في قريـة تـوتي ، وكان مـن رجالهـا الشـيخ أربـاب العقائـد الـذي مـا لبـث أن انتقـل إلى الخرطـوم في 1691 [40]ويبـدو أن بعـض الأهـالي قـد سـعوا إلى التقـرب مـن الشـيخ فانتقلـوا إلى الإقامـة معـه في القريـة ، إلا أن هـذا لم يكسـبها شـهرة تذكـر فبقيـت كـما هـي ، قريـة للصياديـن لا تجـذب إنتبـاه المسـافرين الأجانـب فلـم تـرد أي إشـارة لهـا في كتاباتهـم أو خرائطهـم رغـم أن البعـض قـد وضـع قـرى أخـرى . مثـل تـوتي وأم درمـان والحلفايـة في مواضعهـا الصحيحـة .

بـدأ تطـور القريـة مـع فتـح محمـد عـلي باشـا ، إذا قـام أحـد أحفـاد الشـيخ أربـاب ، محمـود ود عـلي ، بإسـتقبال إسـماعيل باشـا في مـكان مقابـل الحلفايـة عنـد وصولـه في 24 مايـو 1821 . وعنـد عبـوره النيـل استقبله في الخرطـوم الفـكي أربـاب ود عـلي خليفـة الشـيخ أربـاب . وفي أولى مراحـل تنظيـم الإدارة بعـد الفتـح ، وضعـت الخرطـوم في نطـاق مديريـة سـنار إلا أن الاحتفـاظ بحاميـة صغـيرة في كـرري قـد أسـبغ عـلى المنطقـة بعـض الأهميـة . ثـم جـاء مقتـل إسـماعيل باشـا والمـآسي التـي صحبتـه لتسـتحوذ عـلى إهتـمام السـلطات الكامـل في كل مـن مـصر والسـودان ، ولم يكـن التفكـير في تعمـير البـلاد وارداً في تلـك الأيـام ، فبقيـت الخرطـوم بعيـدة عـن الأضـواء .

وفي 1824 تسـلم عثـمان بـك برنجـي ، مقاليـد السـلطة مـن الدفـتردار، فـأتى بكتائـب مـن الجنـد شـيد لهـم معسـكراً في أم درمـان في حـين عـبر هـو النيـل إلى الخرطـوم ، واسـتقبله هنـاك الشـيخ شـنبول ود مـدني الـذي تـم تعيينـه ، فيـما بعـد شـيخاً عـلى المنطقـة الممتـدة مـن حجـر العسـل إلى جبـال الفونـج [41]. ويبـدو أن عثـمان بـك قـد فطـن إلى إسـتراتيجية

(39) 47, 1966, p. 3. Stevenson, “Old Khartoum 18211885-”, SNR

(40) أبوسليم ، معلومات من تاريخ مدينة الخرطوم ص 4 .

(41) الشيخ أحمد كاتب الشونة ، تاريخ ملوك السودان، مراجعة م. شبيكة ص 22 .

موقع الخرطوم فعين عثمان بك خربوطلي وكيلاً له في القرية . وقد أعقب هذا تشييد مبنى لرئاسة الإدارة الحكومية نقلت إليه وحدات من المصالح ومخزونات الدولة [42].

وعند إنتهاء ولاية عثمان بك برنجي خلفه محو بك مدير مديرية بربر ، فأتى بجنوده وشيد لهم معسكراً في حلة خوجلي شمال الخرطوم ، وحظيت القرية ببعض الشهرة عندما تم بناء مقر دائم للحكومة فيها [43].

بدأ تفكير الحكام الجدد يتجه نحو إيجاد عاصمة للبلاد بعد أن أتضح أن مناخ سنار لا يلائمهم صحياً . وقد استبعدت ود مدني لنفس السبب فيما بعد ، والمعتقد أن محمد علي باشا قد اختار شندي مقراً لعاصمة ملكه بناء على نصيحة الأطباء ، إلا أن مقتل إبنه هناك جعله يصرف النظر عنها .

غير أن خورشيد باشا تنبه عند مجيئه إلى أهمية موقع الخرطوم وهوائها الطلق ، فحاول أن يعمر القرية بدعوة أهالي المناطق المتاخمة لها وبعض عائلات سنار إلى الإقامة بها . فأكسبها هذا بعض الأهمية وصارت تحتوي على حوالي خمسمائة منزلاً جديداً . وفي 1828 بدأ تشييد مبان للمصالح الحكومية ، ويعتقد أنها قد أعلنت عاصمة للبلاد في عام 1830 .

واصل خورشيد باشا تشجيعه للأهالي بالإنتقال للخرطوم عن طريق إمدادهم بالأراضي وبمواد البناء من طوب وأخشاب كي يستعملوها بدلاً عن الجلود والقش ، وهي المواد التي كان يستخدمها السواد الأعظم في تشييد المنازل بإستثناء مساكن أحفاد أرباب العقائد ، وفكي حمدنا الله ، وقبيلة البادناب ، فقد كانت هي الوحيدة في القرية التي بنيت بالطوب ، فأوكل للشيخ عبدالسلام ، زعيم المغاربة المقيمين في حلة كوكو ، بترحيله إلى الخرطوم ، ولكن سرعان ما أدى ازدياد الطلب عليه إلى قيام كمائن في كل من بري والجريف.

وقد صاحب إعلان الخرطوم عاصمة للبلاد توسع في المباني الحكومية ، فبنى خورشيد معسكراً للجهادية ، وجامعاً حكومياً إلا أنه هدم في عام 1834 ليقوم مكانه آخر أكثر سعة منه . وقد شهدت تلك الفترة نشاطاً ملحوظاً من قبل الأهالي لتعمير قريتهم وتجميلها .

---

(42) Stevenson "Old Khartoum 1821-1885" SNR 47 (1966) p. 8.

(43)

ويبدو أن زيارة محمد علي باشا المرتقبة في عام 1838 قد زادت من حماس المسؤولين والأهالي لتبدو القرية في أبهى حللها . فامتدت من موقع حديقة الحيوان الحالي إلى مباني جامعة الخرطوم .

وكانت أحياؤها الهامة هي حي الحكمدارية الذي يقع شرقي المدينة حيث يقوم قصر الحكمدار الذي شيده ممتاز باشا (1871-1872) كمقر رسمي للحكمدار ، وعلى مقربة منه تقع السرايا وهي مقر الحكمدار الخاص ، وكان أو من شيده هو محو بك ، إلا أن عبداللطيف بك (1850-1852) أعاد بناءه ، وجدده ممتاز باشا فيما بعد ، ثم أكمل في زمن إسماعيل باشا أيوب (1873-1876).

وإلى الجنوب من قصر الحكمدارية قامت مباني المديرية . وهي تشمل البريد والبرق والمالية التي نقلها غوردون أثناء الحصار إلى القصر . وكانت هناك أيضاً مطبعة ملحق بها مصنع للورق ، وقد بدأ ممتاز باشا في تشييد مستشفى أكمله إسماعيل باشا أيوب فيما بعد . وكانت شونة العيش تقع إلى شرقي السرايا ، وأقيم غربها مرسى للسفن وورشة لتصليحها .

أما حي المسجد فكان موقعه إلى الغرب من حي الحكمدارية وهي منطقة سكنية للأعيان وكبار التجار ، وعلى مقربة من هذا قامت حلة موسى بك التي جاء إسمها من إسم الحكمدار موسى بك حمدي (1862-1865) بإعتبار أنه شيد أول منازلها ، أما أحياء سلامة الباشا ، النوبة ، هبوب ضرباني فقد استوطنها فقراء الأهالي .

وصحب تطور الخرطوم المعماري تطور إقتصادي هام ، فأنتعشت حركة التجارة الداخلية والخارجية واتخذ عدد من التجار من المدينة موطناً لهم . ففي حين كانت منطقة السوق تشمل حولي العشرين مبنى في أوائل سني الإحتلال نجدها قد توسعت فيما بعد لتشمل منطقة للأجانب وأخرى للوطنيين إمتدت كل منها في مساحة أربعة شوارع .

ويبدو أن أهمية الخرطوم كمركز تجاري ، قد ساعدت في إبراز إسم المدينة في الأوساط الدولية ، فصار يغشاها كثير من الأوربيين والشرقيين ولعل أول من دخل الخرطوم من الأوربيين هما الضابطان ، كايسو (Caisson) وكادو (Cadeau) اللذان كانا في إحدى فرق جيش إسماعيل باشا (44)، ويعتقد أن أعداداً إخرى قد دخلت البلاد

(44) Hilli, Egypt in the Sudan, P. 78.

بعد الفتح ، حتى أنه في عام 1829 كان هناك قنصل فرنسي مقيم في الخرطوم ، وقد مثل بريطانيا قنصل سوري الأصل يدعى خليل الشامي (45). وفي عام 1848 وصلت بعثة الإرسالية النمسوية . وفي 1850 تم تعيين البارون ميلر (Baron Miller) قنصلاً للنمسا ، وعينت بريطانيا جون باتريك (John Patherick) مساعداً للقنصل . إلا أن القنصلية قد أغلقت في 1864 عندما تواترت أنباء عن إشتغال القنصل بتجارة الرقيق .

عينت بريطانيا بعد ذلك روست (Rosset) قنصلاً لها ، وخلفه فرانك باور الذي كان مراسلاً لصحيفة التايمز في ذات الوقت .

ولقد بقي في الخرطوم وشهد النصف الأول من الحصار ، وفي سبتمبر 1884 إغتاله المناصير وهو في طريق عودته إلى القاهرة . وقد توافد بعد ذلك ممثلو كثير من الأقطار إلى الخرطوم ، وكان بينهم ممثلون عن إيطاليا واليونان ، وإيران ، وأمريكا .

وتزايد عدد سكان المدينة طوال فترة الحكم المصري التركي ، فقد كانت بوصفها عاصمة البلاد ومركزاً هاماً للتجارة تضم عدداً كبيراً من الأجانب من الموظفين والتجار.

ولقد نشأت طبقة مهنية تشمل أطباء ، وقضاة ، ومعلمين ، جاءت طلائعهم مع الفتح . كذلك جاء فلاحون من مصر لإرشاد المزارعين السودانيين إلى وسائل الزراعة الحديثة . وتسلل مع هؤلاء آخرون لزراعة المخدرات ودباغة الجلود ، ثم تبعهم الحدادون والبناؤون والنجارون، ثم جاء الفنيون لتشغيل ورشة تصليح السفن . وهكذا ظلت وفود المهاجرين تتقاطر طوال فترة الحكم التركي المصري طلباً للرزق في دواوين الحكومة ككتبة ومحاسبين ، أو في الأعمال الحرة . كذلك هاجرت إلى السودان فئة كانت تجد فيه ملاذاً للتهرب من الضرائب الباهظة التي تجبى في شمال الوادي بنسبة أعلى منها في جنوبه .

وقدر عدد سكان الخرطوم بـ 15ر000 نسمة تقريباً في 1830 . ثم قفز هذا العدد إلى 20ر000 في 1840 ، وإلى 30ر000 – 40ر000 في عام 1850 وفي 1875 قدره أحد الزوار بـ 100ر000 ، إلا أن آخر قدره في عام 1883 بـ 50ر000 ويبدو أن هذا الإنخفاض يعود إلى إندلاع الثورة المهدية حيث هجرت المدينة أعداد كبيرة من الأجانب والوطنيين .

لقد خلق الفتح التركي المصري الخرطوم وطورها من قرية صغيرة لصائدي الأسماك إلى عاصمة للبلاد تتمتع ببعض مقومات الحضارة بمقاييس تلك الأزمان . وقد ظلت الجهود تبذل على مدى ستين عاماً لتصبح الخرطوم مقراً مريحاً للحكام والتجار

---

(45) سليمان كشة تأسيس مدينة الخرطوم ص 34 .

وممثلي الدول الأجنبية ، ورغم هذا فقد تضاربت الآراء حول نجاح تلك المساعي ، فوصفها أحد الزوار أنها تتمتع بموقع ممتاز وطبيعة ساحرة حيث ترقد في ملتقى النيلين الأبيض والأزرق وتبدو كمدينة متحضرة ، وعلق آخر بأن الخرطوم تكشف عن ذوق معماري سيء لضيق شوارعها ولعدم تناسق مبانيها ووجود المقابر في وسط المناطق السكنية .

المهدي من أبا إلى الخرطوم

في عام 1881 تقاطرت الأنباء لرؤوف باشا ، حكمدار عموم السودان ، بأن شيخاً يدعى محمد أحمد قد أعلن أنه المهدي المنتظر في جزيرة أبا [46]. ومن توه سارع رؤوف باشا لتأمين مساندة علماء المدينة له قبل أن يعلن أنه لن يتهاون في قمع مثيري مثل هذه الإدعاءات[47].

ومن ثم بعث بأحد معاونية ، محمد أبو السعود ، ليعود بالمهدي إلى الخرطوم بالتي هي أحسن .

ويعتقد أن الشيخ محمد شريف قد سبق أن لفت نظر الحكمدار إلى خطورة النشاط الذي يمارسه المهدي ، إلا أن هذا لم يعره التفاتاً وأرجع إشارة محمد شريف إلى التطاحن التقليدي الذي كان قائماً بين الرجلين .

ولكن مهمة أبي السعود السلمية باءت بالفشل فأرسل رؤوف باشا قوة عسكرية لتجبر المهدي على الإنصياع له عنوة . إلا أن المهدي تمكن من إنزال هزيمة ساحقة بهذه القوة في أغسطس 1881 .

---

(46) محمد أحمد بن السيد عبدالله ، ولد في حوالي 1840 في جزيرة لبب قرب دنقلا . هاجرت عائلته إلى الخرطوم وراء البحث عن ميدان أغنى وأكثر ربحاً لصناعة المراكب ولنفس السبب واصلت العائلة هجرتها جنوباً حتى استقرت في جزيرة أبا حيث توجد كميات وفيرة من خشب الغابات . تلقى محمد أحمد تعليم القرآن في خلوة أحد رجال الدين وأبدى ميلاً شديداً للاستزادة من العلم فالتحق بخلوة الشيخ الأمين الصويلح . ثم ارتحل إلى قرية الغبش حيث تقوم خلوة الشيخ محمد الضكير بالقرب من بربر . ثم ما لبث أن تركه إلى الشيخ محمد شريف نور الدائم واستقر به المقام أخيراً مع الشيخ القرشي . يبدو أن المهدي قد بدأ اتصالاته مع شيوخ الإسلام ورجال الدين بعد وفاة الشيخ القرشي فكان يحدثهم عن تدهور التقاليد الإسلامية وأصول الدين ، ثم قام برحلة إلى كردفان وعند عودته منها أعلن أنه المهدي المنتظر .

نعوم شقير ص 637-44 .

Holt, The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, p. 47.

Shibeika, British Policy in the Sudan, pp. 12-20.

(47) Hill, Egypt in the Sudan, p. 164.

وقد لاقت حملة حاكم فاشودة ، راشد أيمن ، في ديسمبر 1881 نفس مصير قوة الجزيرة أبا .

وكان أن أعقبت هزيمة الحكومة في معركتين متتاليتين تصاعد كبير في شهرة المهدي. ولم يجد رؤوف باشا بداً حينئذ من الإتصال بالقاهرة طلباً للعون ، كانت القوات المصرية في السودان تفتقر إلى المقدرة الحقيقية للتصدي لهذه الثورة التي ظهرت بوادرها ، إذ أن غالبية أفراد القوات كانوا من الباشبوزق غير النظاميين ، وغير المؤهلين عسكرياً . ولم تكن ثمة استعدادات لخوض حرب مهما كان نطاقها . فشرعت السلطات في تشييد التحصينات في المدن الرئيسية على عجل ، فجاءت تحمل كثير من الأخطاء الفنية أفقدتها فوائدها الدفاعية[48].

جند المهدي ، من ناحية أخرى 8000 مقاتل تقريباً ، وأعانته هزيمته لراشد أيمن بكمية من المال والسلاح والذخيرة . ثم دعم موقفه دعماً أكثر بانتصاره على يوسف الشلالي في مايو 1882 فوجه بهذا ضربة قاصمة للحكم التركي ، وارتفعت سمعته إلى آفاق أبعد ، فقفز عدد مؤيديه إلى ما يقارب 20 ألفاً ، وبدأ بعضهم يشعل نار الثورة في مناطقهم .

أيقنت الحكومة في القاهرة عندئذ أن ما يجري في السودان هو أمر خطير ، ورغم هذا إقتصرت استجابتها على إرسال فرقة من الزنوج تحت قيادة إبراهيم بك فوزي ، وكما يحدث عادة في مثل هذه الظروف من تعليلات وتبريرات فقد أرجعوا الهزيمة إلى ضعف في الجهاز الإداري وليس لسوء الأداء العسكري ، ومن ثم تم استدعاء رؤوف باشا وعين مكانه عبدالقادر باشا حلمي في مطلع 1882 .

إصدر عبدالقادر باشا حال وصوله تعليماته لتعزيز التحصينات في كل من الخرطوم، وسنار ، وبارا ، والدويم ، والكوه ، وفاشودة . وقد بدأ واضحاً أن القوات الموجودة في البلاد كانت عاجزة عن إحراز أي نصر ، فكرر عبدالقادر باشا مطالبته للقاهرة لتساعده بإرسال كتائب إضافية فلم يجد إستجابة إذ كانت الحكومة هناك تسعى آنئذ لإيجاد مخرج لمشاكلها الداخلية .

قرر المهدي بعد أن هزم قوات الحكومة في ثلاث معارك التقدم نحو قلب كردفان. سقطت بارا والأبيض في يناير 1883 وتبعتهما المراكز الصغيرة المتناثرة في المديرية،

(48) نعوم شقير ، 635-6 .

فخضعت لـه بأسرهـا . ولم يكـن نشـاط الأنصـار مقتـصراً عـلى كردفـان وحدهـا. فقـد لوحـظ إنتشـار موجـات التمـرد عـلى السـلطة التركيـة في كل مـن بحـر الغـزال والإسـتوائية منـذ 1882 . وتأكـد نشـاط أتبـاع المهـدي في جهـات متفرقـة مـن الجزيـرة . وكانـت سـنار في حالـة حصـار منـذ بدايـة 1883 وكسـلا والقضـارف في نوفمـبر مـن ذات العـام .

وفي أكتوبـر 1883 سـقطت سـواكن وإنقطـع الإتصـال بـين الموانـئ وقـرى جبـال البحـر الأحمـر ، ووقـع طريـق سـواكن – بربـر في قبضـة الأنصـار .

واصـل حـكام الخرطـوم ضغطهـم عـلى القاهـرة لتمدهـم بالجنـود والعتـاد لوقـف تيـار الثـورة . ولم تكـن حكومـة الخديـوي في موقـف يسـمح لهـا بذلـك . فقـد كان الجيـش الجديـد تحـت التكويـن ولم تكـن بريطانيـا لتسـمح بإيفـاد أي وحـدات منـه إلى السـودان . فأضطـرت الحكومـة إلى إرسـال فلـول جيـش عـرابي المـسرح . ولم يكـن لهـؤلاء رغبـة في القتال ، فقاومـوا إعـادة تجنيدهـم ورحلـوا إلى السـودان عنـوة . وكان أن منـي هـذا الجيـش الـذي قـاده أحـد الضبـاط البريطانيـين المتقاعديـن – هكـس باشـا – بهزيمـة سـاحقة في الخامـس مـن نوفمـبر 1883 قضـت عـلى جميـع أفـراده تقريبـاً ، وكان أن أدت هـذه الهزيمـة إلى إنهيـار الحكـم الـتركي المـصري في كل مـن دارفـور وبحـر الغـزال مبـاشرة .

وقـد تضاعفـت ثقـة المهـدي في نفسـه ومقاتليـه بعـد أن إنهـزم أمامـه ذلـك الجيـش الـذي قـاده ضابـط بريطـاني بمسـاعدة مجموعـة مـن الضبـاط الأوربيـين والأتـراك . كان واضـح أنـه يملـك المقـدرة ليسـيطر عـلى البـلاد بكاملهـا ، إذ أن هـذا لا يعنـي أكـثر مـن التصـدي لحاميـات صغـيرة تضـم في مجموعهـا الباشـبوزق وبعـض الجهاديـة . فأنتـشرت موجـة مـن الذعـر في الأوسـاط الرسـمية ، وأيقنـوا أن الخرطـوم بـلا شـك سـتكون هـدف المهـدي في القريـب ، فاتخـذت جملـة ترتيبـات لتقويـة وسـائل الدفـاع عـن المدينـة .

كانـت خطـة المهـدي هـي محـاصرة الخرطـوم حتـى التسـليم . فبـدأت أول مراحـل الحصـار في مطلـع 1884 بنشـوب ثـورة الأهـالي الذيـن اسـتنفرهم المهـدي في ضواحـي الخرطـوم . وبوصـول محمـد عثـمان أبـو قرجـة عـلى رأس مقاتليـه في يونيـو بـدأت المرحلـة الثانيـة مـن الحصار[49] ثـم أوفـد المهـدي بعـد ذلـك عبدالرحمـن النجومـي فبـاشرت قواتـه

---

(49) محمـد عثـمان أبوقرجـة ، مـن أبنـاء دنقلـة يعتقـد أنـه كان يسـكن في الخرطـوم ويعمـل ((نوتيـاً)) في مركـب تخـص حمـد العقـد ، انضـم إلى الأنصـار واشـترك في معـارك شـيكان وجبـال النوبـة . أوفـده المهـدي ليتـم تسـليم صالـح المـك في

فـور وصولهـا حصـار الخرطـوم ومارسـت مزيـداً مـن الضغـط عليهـا ، فدخـل الحصـار بهـذا مرحلتـه الثالثـة (50)وفي أكتوبـر 1884 حـل ركاب المهـدي تصحبـه جمـوع مؤيديـه فتمكنـوا مـن السـيطرة عـلى المناطـق المحيطـة بالعاصمـة وبقـوا في مواقعهـم تلـك حتـى تـم لـه الإسـتيلاء عـلى الخرطـوم .

فـداسي عـلى يديـه ثـم سـار إلى الخرطـوم ووضـع حصارهـا ولعـب دوراً رئيسـياً في أحـداث تلـك الفـترة . عمـل في شرق السـودان في زمـن الخليفـة عبداللـه ولكنـه اسـتدعي إلى أم درمـان بسـبب الخلافـات التـي نشـبت بينـه وعثـمان دقنـة . اتهـم بالاتصـال بالإيطاليـين وأبعـد إلى الرجـاف . أطلـق البلجيـك سراحـه فسـار إلى دارفـور ثـم عـاد إلى أم درمـان وبقـي فيهـا حتـى وفاتـه عـام 1916 .

Hill, A-Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, p. 279.

(50) عبدالرحمـن النجومـي ، مـن زعـماء الجعليـين ، انضـم إلى المهـدي في 1881 ، شـارك في معـارك كردفـان وبعـد شـيكان قـاد الحملـة التـي جردهـا المهـدي ضـد جـبر الدايـر . لعـب دوراً بـارزاً في حصـار الخرطـوم وبعـد سـقوطها تعقـب حملـة الإنقـاذ إلى أن وصـل بربـر ولكنـه اسـتدعي ثـم عـاد إلى الشـمال مـرة أخـرى ليقـود جيشـه الـذي انهـزم في جنيـس . قـاد الحملـة التـي كان مقـرراً لهـا أن تغـزو مـصر فتصـدت لهـا قـوات جرنفيـل وقتـل النجومـي في معركـة توشـكى في أغسـطس 1889 .

Hill, A. Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, p. 17.

الفصل الثاني

مهمة غوردون
وخطته الأساسية

الفصل الثاني
مهمة غوردون وخطته الأساسية

جاء الإحتلال البريطاني لمصر في سبتمبر 1882 ليخلق لها أزمة في كيفية التصدي للمشكلة التي نشبت في السودان ، إذ لم يعد الخديوي وحكومته هما السلطة صاحبة الحل والعقد ، بل أصبح لزاماً عليه أن يستشير جهات أخرى قبل إتخاذ خطوة ما .

ولقد إتسعت رقعة السلطة لتشمل مكتب المندوب البريطاني ، أفلن بيرنج ، وحكومة صاحبة الجلالة نفسها . وبتعدد مراكز السلطة تعددت المقترحات حول الوسيلة المثلى لحل أزمة السودان . كانت كل جهة تحاول ربط الحل بظروفها ومصالحها الخاصة . فكان لابد من الدراسة الجادة المتأنية للموقف بكل متطلباته حتى يمكن الإتفاق حول سياسة موحدة واضحة المعالم . بيد أن شيئاً من هذا لم يتم فتباينت وجهات النظر واختلفت الآراء بالصورة التي سيتم عرضها في هذا الفصل .

ثبت لمراكز السلطة أن نفوذ المهدي آخذ في الإزدياد ، ولم يكن هناك بد من سحب الرعايا من جند ومدنيين من البلاد . في نهاية عام 1883 بدأت المشاورات تدور حول الكيفية التي سيتم بها الإنسحاب ، ورغم أن الإتفاق قد تم آخر الأمر على إختيار غوردون للعمل بالسودان ، إلا أن الصعاب التي إعترضته فيما بعد كان مردها بدرجة كبيرة إلى الأسلوب الذي عولجت به المشكلة من أساسها ، فهو أسلوب تميز بالإرتجال ، وافتقر للدراسة والموضوعية .

طبيعة مهمة غوردون :

ولعل أولى القضايا التي عولجت بهذا الأسلوب هي المهمة التي بعث غوردون للسودان من أجلها . فمن جهة تعتقد أنها استشارية بحته ، إلى طرف آخر يعتقد من البداية أنها تنفيذية من الدرجة الأولى ، إلى جهة ثالثة درجت على تغيير موقفها بين هذا وذاك .

ويبدو أن هذا التضارب في الآراء يعود إلى الظروف والملابسات التي صاحبت إختيار غوردون لتلك المهمة .

في مطلع نوفمبر 1883 قدم وزير الخارجية البريطاني ، جرانفيل [51]إقتراحاً إلى رئيس الوزراء جلاد ستون [52]، يرمي إلى إيفاد غوردون إلى ((مصر)) دون أدنى تحديد للدور الذي سيطلع به ، وجاء هذا الإقتراح في وقت لم تكن فيه بريطانيا قد قررت شيئاً فيما يختص بالسودان بعد . هل ستضع خطة لإخلائه فقط أم الإستغناء عنه كلية ، أم سترسل قوات أجنبية لإحتلاله؟ .

ولقد كان واضحاً لدى الرأي العام البريطاني أن العواقب المترتبة على سياسة التردد هذه جد وخيمة ، ومن ثم وجهت حملات نقد عنيفة للحكومة من الدوائر الشعبية والبريطانية تطالبها بإتخاذ موقف حاسم وعاجل ، ويبدو أن جرانفيل تقدم بإقتراحه لإرسال غوردون ليحاول التخفيف من حدة الهجوم ، فهي ليست خطوة إيجابية فحسب بل أن الجنرال كان يتمتع بسمعة طيبة في كل من مصر وبريطانيا ، تعيينه بلا شك سينظر إليه بعين الرضا والاستحسان في البلدين ، وبعد أن تأكد جرانفيل من موافقة جلادستون أبرق بيرنج يسأله إذا كان بالإمكان الاستفادة من غوردون و كيفية هذه الإستفادة ، ويمكن أن يستشف من هذا أن المهمة التي ستوكل لغوردون لم تتحدد لدى جرانفيل بعد .

سارع بيرنج ورفض هذا العرض ، إلا أنه لم تمض ثلاثة أسابيع حتى بعث برسالة يطلب فيها الموافقة على تعيين أحد الضباط البريطانيين للعمل في السودان ، وتجنب الإشارة إلى إمكانية شغل غوردون لهذا المنصب . وتجدر الملاحظة هنا أنه حتى هذه اللحظة لم تكن خطتهم نحو السودان قد إتخذت شكلاً نهائياً واضحاً .

---

(51) جرانفيل جورج ، ليفسن – جاور (1815-1891) من زعماء حزب الأحرار ، شارك هارتنقتون في قيادته عند تقاعد جلاد ستون وانسحابه من الحياة العامة في 1874 ولكن عند إنهزام حكومة المحافظين في 1880 نودي بجلادستون ليشكل حكومة من الأحرار فشغل جرانفيل فيها منصب وزير الخارجية . حمل جرانفيل مع زملائه مسئولية مقتل غوردون في الخرطوم وضياع الحاميات ، ورغم أن الحكومة قد استقالت في 1885 لفشلها في كسب التأييد اللازم لأمر يتعلق بالميزانية ، إلا أن السبب الحقيقي كان في سياستهم نحو السودان . وفي وزارة جلاستون الثالثة عين جرانفيل وزيراً للمستعمرات ، وبعد خروج الوزارة من السلطة بقي زعيماً لحزبه في مجلس اللوردات حتى وفاته

.D. N. B., p.3326

(52) جلادستون ، وليم – أوارت (1809-1898) زعيم حزب الأحرار ، جاء للحكم عام 1880 بعد هزيمة المحافظين بقيادة دزرائيلي . وفي فترة حكمه تم التصدي العسكري لثورة عرابي في مصر في سبتمبر 1882 . كرس جهد وزارته للإصلاح البرلماني الذي كان على حساب الاهتمام بمشكلة السودان ففشلوا في اتخاذ الخطوات المطلوبة في الوقت المناسب لإنقاذ غوردون . انهزمت حكومته بعد عدة أشهر من سقوط الخرطوم ولكنه عاد مرة أخرى في 1886 ليبقى لفترة قصيرة .*D. N. K.,* p. 1001-2

وفي مطلع يناير 1884 إستقر راي بيرنج والحكومة المصرية على إخلاء السودان . فبعث لوزارة الخارجية البريطانية بنص برقية كان دي كتلوجن (De Goetlogen) قد بعث بها للخديوي من الخرطوم وفيها يحثه على ضرورة الإسراع بإصدار تعليمات الإنسحاب مباشرة ، إذ أن البلاد بأكملها قد أعلنت الحرب على الحكومة المصرية التي لا تملك الإمكانات المادية لمواجهتها . ومن ثم أرفق بيرنج مع هذه البرقية مذكرة جاء فيها ((إن التعليمات الأولية قد صدرت للاستعداد للإنسحاب ، سيصل وزير الحربية الجديد غداً حيث يكون بالإمكان إصدار تعليمات مفصلة للإخلاء)) لم يشر بيرنج هنا إلى أمر الضابط البريطاني الذي سبق أن طلبه ، وربما لأنه كان يأمل أن يوكل بالمهمة التي حددها للضابط لعبدالقادر باشا حلمي وزير الحربية المصري الذي جاء ذكره في المكاتبة .

أعقب هذا إقتراح من جرانفيل يعرض فيه إسمي غوردون وتشارلز ولسن مستفسراً عما إذا كان هناك سبيل لإستخدام أي منهما ، ويبدو أن بيرنج قد فهم من هذا أن وزير الخارجية يسعى لإيفاد أحدهما لقيادة عملية الإنسحاب . وبما أنه كان يفكر في إسناد المهمة لعبدالقادر باشا فقد جاء رده للمرة الثانية بالنفي . بعد ثلاثة أيام بعث إليه برسالة جاء فيها ((سيسافر عبدالقادر باشا إلى الخرطوم ، لقد صدرت التعليمات لإخلاء النساء والأطفال ... الخ .. وسحب حامية سنار إلى الخرطوم . في نفس اليوم إستشار جرانفيل رئيس الوزراء في أمر تعيين غوردون لمهمة هي نفسها قيادة الحاميات المنسحبة ، إذ أنه كتب يقول ((علينا أن نستشير غوردون إذا كان بإمكانه أن يستغل نفوذه الشخصي وسط القبائل لتأمين إنسحاب الجند والأهالي من الخرطوم إلى سواكن)) .

تجاهل جرانفيل رفض بيرنج عندما طلب منه إستخدام غوردون مرتين على التوالي ، وعزا هذا إلى مشاجرة قديمة بين الرجلين .

وفي 15 يناير أبرق جلادستون وزير الخارجية معبراً عن تأييده المطلق لكل مقترحاته، إذن فقد كان جرانفيل يأمل في إرسال غوردون في مهمة تنفيذية . ولكنه عندما أرسل إخطاراً لبيرنج بهذا حدد له مهمة غوردون بصورة مغايرة تماماً لتلك التي أوضحها لرئيس الوزراء . فقد ذكر لبيرنج أن إيفاد غوردون قد يساعدهم في جمع معلومات عن الموقف الراهن في السودان . هناك عاملان يحتمل أن يكونا السبب وراء هذا التغيير المفاجئ أولهما ، من الجائز أن يكون جرانفيل قد تسلم رسالة

بيرنـج التـي أعلـن فيهـا تعيـين عبدالقـادر باشـا بعـد أن بعـث بمذكرتـه لجلادسـتون ، ومـن ثـم قـرر إيفـاد غـوردون في مهمـة تكميليـة لمهمـة عبدالقـادر باشـا . أمـا العامـل الثـاني ، فهـو المقابلـة التـي تمـت بـين غـوردون وولـزلي والتـي أوضـح فيهـا غـوردون أنـه لـن يسـتطيع أن يتقـدم بأيـة توصيـات دون الإلمـام بأطـراف القضيـة في موقعهـا . فهـو إذن يرفـض أن يقـوم بمهمـة تنفيذيـة ويعـرض خدماتـه لدراسـة الوضـع فقـط ، وهـذا بالضبـط هـو المفهـوم الـذي حـدده جرانفيـل في رسـالته لبيرنـج . وهـذا يعنـي ، مـن ناحيـة أخـرى ، أن التوصيـات التـي يمكـن أن يرفعهـا غـوردون قـد تتعـارض تمامـاً مـع سياسـة الإخـلاء التـي سـبق أن أقرتهـا الحكومـة ، والتـي اعتـبرت غـير قابلـة للنقـض . ومـن هنـا إتجـه تفكـير جرانفيـل ليكسـب القضيتـين ، أن يرسـل غـوردون للسـودان لا ليتقـدم بمقترحـات حـول كيفيـة حـل المشـكلة ، بـل ليقـترح لهـم حـلاً داخـل الإطـار العـام لسياسـتهم ، وهـو الإنسـحاب ، فجـاءت التعليميـات لغـوردون ليقـرر لهـم أفضـل السـبل التـي يمكـن إتباعهـا لتأمـين إنسـحاب الحاميـات المصريـة في سـلام .

كان بيرنـج بوصفـه الرجـل الأول الـذي يقـع عليـه عـبء مجابهـة المشـكلة أكـثر إحساسـاً بخطـورة الوضـع ، وأكـثر درايـة بمتطلبـات الموقـف مـن حكومتـه ، فـكان رأيـه أنهـم ليسـو في حاجـة لأي معلومـات عـن كيفيـة تنفيـذ عمليـة الإخـلاء ، بـل هـم في حاجـة إلى مـن يقـود العمليـة مبـاشرة ، فالأمـور تتطـور بسرعـة مذهلـة ، ومـن الـضروري الـشروع في التنفيـذ وإلا ضاعـت فرصـة رعايـا الحكومـة المصريـة في النجـاة .

رفـض عبدالقـادر باشـا حلمـي المنصـب الـذي عـرض عليـه ، وعندئـذ بعـث بيرنـج برسـالة إلى جرانفيـل موجهـة مـن الحكومـة المصريـة مفادهـا أن هـذه الأخـيرة أي الحكومـة ((ستشـعر بالإمتنـان إذا أعارتهـا بريطانيـا أحـد الضبـاط المؤهلـين ليقـوم بالمهمـة التـي رفضهـا وزيـر الحربيـة . وسـيعطى سـلطات مطلقـة عسـكرية ومدنيـة لتنفيـذ عمليـة الإنسـحاب)) . وفي ذات اليـوم تسـلم بيرنـج برقيـة مـن جرانفيـل مقترحـاً تعيـين غـوردون للمـرة الثالثـة . فـما كان منـه إلا أن أجـاب بـأن غـوردون هـو الرجـل المناسـب تمامـاً ليـس للمهمـة التـي حددهـا جرانفيـل في رسـالته السـابقة ، وإنمـا كبديـل لوزيـر الحربيـة ، ولا بـد أن الحكومـة البريطانيـة كانـت عـلى علـم بـأن مهمـة وزيـر الحربيـة هـي مهمـة تنفيذيـة ولا مجـال هنـاك لرفـع توصيـات أو تقديـم معلومـات .

إن صياغـة تعليـمات غـوردون بعـد يومـين مـن إسـتلام رسـالة بيرنـج وتحديدهـا لمهمتـه

بأنها تقريرية فقط ، تكشف أنهم قد تجاهلوا تلك الرسالة تماماً . وقد أرفق جرانفيل مع تعليمات غوردون مذكرة إلى بيرنج يقول فيها إنهم قد أرسلوا غوردون ليمدهم بمعلومات . ويبدو أن الحكومة البريطانية أرادت التحفظ في هذا الأمر ، إذ أنه في حالة إيفاده في مهمة تنفيذية سيكون لزاماً عليهم مساندته بكافة الوسائل حتى يتم تنفيذ تلك العملية .

أما المهمة التي وافقوا عليها كتابة في تعليماتهم فهي تلزمهم فقط بضمان سلامته شخصياً ، ولعل هذا يفسر لنا وجود الفقرة التي تنص على أن ينفذ غوردون أي مهام توكل إليه من قبل الحكومة المصرية ، ولم يكن سراً أن الحكومة المصرية ستعهد إليه بقيادة عملية الإنسحاب .

وقد وافقت الحكومة البريطانية ضمنياً على هذا ، ولذا يصبح من الصعب وجود تفسير للآراء التي ضمنت في التعليمات ، فهم يبعثون بغوردون ليمدهم بمعلومات عن أفضل السبل لتنفيذ الإخلاء مع علمهم في ذات الوقت بأنه سيقوم بهذه المهمة فور وصوله . ولعل الحكومة البريطانية أرادت أن تعفي نفسها من المسئولية ، فأوكلت للحكومة المصرية أمر تفويض غوردون لينفذ تلك المهمة وتتحمل هي بالتالي التبعات المترتبة على هذا دون أن تزج بالحكومة البريطانية في المسألة .

وضع بيرنج تعليمات جرانفيل جانباً ، وأخطره في رده عليه أن الأوامر قد صدرت للجهات المعنية لتعمل على ترحيل المدنيين إلى بربر ، وأوضح أن واجب غوردون سيكون أساساً تنظيم عملية الإنسحاب ، إذن فقد كان بيرنج يرى في مهمة غوردون من البداية إلى النهاية عملية تنفيذية ، بحتة وقد جاءت آراؤه المضمنة في رسائله منذ التاسع من يناير 1884 تتوافق تماماً مع هذا الفهم . أما جرانفيل فقد إقترح في بادئ الأمر مهمة غامضة غير واضحة المعالم ، ثم عاد فعدلها لمهمة تنفيذية وإنتهى بمهمة تقريرية . أما غوردون فرغم إعلانه بأنه لن يستطيع أن يتقدم بتوصيات دون مراجعة الموقف على الطبيعة سرعان ما إتخذ موقفاً مغايراً . فبعد أربعة أيام من مغادرته لبريطانيا كتب مذكرة مطولة مفادها أن مهمته هي تأمين إخلاء المدنيين والجند من تلك البلاد بسلام ، وقد كان من جراء هذا أن لم تناقش المهمة بوصفها هذا على أي مستوى في بريطانيا قبل مغادرة غوردون ، إذ كان هو والحكومة البريطانية يعتقدان أنه مبعوث ليرفع لهم تقريراً فقط .

إخلاء السودان :

لعـل تضـارب الآراء حـول المهمـة نفسـها ، هـو النتيجـة المنطقيـة للأسـلوب الـذي عولجـت بـه طبيعـة مهمـة غـوردون . فبعـد وصولـه إلى القاهـرة تـم الإتفـاق بصـورة عامـة ، بـين الأطـراف المعنيـة عـلى إيفـاده ليخـلي السـودان دون التعـرض للتفاصيـل هنـا ، أي هـل سـيخلي كل الحاميـات التـي مـا زالـت صامـدة في وجـه قـوات المهـدي ، أو أنـه سـيجلي حاميـات بعينهـا ، ومـا هـي هـذه الأخـيرة ؟ وهـل ستشـمل العمليـة كل المدنيـين ، أو فئـات منهـم ، أو أولئـك المقيمـين في مـدن معينـة ؟ كانـت كل جهـة تحمـل أفـكاراً خاصـة بهـا حـول هـذه المسـائل ، الأمـر الـذي أدى بصـورة مبـاشرة إلى بقـاء غـوردون داخـل اسـتحكامات الخرطـوم عامـاً كامـلاً محـاولاً أن يصـل مـع الأطـراف المعنيـة إلى إتفـاق ، في حـين إسـتفاد المهـدي مـن عامـل الزمـن وحشـد طاقاتـه حـول المدينـة .

تضاربـت الآراء منـذ البدايـة حـول موضـوع الإخـلاء ، ففـي الفـترة التـي كان جرانفيـل يدعـو فيهـا إلى إيفـاد غـوردون لقيـادة عمليـة الإنسـحاب ، كان مـن رأيـه أن تشـمل العمليـة كل الحاميـات الموجـودة داخـل السـودان بإسـتثناء موانـئ البحـر الأحمـر . وقـد قـدر عـدد جنـد الحاميـات في ذلـك الحـين بحـوالي 15 ألفـاً ، كان توزيعهـم في أوآخـر 1883 كالآتي :

دنقلا	897
بربر	616
الخرطوم	2490
كسلا	1259
سنار	3891
قلابات	593
الدويم	1087
الكوة	500
فشودة	2131
بحر الغزال	886

ويبـدو أن الحكومـة البريطانيـة قـد باتـت تعتقـد بعـد إرسـال غـوردون أن مهمتـه هـي سـحب جميـع الحاميـات ، إذ صرح رئيـس وزرائهـا في مجلـس العمـوم بـأن غـوردون سـيعمل عـلى إخـلاء حـوالي 29٫000 شـخص . ولعلـه يشـير هنـا إلى الخمسـة عـشر ألـف جنـدي

بالإضافة إلى عدد مماثل من المدنيين . كما أعلن أحد أعضاء تلك الحكومة ، نورث بروك ، في وقت سابق أن عملية الإنسحاب ستشمل كل الحاميات الموجودة داخل القطر .

أما بيرنج فقد أبدى تناقضاً ملحوظاً في آرائه فيما يتعلق بأي الحاميات يجب سحبها . ففي الثاني والعشرين من نوفمبر 1883 بعث برسالة إلى جرانفيل يقترح فيها أن تشمل عملية الإنسحاب حامية الخرطوم والمراكز المجاورة بالإضافة إلى التجار الأوربيين والقساوسة الكاثوليك الموجودين في العاصمة . ومن الصعب تحديد أي المراكز يعنى بالمجاورة ، ويبدو أنه يشير حاميات الجزيرة الصغيرة المنتشرة جنوباً إلى جهات الدويم والكوة . ومن المستبعد أن تكون حامية سنار داخل هذا التعريف . إذ أنه قدر العدد الكلي بحوالي 6000 نسمة ، ولكنه عاد وغير رأيه بعد حوالي شهر من هذا ، إذ بات يعتقد أن الضابط البريطاني الذي سيوفد إلى السودان سيعطى صلاحيات كاملة ليقوم بإخلاء جميع الحاميات . ويعترف بيرنج بأن هذه العملية ستكون شاقة معقدة ، وإن سحب حاميتي سنار والخرطوم وحدهما سيجلب مشاكل لا حصر لها .

ولعله لهذا يقترح ترك الحاميات النائية في أماكنها ، إذ أن أفرادها لا يتعرضون لخطر مباشر ، فهم قد إستوطنوا في تلك الأصقاع وخلقوا علائق ود مع الأهلين . ومن الجائز أن يكون رأي بيرنج قد إستقر أخيراً على سحب حاميات الخرطوم والجزيرة وسنار ، إلا أنه لم يشر إلى هذا من قريب أو بعيد في التعليمات التي صدرت لغوردون من القاهرة .

أوضحت تلك التعليمات أن الخديوي له رغبة أكيدة في بذل كل ما يمكن من جهد لإخلاء رعايا الحكومة المصرية دون إراقة دماء ، ولم تحدد بالتالي أماكن أو فئات معينة . ووصف فرمان التعيين مهمة غوردون بصورة فضفاضة ، هي إخلاء السودان وسحب الجند المصريين دون الدخول في التفاصيل .

إذن فقد كانت السياسة المقررة في بادئ الأمر . هي سحب كل الحاميات المصرية في السودان . وقد أكد هذا إقتراح بيرنج فيما بعد الرامي إلى التضحية بحاميات سنار وبحر الغزال والإستوائية إذا ثبت أو هناك إستحالة في إخلائها . وهذا يعني أن الخطة الأولى كانت تشملها ، وقد كان غوردون يحمل هذا الرأي منذ أن صاغ أول مذكره له في 22 يناير 1884. وقد جاءت رسائله من الخرطوم تحمل إلتزاماً بتلك السياسة .

وفي مطلع مارس 1884 بعث لبيرنج برسالة يقول فيها : إن إخلاء الخرطوم مباشرة لن يكون في مصلحتهم . إذ أن سقوطها في أيدي الأنصار سيكون حتمياً وسيتعذر ، وفقاً لهذا ، سحب الجند والمدنيين من كسلا وسنار وبحر الغزال والإستوائية ، وأوضح له أنه لن يغادر السودان ، حتى لو تم استدعاؤه ، إلا بعد أن يتأكد من أن جميع الرعايا الأجانب قد غادروا البلاد .

وقد كان هذا رأي غوردون من البداية إلى النهاية ، ولم يعترض عليه بيرنج ولا الحكومة البريطانية ، إذن ليس هناك أساس مقنع لقول بيرنج إن غوردون قد حور في مضمون تعليماته لتتناسب ورغباته الخاصة ، وأن مهمته كانت تقتصر على سحب حامية الخرطوم وبذل ما يمكن من جهد لبقية الحاميات . هذه بالتأكيد لم تكن السياسة التي سبق أن أعلنت وتعهد غوردون بتنفيذها ووافق عليها بيرنج والحكومة البريطانية . حقيقة لقد حدثت مراجعة للموقف فيما بعد عندما خابرهم غوردون بإستحالة إخلاء جميع المناطق دون عون عسكري وسياسي من الخارج . أعلنت بريطانيا عندئذ إعتراضها على إرسال اية قوات للسودان . ووجهت غوردون إلى قيادة حامية الخرطوم شخصياً إلى بربر مباشرة ، وكان رأيهم أنه إذا تمكن غوردون من سحب حاميات الخرطوم وبربر ودنقلا سيكون هذا في ذاته مكسباً كبيراً .

ولكن غوردون رفض هذه المراجعة ، وأعلن أنه لن يغادر البلاد حتى يعطي كل شخص يبتغي العودة إلى مصر الفرصة ليفعل هذا.

ولم يكن بالإمكان التخلي عن هؤلاء ، وجلهم من السودانيين ، والإنسحاب مع الجنود المصريين ، فبات الأمر بالنسبة له إخلالاً بالوعد الذي قطعه معهم ، ومسألة كرامة وسمعة شخصية . ولقد نتج هذا الموقف المعقد من الأسلوب الذي صيغت به تعليمات غوردون ، فلم تحدد له مهمته بوضوح ، ولم يبين له أي جزء منها يعتبر رئيسياً وأيهما ثانوياً .

مستقبل السودان السياسي :

لمن يؤول الحكم في السودان بعد إنسحاب السلطة المصرية ؟ تلك هي المسألة الثالثة التي إختلفت حولها الآراء وتباينت ، فرغم أنه كان هناك إتفاق بصورة عامة على ضرورة إيجاد حكم بديل موال بصورة ما للحكم الإنجليزي المصري ، إلا أنه لم يكن هناك إتفاق على أهمية هذا بالنسبة للإخلاء ، ولأي منهما تعطى الأسبقية ،

وكيفيـة تنصيـب الحاكـم الجديـد، هـل سـتكون مـن خـلال معركـة أم بالوسـائل السـلمية ؟.

ولعـل عـدم الوضـوح هـذا ، يعـود إلى أن موضـوع التسـوية السياسـية قـد عولـج بصورة متقطعـة وغامضـة طـوال الوقـت . ففـي مناقشـات نوفمـبر - ديسـمبر لم تبـد أي إشـارة إلى ضرورة إيجـاد بديـل للحكـم المـصري عنـد إنسـحابه . ذكـر بيرنـج هـذا لأول مـرة في رسـالته المؤرخـة 23 ديسـمبر 1883 .

لم تعلـق الحكومـة البريطانيـة عـلى هـذا ، ربمـا لأن القضيـة الهامـة والعاجلـة التـي كانـت تشـغلهم في ذلـك الحـين هـي مـاذا هـم فاعلـون بالسـودان؟.. إذ أن سياسـة الإخـلاء لم تكـن قـد تقـررت بعـد . وفي 4 ينايـر ؛ عندمـا قـرروا الإنسـحاب ؛ لم يـرد أي تعليـق عـلى مسـألة المسـتقبل السـياسي ، ويبـدو أن رأيهـم كان هـو الإسـتغناء عـن السـودان بعـد إخلائه ، حتـى أن التركيـز كان عـلى الجـنرال الـذي سـيقود عمليـة الإنسـحاب ، ولم تجـد مسـألة الحكم إهتمامـاً في هـذا الظـرف بالـذات، لأن الأنبـاء التـي كانـت تتـوارد مـن الخرطـوم تنـذر بـأن شراً مسـتطيراً قـد يلحـق بالرعايـا ويهددهـم بمصـير يشـابه ذاك الـذي إنتهـى إليـه جيـش هكـس باشـا .

كانـت القضيـة العاجلـة كيفيـة إنقـاذ هـؤلاء ، ومـن الـذي يتـولى المهمـة؟ حسـمت رسـالة بيرنـج بتاريـخ 16 ينايـر أمـر القائـد وأوضحـت أنـه سـيُعطى صلاحيـات عسـكرية ومدنيـة لينفـذ الإخـلاء ولا شي غـيره ويبـدو أن إقـتراح 22 ديسـمبر قـد سـقط في هاويـة النسـيان في الوقـت الحـاضر ، ولعلـه مـن الطبيعـي أن تـأتي تعليـمات لنـدن التـي صيغـت بعـد يومـين مـن هـذا خاليـة مـن أي إشـارة إلى مسـألة الحكـم . ولم يكـن ثمـة تفكـير في كيفيـة مـلء الفـراغ السـياسي الـذي سـينتج بعـد إنسـحاب السـلطات المصريـة مـن البـلاد .

جـاء غـوردون ليعيـد للأذهـان مـرة أخـرى مسـألة مسـتقبل الحكـم في السـودان ، فـأورد في مذكرتـه المؤرخـة 22 ينايـر 1884 إقتراحـاً يقـضي بتسـليم السـلطة في السـودان لأولئـك الأشـخاص الذيـن كانـت عائلاتهـم في الحكـم عنـد فتـح محمـد عـلي باشـا ، وقـد وافقـت الحكومـة البريطانيـة - مبدئيـاً - عـلى الفكـرة رغـم أن المـشروع كان يفتقـر إلى الدراسـة الجـادة المتأنيـة . ولعـل التغيـير الجوهـري الـذي طـرأ عـلى سياسـتهم المعلنـة لم يعـد خافيـاً عـلى أحـد . فقبـول هـذا الإقـتراح يعنـي أن سياسـتهم نحـو السـودان لم تعـد الإسـتغناء عنـه ، بـل إخـلاء الرعايـا الأجانـب مـن جنـد ومدنيـين وتنصيـب حـكام سـودانيين يدينـون لهـم بالـولاء ، ويحافظـون عـلى بقـاء النفـوذ الإنجليـزي المـصري ولـو بصـورة شـكلية .

ولا يجب أن يخدعنا تصريح رئيس الوزراء البريطاني تعليقاً على الثورة المهدية بأن السودانيين يكافحون من أجل الحرية ولهم كل الحق في هذا . لقد جاء هذا القول أثناء مناقشة مسألة إرسال قوات للسودان للعمل على إنقاذ الحاميات ، ولقد وقفت الحكومة البريطانية بصلابة ضد الأمر ، فجاءت قولة جلادستون لتبرر هذا الرفض ، إذ لا يستقيم عقلاً أن تبعث بقوات لتحارب مواطنين يكافحون لإسترداد حريتهم . إلا أن التناقض الواضح يكمن في موافقة الحكومة البريطانية على إقتراح غوردون الرامي إلى خلق طبقة حاكمة جديدة في البلاد ، هذه الطبقة قد تفرض فرضاً على المواطنين الذين عناهم جلادستون بحديثه . ليس هذا فحسب بل إن الحكومة البريطانية قد وافقت على كل الخطوات التي اتخذت في القاهرة لخلق مراكز نفوذ مضادة للمهدي ، وأعلن نورث بروك أن أنجع وسيلة لإيقاف زحف المهدي هي وضع حكام مسلمين في كل من الخرطوم وبربر ودنقلا ، وعندما أثير موضوع الحاكم الذي سيخلف غوردون جاء إعتراضهم على التفاصيل وليس على المبدأ نفسه ، فكان أن أعلنت الحكومة البريطانية أنها ليست بالسلطة التي تملك حق التعيين ، فطالما أن الإمبراطورية العثمانية هي صاحبة الحق قانونياً فعليها أن تعين حاكماً للسودان ، وقد رفضت أيضاً التصديق على تعيين الزبير باشا خلفاً لغوردون ، إستناداً إلى عدم صلاحية شخصه وليس على المبدأ ، إذ أنها سارعت بإعلان إستعدادها للموافقة على أي بديل له وإمداده بقدر معقول من المال .

وأيدت الحكومة المصرية إقتراح غوردون الخاص بوضع الحكام المحليين في السلطة . كان واضحاً من التعليمات أنهم لن يتركوا السودان يقع فريسة في أيدي الأنصار ، فكلف غوردون بتكوين حكومة صالحة في البلاد ، وبالسعي لتأمين العدالة والنظام في أرجائها .

ولقد أعن بيرنج – صراحة – أن مسالة إيجاد رجل ، أو مجموعة من الرجال لتحفظ النظام في السودان أمر له أهمية من الدرجة الأولى ، إذ أن هذه هي الوسيلة التي ستجعل المهدي يقف عند حده . وكان رأيه أن إنسحاب الحكم المصري دون وضع بديل في مكانه يعني سيطرة المهدي على البلاد ، الأمر الذي سيهز الموقف العسكري والمالي في مصر بدرجة خطيرة .

أما غوردون فقد كان يرى في السودان موقعاً إستراتيجياً هاماً بالنسبة للنفوذ

البريطاني في منطقة الشرق الأوسط ، ولا بد من السيطرة عليه . فالتطورات التي تحدث في السودان سيكون لها ردود فعل بعيدة المدى في كل من مصر وبقية البلدان العربية .

كان رأيه أنه إذا تم الإستغناء عن السودان فسيقع في أيدي المهدي بلا منازع ، وستحس كل قرية في مصر وفقاً لهذا أن بإمكانها التخفي وراء الدين لتطرد الدخيل الكافر . كما أن بوادر تداعي الإمبراطورية العثمانية تجعل من الضروري أن تفرض بريطانيا سيطرتها – ولو بصورة إسمية – على الدول العربية حتى تتمكن من إستلام السلطة كاملة عند إنهيار الحكم العثماني ، وبقاء نفوذها في السودان سيزيد من فرصتها لفرض تلك السيطرة .

وعندما وضع غوردون خطة تنصيب الحكام المحليين ؛ رأى أن المهدي الذي لم تكن عائلته ضمن أولئك الذين كانوا في السلطة عند فتح محمد علي باشا يجب ألا يؤخذ في الحسبان على الإطلاق ، ولكنه عدل عن خطته هذه عند دخوله الأراضي السودانية ، وإعترف بالمهدي سلطاناً على كردفان . [53] ولعله قد لمس عن كثب مدى التأييد الذي يحظى به المهدي وسط الأهلين ، فأراد أن يحتال عليهم ويحد من هذا التيار بإقناعهم أن زعيمهم قد أصبح حاكماً على جزء من البلاد ، فليس هناك ما يبرر الثورة بعد ذلك . يلاحظ في ذات الوقت أن تعيين المهدي حاكما على كردفان يعني بقاءه بعيداً عن الخرطوم ، وبالتالي يمكن غوردون من تنفيذ مخططه بتنصيب حكام وفق إختياره في الخرطوم وبقية المناطق المتاخمة لمصر والتي هي في الواقع مصدر الخطر الحقيقي ، أما كردفان فتبدو أبعد من أن تؤثر تأثيراً مباشراً على مجرى الأحداث في الشرق الأدنى .

كان غوردون يعتقد أن بإستطاعة هؤلاء الحكام جمع المؤيدين حولهم وخلق مراكز ثقل مضادة للمهدي ، إذ أن السند الجماهيري الذي يلقاه يعود في إعتقاده إلى كونه الجانب القوي القادر على حماية أرواحهم وممتلكاتهم وليس لأنه زعيم ديني . كان رأيه أن المهدي يتخذ من الدين ستاراً ليغطي أعمالاً لا يسندها الحق .

وقد صرح للعلماء عند وصوله الخرطوم أنه من المخزي أن يتخل الناس عن دياناتهم ويتبعوا مدعي المهدية فقط ليحموا ممتلكاتهم وينقذوا أرواحهم [54]، إذ أن

---

(53) غوردون إلى المهدي 12 ربيع أول 1301 (10 فبراير 1884) فيوضات جـ151/1/.

(54) Journals of Gordon Vol. 1, 12th September 1884.

السـوداني يميـل إلى الإحتفـاظ بأغنامـه إذا طلـب منـه أن يختـار بينهـا وبـين ربـه ، وهـم لهـذا قـد أيـدوا المهـدي ضـد الحكـم الـتركي المـصري المتهالـك الـذي فقـد المقـدرة عـلى حمايتهـم . فلـو تمكـن مـن خلـق حكـم محـلي تسـانده بريطانيـا بقـدر مـن المـال فقـد ينجـح في جـذب أنصـار المهـدي إلى صفوفـه .

ولعـل تجريـده للثـورة مـن محتواهـا الدينـي وتفسـيرها عـلى اسـاس مـادي هـو الـذي دفـع غـوردون لتنفيـذ مخططـه الرامـي إلى إعـلان سياسـة إصلاحيـة يمكـن أن تجـذب الأهـالي إليـه ، فبـات يعتقـد أن منـاصرة السـودانيين للمهـدي مردهـا قوتـه التـي أثبتهـا خـلال عـدة معـارك . إلا أنـه إعـترف في ذات الوقـت بالظلـم والغـبن اللذيـن ظـل يعـاني منهـما الأهـالي طيلـة فـترة الحكـم الـتركي فتصـور الحـل للأزمـة في إيجـاد جهـاز إداري قـوي يعتمـد عـلى الوطنيـين وينفـذ برنامـج للإصـلاح المـالي والإجتماعـي يشـمل بضعـة تنـازلات في الضرائـب وتجـارة الرقيـق .

ومـا أن بـدأ غـوردون مسـيرته جنوبـاً حتـى تكشـفت لـه بعـض بـوادر الترحيـب بمقدمـه ، إذ لم يتـوان أهـالي قـري شـمال السـودان مـن إسـتقباله وتحيتـه كممثـل للحكومـة المصريـة وبصفتـه هـذه رفعـت إليـه بعـض الطلبـات مـن أشـخاص يسـعون للعمـل في وظائـف حكوميـة ، وفي أبي حمـد قدمـت لـه عرائـض تعـبر عـن غبطـة الأهـالي بمقدمـه والترحيـب بـه ، وقـد رأى غـوردون في هـذه الإشـارات بـوادر تأييـد لـه ، الأمـر الـذي شـجعه عـلى المـضي في مخططـه السـالف الذكـر .

ولعـل غـوردون كان متسرعـاً في اسـتنتاجه مـن أن تلـك البـوادر تـدل عـلى ضعـف التأييـد الـذي تلقـاه المهديـة في تلـك المناطـق . ربمـا كان المهاجـرون مـن أبنـاء مـصر الذيـن يقطنـون تلـك المناطـق المتاخمـة لبلادهـم هـم الذيـن رفعـوا رايـة الـولاء . كذلـك في بعـض القـرى أبـدى المشـايخ والعمـد – بوصفهـم الفئـة التـي سـتتأثر مصالحهـا بالثـورة – مظاهـر الإبتهـاج بقـدوم الجـنرال وقافلتـه الصغـيرة ، ومـن الصعـب في كلتـا الحالتـين الوصـول إلى الحكـم المطلـق بـأن السـودانيين بصفـة عامـة مـا زالـوا موالـين لمـصر ، وكل مـا يجـب عملـه لإسـتعادة الأمـن والطمأنينـة هـو بعـض الإصلاحـات الإداريـة والماليـة ، ونقـض خطـة الإخـلاء التـي سـتقابل بجـزع شـديد .

ومـن ناحيـة أخـرى كان لغـوردون إلمـام تـام ، مـن بعـض شـهود العيـان ، بمـا آلـت إليـه الأمـور ومـدى التأييـد الـذي يلقـاه المهـدي . فقـد إتصـل بـه عبدالقـادر باشـا حلمـي

أثناء وجوده في القاهرة وذكر له أن نفوذ المهدي قد تغلغل وسط السودانيين بصورة يصعب معها إقتلاعه بالطرق السلمية [55] ، كما أكد له هذه الحقيقة بعض القساوسة الكاثوليك الذين كانوا في طريقهم من الخرطوم إلى القاهرة ، وأوضحوا له أن المهدي لن تخضعه إلا القوة ، ثم أن غوردون كان قد إلتقى بأحد المهندسين البريطانيين ، مستر بيرد (Baird) ، فاسر له الآخير بأن مشاعر السودانيين ، حتى في تلك المناطق ، قد إتجهت بصفة قاطعة نحو المهدي .

ويلاحظ أن ستيورت ، مرافق غوردون في تلك الرحلة ، كان له رأي مغاير تماماً لرأي غوردون ، إذ بات يعتقد أن هيبة الحكومة المصرية آخذة في الزوال فعلاً .

ولكن يبدو أن تفكير غوردون قد إستقر بصورة قاطعة نحو تنفيذ الخطة الإصلاحية، ولم يشأ أن يأخذ في الإعتبار رأي مرافقه أو آراء أؤلئك الأشخاص الذين هيأت لهم الظروف البقاء في موقع الأحداث ولمس الحقائق منذ بدايتها وإلى أن وصلت إلى ما هي عليه .

وما أن وصل إلى بربر ، حتى وجد في الأحداث هناك غذاء جديداً لتفاؤله . فقد كان إستقباله حافلاً ورفعت له حوالي أربعمائة عريضة من المواطنين الذين يبغون العمل في الحكومة ، ففسر هذا بأنه تأييد للسلطة التي يمثلها ورغبة في إحلال السلام ، وبدأت فكرة الإجراءات الإصلاحية تروق له أكثر ، فذكر عندما سئل عن الهدف من مجيئه بأنه يسعى للوصول إلى إستقرار وأمن بطرق سليمة ، كان إستقبال غوردون في بربر مدعاة إلى الوصول إلى تلك الأحكام ، إذ أن أعداداً كبيرة من السكان تقاطرت نحوه في مبنى المديرية ، وفي أيديهم عرائض ذات أهداف متباينة ، وكان رد غوردون إيجابياً . يتمثل في توزيع بضع قطع فضية كانت بحوزته ، ولعل هذا يفسر لنا تزاحم الأهالي حول مسكنه ، إذ أن الحصول على قطعة نقود مقابل عريضة لا تكلف سوى قيمة الورق الذي كتبت عليه لهو أمر شديد الإغراء وبالإضافة إلى هذا أمر الجنرال بتوزيع كميات من الذرة على الأهالي .

ولعل هذه الإجراءات قد أدت إلى إستمالة بعض سكان المدينة إلى صفه ، فسارع بدوره إلى تكوين حكومة يمكن أن يلتف حولها المؤيدون . هذه الحكومة قوامها مجلس من الشيوخ يكون مسؤولاً لديه رأساً بوصفه حاكماً عاماً للسودان ، وممثلاً

(55) إبراهيم فوزي ، ص 265 – 6.

للحكومة البريطانية ، وقد كان يعتقد أنه بهذا سيتمكن من القضاء على المهدية في ظرف شهر واحد ، لن يدعي بعده ((محمد أحمد بأنه المهندي المنتظر)) .

خطط غوردون للإستعانة بالأعيان ، فهم الفئة التي تخشى على مصلحتها وذاتها من الثورات ، علاوة على أن إنحيازهم لجهة ما يغذي تلك الجهة بجموع مؤيديهم وذويهم .

قرب غوردون إليه حسين باشا خليفة ، زعيم العبابدة الذين يسيطرون على المنطقة الممتدة شمالاً من بربر حتى حدود مصر ، ولا بد أن الشك قد ساوره في مصير ممتلكاته تلك في حالة نجاح المهدي في السيطرة على البلاد ، فوجد غوردون في نفسه إستجابة لتأييده ، فأسر له بأمر فرمان الإخلاء [56] ، وتخوف حسين خليفة فطلب من غوردون ألا يعلن هذا خشية من العواقب [57] ولكن غوردون تجاهل هذا الرأي ، فكشف الفرمان لمجلس الأعيان الذي سيقوم بأمر الحكومة في مديرية بربر ، ضم المجلس بعض الموظفين الذين سبق أن عملوا في خدمة الحكومة ، أمثال القاضي محمد أفندي الطاهر ، ومحمد أفندي حجل ، ومن زعماء القبائل جاء بالشيخ أحمد الجابري ، ومحمد أحمد هاشم ، وسليمان أغا ، ومحمد على قمر من المناصير ، ومثل المجاذيب أمين أغا أحمد المجذوب ، ويعني تكوين هذه الوحدة الإدارية بقاء المنطقة تحت النفوذ المصري حين يتم تنفيذ سياسة الإخلاء ، وقد كان كشف الفرمان لهم بمثابة إستغلال لإطماعهم وطموحهم في السلطة ، وما داموا سيبقون حكام بعد إنسحاب الحكومة المصرية فعليهم إذن الحفاظ على منطقتهم خالية من نفوذ المهدي وأتباعه.

ويبدو أن غوردون قد وطد العزم على تنفيذ ذلك المخطط ، فقد كان يعلن للأهالي في القرى ، وهو يتقدم نحو الخرطوم ، عن إنسحاب الحكومة المصرية . ولعلها كانت محاولة للحد من موجة الإنعطاف نحو المهدي ، فإذا كان الأهالي قد ثاروا ضد الحكومة المصرية فقد أعلن لهم إنسحابها وليس هناك ما يبرر إنضمامهم للمهدي .

أما من الناحية المالية فقد خطط غوردون ليخفف العبء الضرائبي عن الأهالي كجزء من سياسة الإصلاح ، فأعلن تخفيض تقديرات الضرائب إلى النصف ، كما ألغى كل المتأخرات حتى نهاية عام 1883، وأوضح للأهالي في إعلان نشرة على نطاق واسع

.Ohrawlader, p. 123 (56)

.Stain, p. 297 (57)

أن هدفه هو استتباب الأمن العام وإدخال الطمأنينة في النفوس ، ولما كان على علم بالتذمر الذي أحدثته إجراءات الحكومة فيما يتعلق بتجارة الرقيق فقد رأى فسخ إتفاق عام 1877 (The Anglo-Egyptian Convention) الذيكان ينص على عتق الرقيق عند نهاية 1889 . وكان غوردون يعتقد أن هذا الإجراء قد يساعد في إستعادة شعبية الحكومة خصوصاً وقد زعم له أحد المهندسين البريطانيين عندما التقى به قبل وصوله إلى بربر أن السودانيين قد أيدوا المهدي لأنه يبيح لهم تجارة الرقيق .

بالإضافة إلى سياسة تهدئة الخواطر وإصلاح ما أفسدته الحكومات السابقة ، رأى غوردون أنه قد يكون مفيداً إستعمال سلاح الإرهاب ، فأعلن أن السلطان بوصفه خليفة المسلمين . كان ينوي إرسال قوة من جند الأتراك الذين عرفوا بشجاعتهم وبأسهم لإستعادة المناطق المتمردة ، ولكنه تدخل بشخصه لإيقاف تلك الأجراءات حتى تتسنى له فرصة دراسة أسباب التذمر عن كثب .

ولعل الهدف من وراء هذا الإعلان هو إمكان إستعماله وسيلة للضغط على الأهالي لقبول الإجراءات الإصلاحية . إذ أن رفضها والإنخراط في سلك المهدية سيعرضهم إلى حرب إنتقامية يشنها جنود الأتراك . وهو يكشف من ناحية أخرى عن تخوف غوردون من إمكان نجاح السياسة السلمية التي كان يدافع عنها في بادئ الأمر ، أو على الأقل تخوفه من ألا تكون تلك الإجراءات وحدها كافية لإغراء الأهالي للإلتفاف حول مجلس الأعيان .

وفي نفس الوقت الذي كان يحاول غوردون جاهداً استمالة أهالي المنطقة إلى جانبه ، كان زعماء الأنصار يعملون بنفس القدر من الحماس . فبدأت قوة منهم تحت قيادة الشيخ محمد خير تزحف نحو بربر .

ولم يتردد هذا في توجيه رسائله لنفس الأعيان الذين وضعهم غوردون في مركز السلطة لينضووا تحت رايته . فما كان من هؤلاء إلا أن عبروا النيل إلى الشاطئ الآخر ، حيث كانت ترابط قوات المهدي ، وأنضموا إليهم دون أدنى إعتبار للإلتزام بساسة غوردون [58].

ولعل هذا التصرف كان نابعاً من تقديرهم لقوة المهدي بالمقارنة إلى نفوذ الحكومة. فقد أصبح جلياً أن الحكومة تفقد كل صباح أرضاً جديدة ، وقد جاء غوردون

(58) Guzzi, p. 56.

وهـو يحمـل معـه الأمنيـات الطيبـة وبضعـة عمـلات ذهبيـة لم تكـن لتسـاوي شـيئاً أمـام جحافـل الأنصـار .

بالإضافـة إلى هـذا ، فقـد كان إعـلان فرمـان الإخـلاء في غـير مصلحتـه ، إذ أن الأعيـان الذيـن أراد أن يغريهـم بـه قـد أيقنـوا بإنتهـاء نفـوذ الحكومـة ، فلـم يـترددوا في إخطـار ذويهـم بهـذا .

فتقاطـرت مشـايخ القـرى الواقعـة جنـوبي بربـر لإعـلان تأييدهـم لعـمال المهـدي ، وفي المتمـة لم يـتردد شـيخ مثـل عـلي ود سـعد الـذي عـرف بأمـر الفرمـان مـن غـوردون مـن الإنضـمام إلى المهـدي لينجـو بنفسـه .

الفصل الثالث

مخططات غوردون والمهدي للسيطرة على الخرطوم

الفصل الثالث
مخططات غوردون والمهدي
للسيطرة على الخرطوم

تنفيذ الخطة الإصلاحية في الخرطوم :

وصـل غـوردون الخرطـوم في الثامـن عـشر مـن فبرايـر 1884 ، ومـا زالـت أفـكاره الرئيسـية حـول مهمتـه تتوافـق تماماً مـع السياسـة التـي سـبق أن أعلنهـا ونفذهـا في بربـر، إذ كان يـرى فيهـا الوسـيلة الفعالـة لجـذب الأهـالي نحـو حكومتـه . كان إعتقـاده أن ثقـة السـكان في الحكومـة المصريـة لم تزعـزع ، ومـا زالـت رغبتهـم في بقائهـا أكيـدة ، ولا يجـد المهـدي بينهـم تجاوبـاً أو عطفـاً . ومـن ثـم إسـتقر رأيـه عـلى مسـاندة تلـك الفئـة التـي قدرهـا بثلثـي سـكان الخرطـوم والتـي كشـفت عـن رغبـة حقيقيـة في إسـتتباب الأمـن .

ولقـد إبتهجـت المدينـة التـي قـدر عـدد سـكانها بـــ 43ر000 نسـمة تقريبـاً بوصـول غـوردون [59] ولا بـد أن أغلبيتهـم رأت في مجيئـه إنقـاذاً لهـا ولسـلطاتها وممتلكاتهـا مـن الثـورة التـي أوشـكت أن تسـيطر عـلى المدينـة ، لا سـيما وأن الخرطـوم كانـت – بوصفهـا عاصمـة البـلاد – مقـراً لعـدد كبـير مـن الأجانـب . ولا بـد أن هـؤلاء كانـوا يشـكلون قسـماً كبـيراً مـن الفئـة التـي وصفهـا غـوردون بثلثـي السـكان الذيـن لا يجـد المهـدي بينهـم تأييـداً أو تعاطفـاً . ومـن ثـم إسـتمد مـن موقفهـا هـذا تفاؤلـه وإسـتند عـلى مشـاعرها في إقـرار الصيغـة النهائيـة لتصفيـة الثـورة .

كان سـكان الخرطـوم خليطـاً مـن ثـلاث مجموعـات ، مجموعـة أوروبيـة ، وثانيـة شرقيـة ، وأخـرى سـودانية [60]. شـكل الإغريـق والإيطاليـون والنمسـاويون أغلبيـة الأوربيـين . أمـا الشرقيـون فقـد كانـت أغلبيتهـم مـن المصريـين والسـوريين الذيـن كانـوا يمثلـون أكـبر مجموعـة مـن الأجانـب عـلى الإطـلاق ، إذ قـدر عددهـم في عـام 1880 بسـبعمائة ألـف تقريبـاً ، ولكـن يبـدو أن أعـداداً منهـم كانـت قـد غـادرت البـلاد بعـد إنـدلاع الثـورة ، وعـلى الخصـوص بعـد هزيمـة هكـس باشـا [61] وشـكل الجعليـون والدناقلـة أغلبيـة السـودانيين

---

(59) Nushi Pasha, p. 16.

(60) أبو سليم ، ((مدينة الخرطوم في التاريخ)) ، الخرطوم يناير 1966 ص 8.

(61) Guzzi, p. 41.

الذيـن كانـوا يمثلـون في مجموعهـم خمـس سـكان المدينـة . ولكـن هـذا العـدد كان قـد تقلـص في مطلـع عـام 1884 ، إذ هجـر بعـض الدناقلـة منازلهـم وإسـتقروا بقريـة الكاملـين جنـوب الخرطـوم [62].

يشـكل السـودانيون المقيمـون في المدينـة الطبقـة الفقـيرة عمومـاً ، إذ إسـتطاع الأجانـب السـيطرة عـلى ميـدان التجـارة بخبرتهـم وعملهـم ، فـكان الإغريـق هـم أصحـاب القـدح المعـلى في هـذا المجـال . أمـا الخدمـة المدنيـة فقـد سـيطر عليهـا المصريـون كموظفـين موفديـن مـن قبـل حكومتهـم ، في حـين حظـي الأتـراك بالوظائـف الكـبرى في جهـاز الإدارة .

وجـد غـردون إذن عنـد وصولـه أن الأجانـب يمثلـون أغلبيـة السـكان وفي أيديهـم الـثروة والسـلطة ، وكانـوا يـرون مصلحتهـم في بقـاء المدينـة تحـت قبضـة الحكومـة القائمـة مهـما كلـف الأمـر ولعـل غـردون قـد لمـس الحقيقـة حـين قـال إن المهـدي لا يجـد تأييـداً بينهـم . ففـي رسـالة لمراسـل صحيفـة التايمـز مـن الخرطـوم ذكـر أن فئـة التجـار مـن هـؤلاء ترغـب بطبيعـة الحـال في مقاومـة المهـدي والتمسـك بالحكـم المـصري لآخـر لحظـة . ولعلهـم لهـذا السـبب توسـلوا لغـوردون كي لا يـشرع في تنفيـذ خطـة الإخـلاء ، إذ ايقنـوا أن سياسـته السـلمية التـي أعلنهـا لـن تنجـح بأيـة حـال في قلـب ميـزان القـوى لصالحـه . وكان واضحـاً بعـد معركـة شـيكان أن الخرطـوم سـتكون الهـدف المقبـل للمهـدي ، الأمـر الـذي أثـار موجـة مـن الذعـر بينهـم وأصبـح جليـاً أن الحكومـة بإمكانياتهـا تلـك لـن تتمكـن مـن خلـق شـبكة دفاعيـة فعالـة للمدينـة ، فاتجـه التجـار إلى تصفيـة أعمالهـم تأهبـاً لمغادرتهـا متـى مـا بـدأ الخطـر ماثـلاً عـلى الأبـواب .

وذهبـت كل جهـود دي كتلوجـن في تهدئـة الخواطـر أدراج الريـاح ، إذ فقـدت الأغلبيـة ثقتهـا في الحكومـة ولم يعـد بإمـكان رجالهـا إخفـاء حقيقـة الموقـع الـذي يحتلـه المهـدي ، فقـد كان يكسـب كل يـوم أراضي جديـدة ، وتتصاعـد بإسـتمرار موجـة الكراهيـة ضـد الحكومـة والأجانـب بصفـة عامـة .

ولكـن مجـئ غـوردون بعـث في نفوسـهم أمـلاً جديـداً ، غـير أنهـم كانـوا يـرون مـن الـضروري تطبيـق خطـة عسـكرية لحمايـة الخرطـوم ، ومـن هنـا جـاء توسـلهم لـه للإبقـاء عـلى حصـون المدينـة [63] ورغـم أن غـوردون قـد شرع في بـادئ الأمـر في تنفيـذ خطتـه الإصلاحيـة لإجهـاض الثـورة سـلمياً إلا أنـه أضطـر فيـما بعـد إلى الإمتثـال إلى رأي تلـك الفئـة في مواجهـة المهـدي عسـكرياً .

---

(62) Nushi Pasha, p. 4.

(63) إبراهيم فوزي ، ص 276 .

ورغم قلة السودانيين داخل الخرطوم فقد عمل غوردون على إستمالتهم وإستمالة أولئك الذين يقيمون في المنطقة بأكملها ، فجاء في خطابه الأول الذي أملاه على إبراهيم بك لبيب مأمور الضبطية قوله : ((إنكم لا تجهلون شفقتي عليكم ، ومحبتي لكم ، وقد ساءني ما سمعته عنكم حيث نشبت الحرب بينكم ، وتعطلت تجارتكم ، وسفكت دماؤكم ، ومنعتم من تأدية فريضة الحج التي هي من أركان الإسلام وزيارة قبر النبي (ص) وقد ساء هذا الحال كل من جلالة الملكة وسمو الخديوي المعظم))[64]. ثم برهن على حسن نواياه بإتخاذ جملة قرارات ، فأعلن عن تخفيض الضريبة المقررة إلى النصف مع إلغاء المتأخرات حتى نهاية عام 1883 [65]. كما قرر إطلاق سراح جميع السجناء بإستثناء القتلة ، وأعلن أيضاً إلغاء الإتفاق الخاص بعتق الرقيق ، وكان غوردون يهدف من وراء هذا إلى تغيير الصورة السابقة التي عرفها السكان عن الحكم التركي . فهذه إدارة جديدة متعاطفة معهم وتتخذ موقفاً يختلف كثيراً عن مواقف الإدارات السالفة . وما دام الحال هكذا فقد يقتنع البعض أنه ليس هناك ما يبرر مناصبتها العداء بالإنضمام إلى المهدي .

شرع غوردون بعد ذلك في تكوين إدارة محلية قوامها مجلس للأعيان ، كما فعل في بربر ، ويلاحظ أنه لم ينشر الفرمان الخاص بالإخلاء هنا ، إلا أنه قد أشار إليه في خطابه الأول حينما ذكر أنه منتدب ((من حكومة صاحبة الجلالة الملكة لأكون والياً على السودان ومرخصاً لي فوق العادة ، وقد صار فصل السودان عن مصر فصلاً تاماً وفوض إليّ الحكم المطلق))[66]

وفي هذا إشارة صريحة إلى مضمون الفرمان ، إلا أنه لم يذكر مسألة إنسحاب الجند . ربما تخوفاً من رد الفعل السيئ الذي أحدثه الإعلان في بربر ، وقد بعث برقية إلى الخديوي يخطره فيها أنه لم يكشف عن أمر جلاء العساكر المصريين خوفاً من الإضطرابات التي قد يثيرها الإعلان .

وذكر غوردون للأهالي أنه ينوي تشكيل حكومة من الوطنيين حتى يستطيع السودان أن يحكم نفسه بنفسه ، وقد كانت فكرته هي سحب الجند والموظفين المصريين وتعيين حكومة جديدة يمكن أن تقف في وجه المهدي وتحتفظ بالخرطوم في قبضتها ، وهي حكومة سودانية في مظهرها ، إلا انها تدين بالولاء للحكومات التي أتت بها إلى السلطة .

(64) محمد عبدالرحيم ، ص 8 .

(65) Nusshi Pasha, p. 5.

(66) محمد عبدالرحيم ، ص 9 .

عـين غـوردون عنـد وصولـه عـوض الكريـم أبـو سـن ، رئيسـاً لمجلـس الأعيـان ومديـراً للخرطـوم في ذات الوقـت [67]وقـد إختـار أبـو سـن وأنعـم عليـه بلقـب الباشـوية ، لأنـه كان شـيخاً ذا نفـوذ وسـط قبيلـة الشـكرية التـي تشـكل أكـبر تجمـع قبـلي في منطقـة الخرطـوم ، إذ قـدر عـدد أفرادهـا بــ 35 ألفـاً تقريبـاً (بالمقارنـة مـع سـتة آلاف مـن البطاحـين، وأربعـة آلاف مـن الحسـنات، وبضعـة مئـات مـن كل مـن الحسـانية والأحامـدة والقريـات)، فانحيـاز أبـو سـن إلى جانـب الحكومـة سـيعني كسـب أعـداد كبـيرة مـن أفـراد تلـك القبيلـة ، هـذا بالإضافـة إلى أنـه حتـى ذلـك الحـين لم يـزل في ولائـه للحكومـة المصريـة ، فقـد حـارب مـع قـوات جيجلـر باشـا ضـد الأنصـار في عـام 1882 ، وعنـد بدايـة حصـار صالـح المـك في جزيـرة فـداسي سـار أبـو سـن لنجدتـه ، وحـاول إحتـلال موقـع مقابـل للجزيـرة ، إلا أن إبنـه عبداللـه – الـذي أعلـن إنضمامـه للمهـدي – سـبقه إلى هنـاك فاحتـل الموقـع [68]جـاء إذن إختيـار غـوردون لأبي سـن بمثابـة الإغـراء ليبقـى في ولائـه للحكومـة ، وقـد يجـر مـن ورائـه بعـض بطـون الشـكرية . وقـد ضمـت عضويـة المجلـس السـعيد باشـا حسـين ، وهـو جعـلي عمـل في الجيـش المـصري وعـرف بإخلاصـه لغـوردون منـذ ولايتـه الأولى في السـودان ، إذ نبهـه آنـذاك إلى مؤامـرة كان يحيكهـا سـليمان الزبـير بدارفـور ، فأنعـم عليـه غـوردون برتبـة البكبـاشي .

ويبـدو أنـه كان يتمتـع بقـدر مـن الكفـاءة العسـكرية ، إذ عـين في عـام 1883 قائـدة لقـوة الدويـم . ولعـل غـوردون كان يسـعى لتمثيـل بعـض الضبـاط في المجلـس حتـى يسـاهموا بخبرتهـم في الأمـور الحربيـة التـي قـد تواجـه المدينـة ، فبالإضافـة إلى السـعيد باشـا ، عـين حسـين باشـا إبراهيـم الشـلالي ، ومـن موظفـي الحكومـة جـاء ببابكـر أفنـدي الجـار كـوك ، وحمـد باشـا حسـين ، وهـو مـصري الجنسـية عـين في ذا ت الوقـت مديـراً للماليـة . ولم يـر غـوردون في تعيينـه خرقـاً لمبـدأ تكويـن حكومـة مـن السـودانيين ، إذ أن محمـد باشـا قـد حـضر إلى الخرطـوم منـذ طفولتـه ومـارس التجـارة وإشـتهر بهـا فأصبـح مـن كبـار التجـار في عـام 1883 [69].

---

(67) عـوض الكريـم باشـا أحمـد أبـو سـن (- 1886) الإبـن الأكـبر لأحمـد بـك أبوسـن ، عـين ناظـر للشـكرية في 1872 . بعـد مـوت والـده تـرك النظـارة ليلتحـق بوظيفـة في الحكومـة بالخرطـوم ، فعـين أخـوه عـلي ناظـراً مكانـه إلا أن عـوض الكريـم عـاد مـرة أخـرى للنظـارة عنـد إنـدلاع الثـورة المهديـة وناصـر الحكومـة . لـم يتمكـن مـن الحضـور إلى الخرطـوم خـلال فـترة الحصـار فعـاش في منطقـة ريـرة إلى أن سـقطت المدينـة . اعتقلـه الخليفـة عبداللـه فيـما بعـد ومات سـجيناً.

.4-Hill, Abiographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan pp. 63

(68) بابكر بدري ص 28 .

(69) نعوم شقير ص 693 .

وفي نطاق سياسة الإستعانة بزعماء القبائل ليكسب ذوي عشيرتهم أشرك في المجلس سليمان أغا ود الملك ، والحاج ناصر أبو حسوس ، كما قرب إليه رجال الدين والفقه أملاً في الاستفادة منهم فيما بعد في إصدار الفتوى التي تدحض إدعاءات المهدي ، فمثلهم بالشيخ محمد الأمين الضرير رئيس ومميز علماء السودان ، وحسين المجدي الذي كان مدرساً بالجامع، والشيخ عبدالقادر إبراهيم المعروف بقاضي الكلاكلة [70].

أراد غوردون أن يفوز أيضاً بولاء تلك الفئات من سكان المدينة التي تتعاطف سراً مع المهدي ، فتعرض للرسالة التي بعث بها إليه في الخطاب الذي ألقاه يوم وصوله إلى الخرطوم بقوله : ((وقد خابرت السيد محمد أحمد المهدي بفحوى مأموريتي وأعترف له بالسلطة على السودان الغربي برمته ، على شرط أن لا يمد يده لغيره .. ولي الأمل بأن العلائق ستصبح بيني وبين سلطان الغرب وثيقة العرى))[71].

هدف غوردون من وراء هذا بلا شك إلى كسب تلك الفئة التي أوشكت أن تقف في الخط المعتاد له ، ولابد أن تصريحه ذاك سيجعلها تتخلى بصورة نهائية عن أي فكر في خلق قاعدة للمهدي وسط العاصمة نفسها . فالمهدي لم يعد عدواً للحكومة تلزم محاربته ، بل وجد الإعتراف الرسمي ، ولم يعد هناك ما يبرر رفع راية العصيان سواء في السر أو العلانية.

وعمل غوردون على كسب فئات من مجتمع المدينة عن طريق الإغراء المادي ، فقرب إليه العلماء وجعل لهم رواتب عينية ونقدية ، واستطاع أن يستغلهم في خلق جبهة دينية مناوئة للمهدي ، فكانوا يلقون الخطب في المساجد يكذبون فيها إدعاءات المهدي ويصورونه كعدو للمسلمين [72].

ويبدو أن غوردون قد طلب منهم تحرير الخطاب الذي أرسل إلى الشيخ عبدالقادر، وعبدالرحمن النجومي ، بتاريخ 23 ذو القعدة 1301 . وقد تعرضوا فيه إلى دحض أقوال المهدي بنصوص من الأحاديث والفقه الإسلامي ووصفوه بأنه مرتد لأنه فارق الجماعة ((وشق عصا الإسلام ، وخرب ديار المسلمين ، ونهب أموالهم ، وهتك أعراضهم ، وسلط بعضهم على بعض بما يوجب إرتداده حيث استحلوا قتل المؤمنين،

---

(70) Nushi Pasha p. 5.

(71) محمد عبدالرحيم ، ص 9 .

القول بأن المهدي قد عين سلطان على الغرب غير صحيح ، إذ كان التعيين على كردفان فقط ويؤيد هذا رد المهدي لغوردون حيث يقول ((إنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين ... وأن تجعلنا سلطاناً على كردفان)) إنذارات ب ص . 109 — 18 .

(72) إبراهيم فوزي ، ص 246 .

وهتك أعراضهم ، ونهب أموالهم ، وسمتهم الكفرة بدون وجه مع إقامتهم شعائر الدين وسلوكهم الطريق المتين)) [73].

وقد ذيلت هذه الرسالة بإمضاء كل من الشيخ محمد الأمين ، والشيخ حسين المجدي ، والشيخ محمد خوجلي قاضي عموم السودان ، والشيخ شاكر أفندي مفتي الإستئناف ، والشيخ محمد موسى مفتي مجلس الخرطوم .

وكانت هذه محاولة لإضعاف التأييد الذي يلقاه المهدي ، فأولئك الذين يثقون في مقدرة العلماء يمكن أن يروا فيه رجلاً خارجاً على أصول الدين وتقاليده .

إستغل غوردون أيضاً طبقة ((الفقراء)) والمتصوفة ذات النفوذ وسط الأهالي ، وطلب منهم التوجه إلى الله بالدعاء ليعين المدينة ، وكانوا يتقاضون على هذا أجراً ثابتاً من خزينة الدولة [74]. وعمل أيضاً على مراعاة العادات والتقاليد الإسلامية ليدحض إتهامات المهدي للإدارة التركية بجهلها وتجاهلها للدين وإنشغالها بغير الله .

كما حاول أيضاً إستمالة فئات أخرى وذلك بالإنعام على أفرادها بالرتب والألقاب ، فبدأ في توزيعها يمنة ويسرة حتى ((وصلت رتبة البيك والباشا الرفيعة الشأن إلى أوباش الناس كالحجام والجزار)) [75].

كانت سياسة غوردون ، إذن محاولة كسب السكان عن طريق إعطائهم بعض السلطات الإدارية وتخفيف الضغط الإقتصادي الذي كان من مخلفات الحكومات السابقة ، بالإضافة إلى بعض الإجراءات الإصلاحية الأخرى . وكان يعتقد أن الحكومة التي سيكونها لتخلف الحكومة المصرية ستلقى التأييد الذي يمكنها من مواجهة المهدي . فكتب لبيرنج يطمئنه على إمكانية إخلاء الجند والموظفين المصريين من المدينة ذاكراً له في الرسالة أنه كان يخشى من إضطرابات قد تثيرها العناصر المدنية ، ولكنه كسب تأييدهم بواسطة بعض الإجراءات الإصلاحية .

ولكن يبدو أن تخوف غوردون هذا ظل قائماً ، ولم تنجح تلك الإجراءات تماماً في إستمالة السكان . فأخذ يستعين بسلاح الإرهاب . فأعلن في المدينة أنه لولا تعاطفه معهم لكانوا الآن تحت رحمة قوة عسكرية ترسل خصيصاً لإخضاعهم . وقد أصبح

(73) العلماء الموضحة أسماؤهم أدناه إلى الشيخ عبدالقادر وولد النجومي 23 ذو القعدة 1301 (15 سبتمبر 1884) (ملحق ح).

(74) Nushi Pasha, p. 30.

(75) أحمد العوام ، ص 54 .

سلاح الإرهاب جزءاً من مخطط غوردون لإقرار السلام . فإذا كان في الإمكان تبليغ الأهالي بصورة غير رسمية عن إحتمال إرسال قوات تركية فقد يدفعهم هذا إلى هجر المهدي .

وكان يعتقد أيضاً أنه من المفيد نشر إشاعة فحواها أن هناك إتجاهاً لإرسال قوة إنجليزية للسودان ، فهذا أمر بلا شك سيثير الفزع ، وربما ساعد في جذب بعض العناصر المعادية ، فأصدر منشوراً بهذا المعنى بعد إسبوع تقريباً من وصوله يقول فيه إنه ((لعدم إقبال الأهالي عليه مع ما أزاله من المظالم والمغارم وإطلاق السجناء وإحراق دفاتر الأحوال المتأخرة جميعها قد يضطر لإستحضار عساكر إنكليزية لقمع الثائرين))[76].

إستراتيجة الحصار في تاريخ المهدية :

إنحصر نشاط المهدي الشخصي حتى أواخر 1883 في كردفان ، في حين أوكل لأتباعه مهمة رفع راية الثورة في أنحاء متفرقة من البلاد ، ولم يستثن منطقة أواسط السودان من هذا النشاط ، فعقد لواء قيادتها لمحمد الطيب البصير . كان تقليد المهدي هو تزويد عماله بالرسائل والمنشورات الموجهة إلى رجال القبائل والعلماء يدعوهم فيها إلى مساندته ، ويبدو أنه قد أرسل مع ودالبصير بعضاً من هذه لسكان منطقة الخرطوم . ويعود تاريخ أول رسالة لهؤلاء معروفة حالياً إلى 10 محرم 1301 (11 نوفمبر 1883) أي أنها قد كتبت بعد ستة أيام من معركة شيكان في 4 محرم [77]ومن المرجح أن يكون المهدي قد بعث لهم بعدة رسائل قبل هذا التاريخ . فهو ينبههم لهذا في الرسالة المشار إليها آنفاً . ولعل هذه الأخيرة قد إستحوذت على إهتمام خاص لإختلافها عن سابقاتها من حيث أنها أشارت صراحة إلى ضرورة إعلان الحرب على الحكومة في عاصمتها . ويستطيع القارئ أن يجد تفسيراً منطقياً لهذا الإتجاه الجديد الذي برز في نشاط المهدي ، لم يعد يدعو الناس للهجرة إليه وحسب ، بل لإلقاء حصار على الخرطوم ، تقفل به جميع المسالك ، ويمارس بواسطته ضغطاً على السكان حتى يستسلموا ويهلكوا بداخلها جوعاً . جاء هذا النداء بعد إندحار جيش هكس باشا أمام الأنصار ، وهي هزيمة أمنت له السيطرة على السودان الغربي برمته . كما كان ذلك الجيش يختلف في عدة نواح عن الجيوش التي سبق للمهدي أن سحقها .

فهذه قوة أرسلت خصيصاً من مصر بغرض القضاء نهائياً على الثورة ، فهزيمتها

---

(76) أحمد العوام ، ص 55.

(77) المهدي إلى فلان وفلان من أهالي الخرطوم 10 محرم 1301 فيوضات جـ 79/3 .

تعنـي مقـدرة المهـدي الفائقـة عـلى دحـر الجيـوش التـي تنظمهـا حكومـة الخديـوي نفسـها، بالإضافـة إلى هـذا فلقـد جلـس عـلى قمـة القيـادة مجموعـة الضبـاط البريطانيـين الذيـن تلقـوا تعليـماً وتدريبـاً عسـكرياً منتظـماً [78] وكان مـن الطبيعـي أن تتضاعـف ثقـة المهـدي في نفسـه وأتباعـه بعـد هـذا الإنتصـار ، وبـدأ تفكـيره ينفتـح جديـاً عـلى السـيطرة الكليـة .

ومـن ناحيـة أخـرى فقـد إهتـزت بعـد شـيكان الصـورة التـي عرفت بهـا مـصر وبريطانيا كمثـال للقـوة والجـبروت ، وإذا كان هـذا هـو الحـال بالنسـبة للدولتـين الكبيرتـين ، فـلا بـد أن تكـون هيبـة حكومـة الخرطـوم قـد زالـت تمامـاً . ولم تعـد هـي تلـك الحكومـة المهابـة التـي كان جنـدي واحـد مـن جنودهـا ((يرهـب رهطـاً مـن الأهلـين)) ولقـد كان في هـذا تهيئـة نفسـية مـن الدرجـة الأولى للمهـدي ليقـود حملتـه الختاميـة .

ولقـد صحـب تلـك التهيئـة النفسـية إطمئنـان لموقفـه العسـكري ، فـإذا كانـت حاميـة الخرطـوم سـتدافع عـن نفسـها بالأسـلحة الناريـة فقـد غنـم المهـدي مـن جيـش هكـس باشـا الكثـير مـن تلـك الأسـلحة .

كانـت أمـام المهـدي وسـيلتان للسـيطرة عـلى الخرطـوم ، أولاهـما حشـد كل قواتـه في المنطقـة والإنقضـاض عـلى الحاميـة في هجـوم مبـاشر ، والثانيـة إلقـاء حصـار حـول المدينـة وممارسـة حـرب إسـتنزاف بطيئـة يفقـد غـوردون خلالهـا أعـداداً مـن قواتـه المحاربـة وعتاده ومؤنـه، ويضطـر في النهايـة إمـا إلى التسـليم أو إلى الدفـاع الشـكلي . ويبـدو أن المهـدي قـد عـزم منـذ البدايـة عـلى إنتهـاج الطريـق الثـاني ، كـما كشـفت رسـالته المؤرخـة 10 محـرم 1301هــ . ولعلـه إسـتند في قـراره عـلى تجاربـه السـابقة ، فلـم تـزل محاولـة الهجوم الفاشـل الـذي شـنه عـلى الأبيـض ماثلـة في الأذهـان ، في حـين كانـت حصيلتـه وافـرة مـن الإنتصـارات التـي تمـت عـن طريـق الحصـار .

ارتكـزت خطـة الحصـار – كـما مارسـها الأنصـار – في مواقـع كثـيرة في الغـرب عـلى قاعدتـين . الأولى عـزل الموقـع المحـاصر عـن العـالم الخارجـي بصـورة تامـة ، بحيـث يسـتحيل عـلى حكامـه إيفـاد أي مبعوثـين لطلـب الإنقـاذ مـن مراكـز أخـرى ، كـما يسـتحيل عـلى أيـة قـوة آتيـة مـن الخـارج الوصـول إليـه دون أن تتعـرض هـي نفسـها لهجـوم عنيـف قـد تقاومـه وتمنـى بالهزيمـة أو تؤثـر التسـليم بـلا إراقـة دمـاء . أمـا القاعـدة الثانيـة فهـي الرقابـة المشـددة عـلى دخـول أي مـواد غذائيـة للمحاصريـن ، حتـى يجـبروا عـلى إسـتهلاك مخزونهـم ، ومـع الأيـام تنخفـض مقـدرة الجنـدي عـلى القتـال وتنهـار معنوياتهـم ، وحينـما

---

(78) كان مـع هكـس باشـا مـن البريطانيـين : الميجـور مارتـن ، الميجـور فارقـوار ، كابـتن مـاس ، كابـتن دارنـر ، كابـتن أفانـس.
– محمـد عبدالرحيـم ، ص 134-5.

يوجـه الأنصـار ضربتهـم فأمـا أن يرفـع المدافعـون الرايـة البيضـاء أو يواجهوهـم بمقاومـة هزيلـة لا تشـكل بـأي مقيـاس خطـراً عـلى المهاجمـين .

يكشـف تاريـخ فتوحـات المهـدي في الغـرب أن أول تجربـة للحصـار قـد نفـذت بنجـاح في موقعـة البركـة في مايـو 1882 ، عندمـا بعـث المهـدي بعبداللـه ودالنـور لإسـتنفار قبائـل الحمـر ، والبديريـة ، والحوازمـة ، لفـرض ذلـك الحصـار [79] ثـم أعقبـه حصـار الطيـارة في شرق كردفـان بقيـادة المنـا إسـماعيل ، وجنـد لـه بنـي قومـه مـن الجوامعـة ، فـدام مـن 2 يوليـو إلى 6 أغسـطس 1882.

ولعـل تجربـة الهجـوم المبـاشر الـذي شـنه رحمـة محمـد منوفـل عـلى بـارا في 24 يوليـو وصدهـا لذلـك الهجـوم قـد أقنعـت النصـار أكـثر بإيجابيـة سياسـة الحصـار ، فشرعـوا في محاصرتهـا بإحـكام وتمكنـوا مـن قفـل جميـع الـدروب المؤديـة إليهـا ، وبعـد صمـود دام خمسـة أشـهر اضطـرت بـارا للتسـليم لنفـاد موادهـا الغذائيـة .

ولقـد جـاء حصـار الأبيـض في منتصـف 1882 ليزيـد مـن تجـارب المهـدي في هـذا الميـدان، تلـك التجـارب التـي كان لهـا أبلـغ الأثـر في كيفيـة التصـدي لحاميـة الخرطـوم فيـما بعـد والإسـتيلاء عـلى المدينـة .

تعـود صلـة المهـدي بالأبيـض إلى مـا قبـل الجهـر بدعوتـه ، فقـد درج عـلى زيارتهـا بإنتظـام ، ووطـد علاقتـه بأصحـاب النفـوذ فيهـا مـن الأعيـان ورجـال الديـن ، وكان ينـشر بينهـم تعاليمـه الداعيـة إلى العـودة لحيـاة فجـر الإسـلام بمـا فيهـا مـن نقـاء في الـروح وصفـاء السـيرة والسريـرة .

ويبـدو أن تفكـير المهـدي قـد إنحـصر في تلـك الآونـة في غـرب السـودان - الـذي تمثـل الأبيـض قلبـه النابـض - كهـدف مرحـلي لدعوته . عرفـت المدينـة بعراقتها في الميـدان التجاري ، فاهتمـت بهـا الحكومـة التركيـة عنـد الفتـح وجعلتهـا مركـزاً إداريـاً هامـاً شـيدت فيـه دار للمديريـة، وثكنـات للجيـش ، وفتحـت مدرسـة إبتدائيـة ، وأقامـت مستشـفى ، وقـد قـدر عـدد سـكانها بحـوالي خمسـين ألفـاً ، بينهـم أعـداد كبـيرة مـن التجـار الجعليـين والدناقلـة والمحـس ، الذيـن أقامـوا بهـا بصفـة دائمـة جنبـاً إلى جنـب مـع قبائـل تلـك الجهـات ، كـما عـرف بـين سـاكنيها تجـار مـن الهنـد والشـام ودول أوروبـا [80] .

ولم يكـن خافيـاً عـلى المهـدي أن إسـتيلائه عـلى الأبيـض سـيكون قفـزة كبـيرة بالدعـوة، فمهـد طريقـه بالزيـارات المتكـررة لأهلهـا ووطـد علاقاتـه بالتجـار والأعيـان أمثـال أولاد

---

(79) MacMichael, *The Tribes of Northern and Central Kordofan,* p. 37.

(80) يوسف ميخائيل ، ص ٤٢ .

محمدين العريق ، وأولاد عربي ، والفكي مكاوي الركابي ، وولد أبو صفيه ، والياس باشا أم برير ، وبانقا الرازقي ، وحاج خالد العمرابي . ويبدو أنه قد ترك إنطباعاً حسناً في المدينة ، فقد أخذوا بعلمه وتواضعه وطلاقة لسانه .

لم يتجه تفكير المهدي نحو الخرطوم في ذلك الوقت ، ولم تشر الوثائق إلى أنه قد أقام أي صلات مع أهلها ، ولعله لم يفعل كي لا يقدم نفسه فريسة سهلة للحكومة وهو أعزل من المؤيدين . فاختار مكاناً بمنأى عنها حتى تتسنى له فرصة تكوين جبهة جماهيرية عريضة، تملك المقدرة للتصدي لأي هجوم قد تدبره الحكومة .

ولم تقتصر إتصالاته على الأبيض فحسب ، بل نشط أتباعه في الطواف على كل أجزاء المديرية ، فانتشرت خطاباته بين القبائل ، وكسب تأييد زعماء الحمر والجوامعه، الذين شكلوا رأس الرمح لقواته وأحرزوا جملة إنتصارات فتحت له الطريق نحو الأبيض . وقد استخدم نفس الأسلوب قبل إنطلاقه صوب الخرطوم فلعب الشيخ العبيد ود بدر ، والشيخ مصطفى الأمين ، أدوار مماثلة لتلك التي قام بها المنا إسماعيل ورحمة منوفل .

أحدثت إنتصارات المهدي في البركه والطياره رد فعل في الأبيض يشبه الذي أحدثته معركة شيكان في الخرطوم . فانقسم السكان إلى فريقين فريق التجار الأجانب ، والجعليين ، والدناقلة ، والمحس الذين إنتابتهم موجة من الذعر هاجروا على إثرها إلى الخرطوم . ثم فريق الأهالي أمثال الياس باشا أم برير ، وبانقا الرازقي ، وحاج خالد العمرابي ، ومحمد بن العريق ، وود سوار الدهب الذي قرر الإنضمام للمهدي .

وسارع محمد باشا سعيد ، مدير الأبيض ، إلى تحصين المدينة بحفر خندق حولها ، شيد عليه الأبراج ووضع عساكره على طوله ، إلا أنه جوبه بقلة الإمكانات البشرية ، إذ إتضح أن خط النار بحاجة إلى 20ر000 رجل تقريباً لحمايته في حين لم تتعد قوته 4000 رجل ، بالإضافة إلى أن الخندق لم يكن بالعمق ولا بالعرض الذي يشكل تخطيه عقبة في وجه المهاجمين .

فقرر المسؤولون وفقاً لذلك حصر الاستحكامات حول المكاتب الحكومية ، والمديرية ، والثكنات ، ومنازل الموظفين ، والتجار السوريين والإغريق الذين بقوا في المدينة.

وكان اتجاه محمد باشا سعيد هو الاستعداد لمقاومة المهدي بالقوة إلا أنه بذل في ذات الوقت محاولة لصده سلمياً حين استصدر فتوى رجال الدين تدحض دعوة المهدي . ولقد حاول غوردون إستخدام نفس الأسلوب فيما بعد .

ويبدو أن هذه الفتوى قد بلغت مسامع المهدي فأشار إليها في إحدى رسائله

بقولـه ((..... ولا تفـتروا بالخطـب التـي ألفهـا في ذمنـا وتكذيبنـا علـماء السـوء كأحمـد بـن إسـماعيل الـولي ... فهـؤلاء ممـن أدخـل في قلوبهـم النفـاق بحـب المـال والجـاه ...))[81]

مهـد المنـا إسـماعيل ، وعبداللـه النـور ، الطريـق للمهـدي ليسـتولى عـلى الأبيـض كـما سـبق أن ذكـر .

فوصـل بجيوشـه إلى منهـل كابـا آتيـاً مـن قديـر في 17 شـوال 1299، (1 سـبتمبر 1882) وبـدا جليـاً بأنـه سـيوجه ضربتـه القادمـة للأبيـض .

وحسـب التقليـد الـذي درج عليـه حينئـذ في معاركـه ، والتـزم بـه فيـما بعـد فقـد أوفـد مبعوثـين ، هـما جابـر ود جـلي الزيـادابي ، ومحمـد المغـربي يحمـلان رسـالة لمحمـد باشـا سـعيد وأخـرى لأعيـان المدينـة . ومـن المرجـح أن المهـدي لم يكـن قـد قـرر بعـد الكيفيـة التـي سيسـتولى بهـا عـلى الأبيـض ، بـل كان في إنتظـار رد الفعـل لرسـائله .

ورغـم أن المحتـوى الحـرفي لهـذه الرسـائل غـير معـروف ، يبـدو أنهـا كانـت تحمـل نـداء للتسـليم . لم يكـن المهـدي قـد قـرر مهاجمـة الحاميـة ، ولعلـه لم يكـن ليفعـل لـولا اسـتفزازه بإعـدام الرسـولين شـنقاً . ولم تكـد تمـضي ثلاثـة أيـام عـلى الحـادث حتـى إنقـض رجالـه عـلى الأبيـض في معركـة كان تفوقهـم العـددي فيهـا واضحـاً ، فوصفهـا أحـد شـهود العيـان بقولـه: ((كانـت جيـوش المهـدي دافقـة لهـا صـوت الخاويـة ، هجـوا علينـا وصبرنـا عليهـم حتـى قربـوا علينـا وضربـت الأربـع أربـاع القيقـر دفعـة واحـدة ، وأنصبـت عليهـم نـيران الحـرب مـن المدافـع والصواريـخ وسـلاح الرمنغتـون ونحـن جميعـاً عـلى قـدم واقفـين صفـوف صفـوف ، الكتـف عـلى الكتـف ، وقـد أعطانـا القديـر السـبات والصـبر عـلى البـلا النـازل مـن السـما ، حتـى أنـا قتلنـا منهـم المايـة والألـوف ومـا زالـوا نازلـين علينـا بـلا خـوف وجاوبناهـم بالرصـاص [82].

ولم تنتـه تلـك المعركـة بهزيمـة المهـدي ، بـل باسـتيعابه درسـاً كان ذا فائـدة عظيمـة لـه في معركـة الخرطـوم فيـما بعـد . لقـد تأكـد لـه أن ثمـة صعوبـة حقيقيـة في إنـزال الهزيمـة بجنـود الحكومـة الذيـن يحسـنون الرمايـة بالأسـلحة الناريـة مـن خلـف حصونهـم المنيعـة . ولم تفلـح كل تلـك الجمـوع المؤلفـة المسـلحة بالحـراب والسـيوف في دحـر حفنـة ضئيلـة مـن العسـاكر النظاميـين. فقـرر المهـدي لتـوه إيفـاد الرسـل لإحضـار الأسـلحة الناريـة التـي غنمهـا مـن راشـد أيمـن ويوسـف الشـلالي ، وتركهـا في جبـل قديـر تحـت حراسـة محمـود عبدالقـادر .

(81) المهـدي إلى قاطبـة العلـماء والتجـار والفقـراء والمسـاكين القاطنـين بمدينـة الأبيـض ، ذو القعـدة 1299 – إنـذارات ب ، ص 38-45 .

(82) يوسف ميخائيل ، ص 50 .

وحال وصولها تم تكوين فرقة قوامها الأسرى من الجهادية السود المدربينعلى إستخدام تلك الأسلحة ، وأوكل أمر قيادتها لحمدان أبي عنجة ، الذي حفل تاريخه بالقتال مع جيش الزبير باشا وإبنه سليمان . وكان واضحاً أن المهدي يسعى إلى خلق فرقة على نمط قوات الحكومة ، فأتى بالرجال الذين تلقوا شيئاً من التدريب العسكري والخبرة الحربية حتى يكونوا عضداً لأولئك الذين يحاربون بالسيوف والحماس الدافق ، وهي أسلحة برهنت الأحداث أنها وحدها لا تكفي .

ولقد إزداد المهدي يقيناً بعد المعركة بأن دفع قواته في هجوم مباشر حتى ولو كان بالأسلحة النارية قد يفقده الكثير وأن سياسة الحصار هي الأكثر ملاءمة ، فاستقر رايه عليها.

فوجه بعد يومين من المعركة نداء آخراً لسكان الأبيض يدعوهم فيه إلى مراجعة موقفهم وموافاته خارج الخندق ، ويلاحظ هنا أنه يخاطب العلماء ، والتجار ، والعمد ، والفقراء ، والمساكين ، وقد استثنى الحكام عن قصد ، فلقد سبق أن خاطبهم فردوا عليه بقتل رسله .

ولم تكن فكرة توجيه الإنذارات مستحدثة هنا ، فقد درج عليها منذ معاركه الأولى ، وواظب عليها حتى سقطت الخرطوم . كما أن محتوى تلك الرسائل لا يختلف في جوهره من رسالة لأخرى . فهو يستعمل أسلوب الترغيب حتى يحصل على تأييدهم فيقول ((إني قد كاتبتكم لظن الخير فيكم وأعلمتكم بالحقيقة التي لا كذب فيها . ولست فيها بمتحيل ولا متصنع وإنما هو الحق الصدق الآتي من الله ورسوله ومعلوم أنه لا يكذب على الله ورسوله إلا من لا أخلاق له عند الله تعالى ، ومن يعلم علم اليقين أن متاع الدنيا قليل لا يزن عند الله جناح بعوضة لا يؤثره على ما عند الله تعالى ، ولو آثره عليه لزال كأن لم يكن ، وأعقب عليه حسرة لا آخر لها ، فلا يؤثر جاه الدنيا على التقوى والإقتداء بالأنبياء والأصفياء إلا من لا عقل له ، وأني عبد مسكين لا طاقة لي بقوام أدنى شيء ، فلولا أني على نور من الله وتأييد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدرت على شيء ولا ساغ لي أن أحكي بشيء ...))[83]وقد حذرهم من الإستماع لأراجيف الحكام فهؤلاء هم الظالمون الذين قال الله فيها (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) والمصيبة إذا جاءت تعم .

وهو يحثهم على التسليم بقوله ((فإن إتبعتم وسلمتم الأمر لنا في الله ورسوله

---

(83) المهدي إلى قاطبة العلماء والتجار والعمد والفقراء والمساكين 26 شوال 1299 (10 سبتمبر 1882) إنذارات ب ص 38-44.

فاتركوا جميع أولادكم وعائلتكم وأخرجوا لملاقاتنا خارج البندر من غير سلاح ، وكونوا من جملة الأنصار ، فمن فعل ذلك فقد أحرز نفسه وماله وعليه أمان الله ورسوله ويكون له ما تركه من الأموال والأولاد وإن لم تفعلوا ما ذكر فقد توكلنا على الله وحضرنا لجهادكم جهاداً لتبديد شملكم وخراب دياركم)) .

بقي المهدي ثلاثة أيام في إنتظار إستجابة الأهالي لتلك الرسالة ، ثم أعلن بعدها قراره بمحاصرة المدينة ((بأمر من سيد الوجود)) حتى يستسلم أهلها أو يهلكوا بداخلها جوعاً . وهو إنما يسير بهذا وفق الخطة التي طبقها بنجاح في مواقع متفرقة من أنحاء كردفان وربما كان ينوي تنفيذها في الأبيض . ولكن مقتل مبعوثيه كان داعية للإنتقام السريع . فقرر أن يستولي على المدينة في هجوم مباشر . أما القول بأنه حاصر الأبيض بناء على نصيحة الياس باشا أم برير وبعض أهل الأبيض ففيه شيء من المبالغة [84] فهو ينفذ خطا عسكرياً غير مستحدث هنا ولا يخرج عن نطاق ما درج عليه سابقاً .

ولقد قام 40ر000 رجلاً تقريباً بينهم 5 ألف من الفرسان بإلقاء الحصار بعد ذلك مباشرة – أي قبل نهاية شوال 1299 ، (سبتمبر 1882) . وطبق المهدي خطة خلق معسكرات حو ل المدينة تماماً كما فعل بالنسبة للخرطوم فيما بعد .

قاد المنا إسماعيل حوالي 10ر000 محارباً ، وعسكر من جهة الشمالي الغربي ، وامتد خط القوات جنوباً حتى بقي المهدي في نهايته من الجنوب الغربي [85] ورغم أن رقابة دقيقة قد فرضت على مداخل المدينة حتى لا تتسرب إليها المواد الغذائية . إلا أن المحاصرين تمكنوا في بادئ الأمر من سلب بعض الماشية من أصحابها ، أثناء مرورهم بأطراف المدينة . وقد فطن الأنصار إلى هذا فوجهوا الأعراب بإتخاذ طريق يمر في وسط معسكراتهم ويجنبهم بالتالي قناصة الحامية .

ويبدو أن بعض الأنصار قد حاولوا إدخال المواد الغذائية سراً للمدينة بهدف بيعها باسعار مرتفعة ، فأصدر المهدي منشوراً حذر فيه من إنزال عقوبة قصوى على كل من تثبت عليه التهمة .

وقد نفذ بالفعل حكماً بقطع أيدي بعض الأعراب لأنهم تجاهلوا هذا المنشور[86].

لم تكن قوات المهدي ترابط خارج الخندق مغلولة الأيدي بل كانت تسعى لاستنزاف

---

(84) Guzzi, p. 34

(85) Ohrawlder, p. 39.

(86) إسماعيل بن عبدالقادر ، ص 215 .

قوة الحامية البشرية بالمناوشات والاشتباكات الصغيرة ، وذلك هو الأسلوب نفسه الذي اتبع من بعد في حصار الخرطوم . وقد تمكن الأنصار عند حصار الأبيض من احتلال المنازل التي أخلاها أصحابها وصاروا يطلقون قذائفهم في عمق دائرة الاستحكامات حتى أن قذيفة منها أصابت أحد القومندانات أمام باب دار المديرية نفسها .

وكان لابد أن يتقلص مخزون الحكومة من المؤن ، فرأى محمد باشا سعيد وضع خطة تساعد على الأقل في تأجيل حدوث الأزمة ، ويلاحظ أن غوردون قد نفذ ذات الأجراء عندما واجهته المشكلة ذاتها في الخرطوم فيما بعد . جمع محمد باشا كل الذرة من التجار واشتراها بالسعر الجاري ، على أن يتم الدفع بعد رفع الحصار [87]. وكان من أبرز ردود الفعل التي أحدثها الحصار في المدينة هو ارتفاع أسعار الذرة بشكل غير مألوف ((الربع من بعد ما كان بعشرة ريال صار بثلاثين ريالاً، وثاني يصبح بخمسين ريالاً ، وعلى هذا الحال في الشهر الخامس حصل مائتين ريالاً ، وفي السادس مائتين وخمسين لغاية ما بلغ ثلثمائة وخمسة وعشرون ريالاً))[88] . ثم تعذر الحصول على الذرة حتى بهذا السعر المرتفع ، فلم يعد أمام السكان سوى ((الهجليج والشجر وقش الرجلة الناشفة والصمغ وأولاد القرض)) ولم يصمد الكثيرون إزاء هذا الحال فبدأو يتسللون خارج الخندق ليلاً وكان بعضهم يقوم برشوة الحراس حتى يغضوا الطرف عنهم [89].

نجح الأنصار في عزل المدينة كلية عن العالم الخارجي ، وإن لم يكن في الإمكان إرسال أية مكاتبات من الأبيض وإليها . أما القوة التي أرسلت من الخرطوم قد إضطر قائدها إلى التسليم ، فلم تكن ثمة وسيلة للوصول إلى هدفه ، إذ أن مقاومة ذلك الجيش كانت بمثابة الهلاك المحتم .

ولا بد أن تكون حالة المدينة قد تركت بصماتها على أجساد أولئك الذين درجوا على التسلل ليلاً . ولا بد أن يكون بعضهم قد نقل الصورة بحذافيرها إلى المهدي ، فما كان منه إلا أن مارس مزيداً من الضغط في مجال الرقابة والنشاط العسكري . حتى تم له ما توقعه وخطط له طوال أربعة أشهر .

ولقد جاء استيلاء المهدي على الأبيض ليؤمن سيطرته التامة على السودان الغربي، فقد إنهارت مواقع الحكومة في دارفور تباعاً ، وأصبحت سلطة الحكم التركي في بحر الغزال كذلك آيلة للزوال .

---

(87) يوسف ميخائيل ، ص 57 .

(88) يوسف ميخائيل ، ص 56 .

(89) إسماعيل بن عبدالقادر ، ص 216 .

ولقد احتل سقوط الخرطوم مكاناً مماثلاً ، فبعده أكتملت سيطرة المهدي على السودان الشمالي . وكان لا بد أن تنهار المقاومة الحكومية في كل من كسلا والنيل الأزرق.

التمهيد للإستيلاء على الخرطوم:

جاءت معركة شيكان لتضاعف من ثقة المهدي في نفسه ، فها هو ((بطل الإنجليز وفارسهم الذي كان يخشاه بعض من كان ليس له إيمان ها هو مطروح في الميدان ....)) . فبدأ يخطط من توه للسيطرة على الخرطوم كما نقل أحد الرواة قولته ((الحمد لله تعالى أن كافة الترك الذين بكردفان والذين في الغرب سلموا لنا – إننا قتلنا مديرية كردفان وجهاتها ، وجردت هكس العظيمة وليس فاضل لنا إلا غوردون وفتح الخرطوم.. [90])) .

شرع المهدي في تمهيد طريقه نحو العاصمة بإجراء اتصالات مع أهالي المنطقة ، فجاءت الرسالة المشار إليها بتاريخ 10 محرم 1301هـ . وكانت هذه منشوراً عاماً ، فعززها بإجراء اتصالات شخصية مع رجال القبائل وعلماء الدين . فكتب لمميز علماء السودان محمد الأمين الضرير خطاباً رغم أنه يحمل تاريخاً لاحقاً لذاك المنشور ، إلا أنه لم يكن أول مكتوب يبعث به المهدي إليه . إذ جاء فيه قوله ((وإني قد عددت وكررت لك الإنذارات والمواعظ التي تشهد حقيقتك بها ، وخاطبتك سابقاً قبل كل الناس وخصصتك بالحقيقة التي لا بعدها وندبتك للإجابة لداعي الله فلم تجب دعوتي ، ونظرت إلى الثقل والعلايق المعوقة القاطعة عن الله لحسن ظني فيك ومحبتي لك في الله وإرادتي لك البر والخير الدايم والنعيم السرمدي والملك الكبير عند الله لم أيأس عن مخاطبتك ولم أتوقف عن دعوتك ..))[91] ويلاحظ هنا أن المهدي لم يطلب من محمد الأمين الجهر بعداوة الحكومة وإعلان نفسه عاملاً له هناك كما هي عادته ، بل يطلب من أن يهاجر إليه ((فلم نرض عليك إلا بالهجرة فقط دون أمر آخر)) .

---

(90) يوسف ميخائيل ، ص 64 66- .

هاجم المهدي ((الترك)) في منشوراته منذ بداية الدعوة بوصفهم الحكام الذين شوهوا وجه الإسلام لإنشغالهم بملذات الدنيا وأهوائها . ولا يبدو واضحاً إذا كانت التسمية تشمل المصريين أيضاً . فقد درج أهل السودان على مناداة كل من هو أجنبي ((بالتركي)) حتى أنهم سموا الفترة التي سيطر خلالها الإنجليز على السودان بالتركية الحاضرة ، قياساً على التركية السابقة للمهدية . وبعد مجئ هكس باشا وغوردون أيقن المهدي أن الإنجليز وراء محاولات قمعه فبدأت تظهر – خاصة في رسائل قادته – محاولات لاستمالة الأتراك المسلمين لصفهم ضد النصارى من الإنجليز الذين استولوا فعلياً على مصر نفسها . (ملاحق حـ - ط – ي – ز) .

(91) المهدي إلى محمد الأمين – ربيع آخر 1301 ، إنذارات ص ب 94 – 8 .

ولعلـه قـد فعـل هـذا لتشـككه في إمكانيـة فتـح جبهـة لـه في عقـر دار الحكومـة . ولم يكـن أهـل الخرطـوم قـد كشـفوا عـن بـادرة تاييـد لـه بعـد ، ولعـل هـذا يعـود إلى عـدة عوامـل . فـلا بـد أن بعـض الأهـالي قـد ابتهجـوا عنـد سـماع أنبـاء إنتصـارات المهـدي في الغـرب ، إلا أنهـم لم يجـرأوا عـلى إعـلان هـذا خوفـاً مـن بطـش الحكومـة وهـي عـلى قـاب قوسـين منهـم . ولقـد كان سـكان الخرطـوم – بحكـم ظروفهـم – أقـل أهل السـودان حماسـة لتنصيـب المهـدي حاكـماً عـلى البـلاد. فقـد نعـم هـؤلاء بمجـيء الحكومـة التركيـة ، فتوفـرت لهـم بعـض سـبل الحيـاة الرغـدة ، ووجـد بعضهـم الفرصـة لـكي يعمـل في دواويـن الحكومـة أو بـين قواتهـا المسـلحة . وهـم في ذات الوقـت لم يتعرضـوا لبطـش جامعـي الضرائـب الذيـن كانـوا يتصيـدون ضحاياهـم في الغالـب الأعـم بعيـداً عـن أعـين السـلطة المركزيـة . فلـم تكـن الخرطـوم تعكـس صـورة فسـاد الحكـم الـتركي كـما تعكسـها الأقاليـم . ومـن هنـا جـاءت إسـتجابتهم لدعـوة الثـورة فاتـرة مـترددة ، ولم يكـن بينهـم مـن يـرى ضرورة إحـداث تغيـير سـياسي في البـلاد . ولهـذا فقـد أراد المهـدي أن يجمـع أنصـاره حـول معسـكره بعيـداً عـن مقـر الحكومـة قبـل أن يقـرر مهاجمتهـا .

ولقـد اتصـل المهـدي ببعـض الأعيـان القاطنـين في القـرى المنتـشرة حـول المدينـة ليبادروا في إثـارة القلاقـل في وجـه الحكومـة قبـل وصولـه إليهـم ، فكتـب عـدة خطابـات للشـيخ العبيـد ود بـدر، في أم ضبـان ، وأبنائـه وبعـض جيرانـه [92].

ويلاحـظ أن أهـالي تلـك القـرى قـد تحفظـوا في إبـداء رايهـم في الأحـداث الجاريـة حتـى أوائـل 1884 . ربمـا كان مـرد هـذا المصلحـة المشـتركة التـي تربطهـم بالخرطـوم وسـكانها . فقـد عرفـت مناطـق الجريـف والحلفايـة بازدهـار منتجاتهـا الزراعيـة والتـي كانـت العاصمة مجـالاً رئيسـياً لتسـويقها . فقيـام أهلهـا بالدعـوة ضـد الحكـم الـتركي تثـير مـن الاضطرابـات مـا يتعـذر معـه كسـب رزقهـم الأسـاسي . فظلـوا عـلى الحيـاد حتـى كشـفت لهـم الأحـداث أن حكومـة الخرطـوم قـد أصبحـت مهـددة بالـزوال .

لم يـشر المهـدي – صراحـة – في أولى خطاباتـه ، للشـيخ العبيـد إلى ضرورة العمـل المبـاشر ضـد الخرطـوم بـل يقـول ((... وبوصـول جـوابي هـذا إليـك أجمـع همـك في اللـه وأرسـل لجميـع أتباعـك وأحبابـك وأهلـك وعشـيرتك في اللـه وجاهـر في معـاداة الكفـرة ، وأقطـع السـكك ، وبـارز بالعـداوة ظاهـراً وباطنـاً وبالقتـل والأسر والربـاط والحصـار ، ولا تتوقـف أبـداً لأمـر مـا إن كنـت ممتثـلاً مصدقـاً بمهديتنـا ولا تبـالي حكـم مـا فعـل محمـد الطيـب ود

(92) الشيخ العبيد ود بدر (عرف أيضاً بود ريا) (1810-84) ينتمي إلى الإبراهيماب أحد بطون قبيلة المسلمية . من مشايخ الطريقة القادرية فرع تاج الدين البهاري . اشتهر بالتقوى والصلاح ، فتقاطر عليه الناس أفواجاً من مختلف أرجاء البلاد ، وقد أصبحت خلوته التي أسسها في قرية أم ضبان أكبر مركز لتحفيظ القرآن في منطقة الخرطوم .

البصير وإن خشيت فانضم إليه وهاجر من محلك الذي أنت فيه واتحد معه كيد واحدة))[93].

وعندما تأكد للمهدي أن نفوذه في المنطقة قد توطد واشتد عوده كتب مرة أخرى للشيخ العبيد مشيراً له بوجوب القاء الحصار على الخرطوم ((.. فإذا بلغك جوابي هذا فأما أن تهاجر أنت ومن معك من الأصحاب والمحبين وما يطلب ما عند رب العالمين من غير نظر إلى علاقة ، وأما أن تحاصروا الخرطوم وتجاهدوا من اغتر بزينة الدنيا ومتاعها عن الصدق مع الحي القيوم حتى نأتيكم ولا حنا لنا عنكم إلا بهذين الأمرين فإذا فعلتم رضينا عنكم))[94].

ولم يمض وقت طويل حتى اثمرت هذه الخطابات ، إلا أن الشيخ العبيد إختار أن ينفذ الأمر الثاني ، فأعلن نفسه داعية للمهدي في نهاية فبراير 1884 .

كتب المهدي أيضاً لزعماء الشكرية ، ولعله فطن إلى نفس الحقيقة التي أخذها غوردون في الإعتبار عندما عين عوض الكريم أبي سن رئيساً لمجلس الأعيان في الخرطوم ، إذ كانت قبيلة الشكرية أكبر قبيلة تعيش في منطقة الصراع ، ولابد أن يؤثر إنحيازها لأحد الفريقين تأثيراً مباشراً وجذرياً في ميزان القوى .

دعا المهدي الشكرية إلى الأخذ بمفاهيمه التي طالما نادى بها ، وهي في الأساس ، نبذ مباهج الدنيا من مال وديار ، والإسراع للإنضمام إليه حيث كان بالغرب . ويبدو أنهم قد ردوا على رسالته معلنين تأييدهم له دون أن ينفذ أحد منهم أمر الهجرة [95] وإزاء تباطئهم هذا كتب لهم المهدي رسالة أخرى يعفيهم فيها من مهمة الهجرة ، على أن يرفعوا راية الدعوة في منطقتهم ، فجاء في تلك الرسالة قوله ((... شدوا أزركم على إقامة الدين والجهاد على أعداء الله والكافرين والخروج عن طاعتهم وتشتيت شملهم وتفريق جماعتهم وبارزوهم بالعصيان لتنالوا كمال الرضوان وقاتلوهم فإنهم مخذولون وجاهدوهم فإنكم عليهم منصورون وشمروا في ذلك عن ساعد الجد والإجتهاد)).

ويبدو أن الشكرية قد انقسموا حول هذا الأمر ، فأعلن جزء منهم تأييده للمهدي، واشترك بقيادة عبدالله عوض الكريم أبي سن في حصار فداسي في أول يناير 1884 [96].

(93) المهدي إلى العبيد بدر – قبل 4 جمادى أول 1301 (13 مارس 1884) إنذارات ب ص 137-9 .

(94) المهدي إلى العبيد بدر ، إنذارات ب 129 32- .

(95) المهدي إلى عوض الكريم أحمد أبي سن ، إنذارات ب ص 86 – 9 . ذكرت بعض المصادر أن الشكرية كتبوا تلك الرسالة فقط ليأمنوا شر البطاحين الذين درجوا على سلب ماشيتهم .

(96) بابكر بدري ، ص 28 .

بالإضافة إلى مجهودات المهدي هذه كان هناك نشاط عامله محمد الطيب ود البصير في المنطقة . فقد نجح ود البصير في تجنيد قبائل الدباسين والخوالدة للعمل على نصرة المهدي [97] ثم استولى على قرى الحلاويين ، وتقدم نحو المسلمية [98].

رد الفعل لمخطط غوردون :

يبدو أن هزيمة صالح المك لود البصير في واقعة ود مدني في 17 يناير 1884 لم تغر الأهالي بالإنفضاض من حول الأنصار . وقد حاول صالح المك أن يحمي طريق الخرطوم – سنار ، فتقدم إلى الجزيرة فداسي وحصن نفسه فيها . وأرسل في طلب المعونة العسكرية من سنار فأتته الباخرة ((محمد علي)) محملة ببعض الجند والذخيرة .

ولكن ود البصير سارع بوضع حصار على الجزيرة من الشمال ودعا عبدالله عوض الكريم أبي سن للنزول من جهة الجنوب .

وقد تمكن هؤلاء من عزل الخرطوم عن المنطقة الجنوبية بقطع أسلاك التلغراف ونزع أعمدته نهائياً ، وتاكد في ذلك الحين إنضمام كل شيوخ القبائل في القرى ما بين الخرطوم وسنار إلى المهدي ، فلم يكن بالإمكان إرسال أي فرق من الجنود أو المكاتبات جنوب العاصمة ، وقد أجبرت بعض البواخر التي كانت في طريقها إلى سنار على العودة بعد مغادرتها المدينة بوقت قصير [99] . كان بقاء الطريق إلى سنار تحت سيطرة قبائل تدين بالولاء للحكومة أمراً حيوياً للخرطوم ، إذ أنها كانت تعتمد على مزارع تلك المنطقة في الحصول على غذائها .

ولقد وضع المهدي خطته منذ أوائل عام 1884 بحيث تقوم معسكرات للأنصار في أنحاء متفرقة من المنطقة المتاخمة للمدينة ، وتبدأ نشاطها بالدخول في معارك ضيقة النطاق ضد رجال الحامية . فشن أتباع العبيد ود بدر بقيادة إبنه إبراهيم أول هجوم على عساكر الشايقية المرابطين في منطقة الحلفاية في منتصف مارس 1884 . وبعد إنزال الهزيمة بهم تمكنوا من أسر مائة وخمسين عسكرياً وغنموا بعض الأسلحة والذخيرة [100]. وقد توالت بعد ذلك هجمات تلك المجموعات على الخرطوم .

---

(97) إبراهيم فوزي ، ص 215 . محمد الطيب ود البصير ، من قبيلة الحلاويين يمت للمهدي بصلة النسب . اشتهر والده في المنطقة ، وعرف بحسن السيرة . كان محمد الطيب ود البصير من أوائل الشخصيات التي أسر لها المهدي بدعوته في ذي القعدة 1297 وفي شعبان 1298 ، أوفده لأخذ البيعة من أهالي الجزيرة . ثم شارك في حصار الخرطوم فيما بعد ، وتولى مهمة إمداد الأنصار بالغذاء . بعد سقوط المدينة عمل في الحدود الحبشية إلى أن ألقت القوات الإنجليزية القبض عليه في تلك المنطقة ، وعندما أفرج عنه عاد للجزيرة وتوفي بها 1908 .

(98) The Times, 12th January 1884.

(99) The Times, 15th January 1884.

(100) المهدي إلى محمد خالد 4 جمادي أول 1301 (3 مارس 1884) زقل 3.

كتب المهدي إلى دفع الله ، حوار الشيخ العبيد ، الذي كان يقيم بقرية القبة شمال العاصمة ليبدأ في الهجوم من ذلك الموقع ، قائلاً : ((.. بمجرد وصول جوابنا إليكم صحبة رافعه محمد الناير ، تحزبوا في الله أحزاباً أحزاباً وجهزوا مالكم واستعدوا للقتال والجهاد للكفرة بكل ما أمكنكم ، وانضموا إلى العبيد بدر بمجرد سماعكم حلولنا بالبحر الأبيض تقوموا بكامل رجالكم خفافاً وثقالاً وقابلوا الخرطوم بجهتكم التي يقال لها القبة وحاصروا أعداء الله وضيقوا عليهم فإن الله يخربهم وينصركم عليهم))[101]

ورغم أن هذه الرسالة لا تحمل تاريخاً إلا أن بعض المصادر قد ذكرت أن قافلة غوردون قد تعرضت للمناوشة من قبل الأنصار في حوالي منتصف فبراير 1884 . وربما كان هؤلاء هم أتباع دفع الله الذين إستنفرهم المهدي .

ونجح الأنصار في كسب تأييد الشيخ عبدالقادر إبراهيم ، الذي عينه عضواً في مجلس الأعيان المنوط به الإشراف على إدارة المدينة . [102] كان الشيخ عبدالقادر قد صاحب ستيورت في إحدى رحلاته التفقدية على النيل الأبيض جنوبي الخرطوم ، وقد اعترف أن شعور الأهالي قد صار عدائياً لدرجة أن اية محاولة منهم للهبوط كانت ستقابل بلا شك بإطلاق النار عليهم ، ولعل الشيخ عبدالقادر قد اقتنع بعد هذه الجولة أن معركة الحكومة خاسرة بلا ريب ، وأن نفوذ الأنصار في تصاعد ، فجمع حوالي ثلاثة الآف من أتباعه واستقر في قرية الكلاكله .

وقد أثمرت خطابات المهدي للشيخ مصطفى الأمين أم حقين بجزيرة إسلانج في إقناعه بالإنضمام إليه ، فعسكر في خورشمبات مع حوالي ألفي محارب ، كما استطاع الشيخ أحمد أبو ضفيرة أن يجمع بعض قبائل الجموعية والفتيحاب وعسكر في ديم أبي سعد جنوب أم درمان .

وأما من الجهة الشرقية فقد استنفر الشيخ المضوي عبدالرحمن المحسي أتباعه ، فاجتمع له حوالي عشرة آلاف ، أوكل أمر قيادتها لأحد أبناء الشيخ العبيد ، وقاد أبناء المحسي منهم أحمد الفريع ، والشكرية ، القدوراب ، أحمد ود عماره ، والمغاربه ، محمد عبدالسلام ، والبطاحين ، طه عبدالباقي ، والحسانية سليمان ود كاسر .

---

(101) المهدي إلى أحبابه في الله خصوصاً دفع الله تلميذ العبيد ود بدر إنذارات ب ص 139-40 .

(102) عبدالقادر إبراهيم (- 1893) من أحفاد حمد ود أم مريوم . شارك في حصار الخرطوم وبقي حتى سقوطها . أوكلت إليه بعد ذلك قيادة جيش الإنصار في شكا جنوب دارفور وقتل في إشتباك مع قبائل الدينكا .

ويبـدو أن عـمال المهـدي قـد حاولـوا اتبـاع منهجـه في مخاطبـة المعارضـين للدعـوة ، فكتـب الشـيخ المضـوي إلى غـوردون يقـول ((... بلغنـي أنـك تزعـم أن معظـم أهـل السـودان مجبـورون عـلى إتبـاع محمـد أحمـد المهـدي ، وليـس لهـم الرغبـة فيـه باطنـاً وأنـك تحـب خلاصهـم منـه ، فأعلـم أن جميـع أهـل السـودان خاصتهـم وعامتهـم قـد اتبعـوا محمـد أحمـد قلبـاً وقالبـاً ، ودليـل ذلـك بذلهـم أرواحهـم بـين يديـه في الحـروب ، وإني أنصـح لـك أن تفعـل أحـد أمريـن ، إمـا أن تسـلم للمهـدي فتسـلم بمـن معـك مـن أهـل الخرطـوم فيؤتـك اللـه أجـرك مرتـين ، أو أن ترحـل إلى بـلادك فتنجـو مـن هـذه المهالـك فإنـه لا ضـير لـك في البقـاء هنـا عـلى هـذه الحـال ، لأنـك إن بقيـت فلابـد مـن هـلاكك أنـت وجميـع رجالـك والسـلام))[103].

ولم يقتـصر نشـاط الأنصـار عـلى منطقـة الخرطـوم وحدهـا ، بـل اتسـع نطاقـه وامتـد شـمالاً فتمكنـوا مـن قطـع الإتصـال التلغـرافي ببربـر ، ولم يكـن بالإمـكان المخابـرة إلا عـن طريـق الرسـل. وقـد أرسـل كـوزي ، الـذي عينـه غـوردون حاكـماً عـلى بربـر ، رسـالة إلى بيرنج فحواهـا أن الإتصـال التلغـرافي بـين مدينتـه والخرطـوم قـد قطـع نهائيـاً ، وبعـد أيـام قلائـل كتـب حسـين باشـا خليفـة إلى نوبـار باشـا يخطـره بعـزل الخرطـوم ، وأنهـا قـد أصبحـت في حالـة حصـار بواسـطة الأنصـار الذيـن يتزايـد عددهـم حولهـا بانتظـام ، هكـذا كان الموقـف في مـارس 1884 – اي بعـد حـوالي شـهر مـن وصـول غـوردون .

كانـت المنطقـة الجنوبيـة تحـت قبضـة الأنصـار ، ومـن الشـمال قامـت معسـكراتهم مـن شـلال السـبلوقة حتـى مشـارف الخرطـوم ، واتضـح جليـاً أن أي محـاولات للاتصـال بمـصر تواجههـا صعوبـات عمليـة ، وقـد كان بيرنـج عـلى علـم بهـذا ، فنقـل إلى جرانفيـل تخوفـه مـن خطـورة عمليـة الانسـحاب . ولم يكـن لسياسـة غـوردون الإصلاحيـة أي أثـر في كسـب تأييدالأهـالي القاطنـين حـول المدينـة ، في حـين وجـد المهـدي بينهـم تعاطفـاً واسـع النطـاق لم تفلـح سياسـة المهادنـة في زعزعتـه ، كـما أن التهديـد بإسـتخدام قـوات أجنبيـة لم يـأت أكلـه ، فقـد أيقـن الأهـالي أن المهـدي يملـك المقـدرة للإنتصـار حتـى عـلى مثـل تلـك الجيـوش .

بـل إن سياسـة غـوردون لم تجـد إسـتجابة حتـى بـين الأهـالي داخـل أسـوار المدينـة ، حيـث كان المهـدي مواظبـاً عـلى اتصالـه بهـم ، فخاطـب كافـة أهـالي الخرطـوم بقولـه ((... نعرفكـم أن اللـه تعـالى غنـي عـن العبـاد يهـدي مـن يشـاء إلى طريـق الرشـاد ، ويضـل مـن يشـاء ، ومـن يهـد اللـه فهـو المهتـدي ، ومـن يضـل فلـن تجـد لـه وليـاً مرشـداً ، وقـد طالمـا

(103) نعوم شقير ، ص 777 .

تكررت منا النصائح واردنا نجاة عبادالله وسلوكهم لطريق الله ، فأناب إلى الله من أراد الله سعادته ، وخالف من خذله الله فأصمه وأعمى بصره ، فلا أدري ما الداعي لعدم الانقياد .. وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده ، وحذرتكم من وعيده ، فإلى متى الغفلة والتسويف وإلى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ، لم يأت لكم أن تميل قلوبكم إلى ما ينفعكم في آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر))[104].

كما أرسل مكتوباً آخر إلى أهالي حلة ((سلامة الباشا)) يستحثهم فيه إلى القيام لنصرة دين الحق [105]ومن الجدير بالملاحظة أنه خاطب أهالي هذا الحي بشكل خاص دون سائر الأحياء ، لأن ((سلامة الباشا)) كان موطن فقراء السكان الذين لا تربطهم مصلحة شخصية من مال أو سلطة بالحكومة ، ويقع على عاتقهم العبء الضرائبي الذي كانت تفرضه الإدارة التركية . وهم لهذا يملكون الإستعداد الطبيعي للمبادرة لتأييد المهدي . ومن هنا جاء ردهم لنداء المهدي إيجابياً ، ولعل أحمد العوام كان يعنيهم حين كتب ((لله در أهل السودان فإنه لم يتيسر لغوردون باشا ومن معه ، مع ما أجروه من الحيل السياسية والمكايدة التركية ، كحرق دفاتر متأخرات الأموال الأميرية عن السنين الماضية وتنزيل جميع الضرائب والعشور والعوائد إلى نصف قيمتها الأصلية ، وحل معاهدة الرقيق ، وبذل العطاء والإحسان إلى جميع الفقراء والمساكين أن يحول وجه واحد من الأهالي عن قبلته الوطنية ، أو يقعده عن مساعدة جيش المهدية))[106] ولم تفلح سياسة الإرهاب في إثارة الفزع وسط الأهالي، ولعلها قد أصبحت حافزاً لهم لمساندة المهدي ضد القوات الدخيلة التي سوف ترسل لإخضاع بلادهم ((فازدادت بذلك حميتهم الدينية والتهبت نيران محبتهم الوطنية ، فاغلقوا جميع المنافذ والطرق)) وقد كانت موجة الانعطاف نحو المهدي بين سكان المدينة في تصاعد ، حتى أعرب غوردون عن خشيته من مؤامرة داخل الخرطوم أكثر من تخوفه من العدو المرابط خارج الأسوار .

وقد لوحظ إنتشار هذه الموجة حتى بين الطبقة التي كان غوردون يعتمد عليها في تنفيذ سياسته ، فكان بعض معاونيه من الإداريين ، والضباط والعلماء ، يتظاهرون له بالولاء ويخططون لتقويض حكمه من وراء ظهره .

(104) المهدي إلى كافة أهالي الخرطوم ، إنذارات ب ص 255 – 6 .

(105) المهدي إلى أهالي حلة سلامة الباشا ، خصوصاً حاج حضره ومحمد عمر واخوانهم ، 1 جمادى ثان 1301 (24 مارس 1884) فيوضات 97/3 ، موقع هذا الحي هو في مكان شمبات الحالية .

(106) أحمد العوام ، ص 54 .

كان بعـض الأهـالي يبعثـون برسـائل الـولاء والتعضيـد للمهـدي بـين الفينـة والأخـرى ، وقـد اكتشـف غـوردون فيـما بعـد مكاتبـة مثـل هـذه موقعـة بخمسـة عـشر إسـماً ، بينهـا اسـماء بعـض أولئـك الذيـن عينهـم حكامـاً عـلى المدينـة .

كـما كان منهـم أحمـد بـك على جـلاب ، مديـر الخرطـوم ، والفضـل أفنـدي إبراهيـم باشـكاتب محكمـة الإسـتئناف ، ومحمـد سرور كاتـب الظبطيـه ، وأبوبكـر الجاركـوك ، وأحمد بـك دفـع اللـه ، وإدريـس النـور ، أعضـاء محكمـة الإسـتئناف . ومـن التجـار ظهـرت اسـماء إبراهيـم شـاكر، ومحمـد عبدالرحمـن البشـير وعثـمان بـك مكـوار .

ووقـع مـن الأعيـان الحـاج نـاصر أبـو حسـوس ، والخليفـة ود أربـاب ، ثـم زمزمـي بـك عـلي جـلاب ، عضـو المحكمـة الأهليـة ، ومحمـد الأمـين الضريـر شـيخ الإسـلام . وقـد بعـث الموقعـون مـع الرسـالة مبلغـاً مـن المـال مـع وعـد بالإلمـام بالأنصـار حينـما تحـين اللحظـة المناسـبة .

لم تصـادف سياسـة غـوردون إذن هـوى في نفـوس الأهـالي ، وكانـوا ((يتسـللون ليـلاً للخـروج بـكل حيلـة ، حتـى أن بعضهـم يـرشي الخفـراء الذيـن حـول الخنـدق حتـى يتغافلـوا عنهـم)).

الفصل الرابع

مشاكل الحصار

الفصل الرابع
مشاكل الحصار

أيقن غوردون بعد مضي شهر تقريباً على وصوله أن عليه أن يستعد لمعركة عسكرية إذا أراد بقاء الخرطوم تحت سيطرة حكومته ، فقد اتضح أن المخطط الإصلاحي لا يجد من التأييد ما يبشر بنجاحه ، إذ بدأت جموع الأنصار تزحف نحو الخرطوم في محاولة لفرض حصار حولها . وكان لابد أن تنجم من جراء هذا عدة مشاكل للفريقين المتنازعين ، يعتبر التصدي لها ومعالجتها عاملاً هاماً في كسب المعركة . ولعل نقطة الضعف الأساسية في موقف غوردون والتي لم يملك لها دفعاً هي أنه كان في موقف المحاصر . فلم تقتصر تلك المشاكل - التي ظهر بعضها بعد مجيئه مباشرة - على المسائل الإدارية والعسكرية الوارد ذكرها في غير هذا المكان ، بل تجاوزتها لتشمل قضايا أخرى ، منها الاتصال ، والمال ، والغذاء . وكان لا بد أن تتطور كل هذه القضايا مع تقدم الحصار حتى أصبحت تهدد المدينة تهديداً فعلياً ومباشراً .

أما الفريق الآخر فقد كان يتمتع بوضع مريح إلى حد كبير ، الأمر الذي قلل من حدة المشاكل التي كان عليه أن يواجهها .

وقد ساعده هذ بلا شك على الاحتفاظ بثقة جماهيره ودفعها إلى تصعيد عملياتها حتى تمكنت في النهاية من فرض الحل الذي تبغيه .

عزل الخرطوم :

رغم أن سكان السودان الشمالي والشرقي لم يلعبوا دوراً مباشراً في حصار الخرطوم ، إلا أنهم تمكنوا حين رفعوا راية المهدية في مناطقهم ، من عزل المدينة عزلاً يكاد يكون شاملاً عن مصر ، وبالتالي عن العالم ، فقد كانت مصر هي النافذة التي يطل منها السودان على الدنيا ، والباب الذي يأخذه إليها في تلك الأيام . وأثبت اسلوب المهدي في إستنفار الزعماء المحليين لتبني دعوته في مناطقهم فعاليته وإيجابيته في هذا المجال . ففي الوقت الذي كان أنصاره يعملون للسيطرة على منطقة جنوبي الخرطوم، كان عماله في شمال وشرق السودان يعملون بنفس القدر لقطع وسائل الإتصال بين الخرطوم والخارج . فجاء عزل الخرطوم نتيجة مباشرة للنشاط الذي قام به محمد

الخير عبدالله خوجلي ، وعثمان بن أبي أبكر دقنة . فقد كانت الطرق البرية والنهرية المؤدية إلى مصر بالإضافة إلى خط التلغراف تمر عبر أراضيهما .

تمكن غوردون خلال شهر فبراير ومارس من إستخدام الخط التلغرافي الذي يربط الخرطوم بالقاهرة عن طريق وادي حلفا ، دنقلا العرضي ، مروي ، بربر ، شندي ويمتد عبر مسافة قدرت بـ 782 ميلاً تقريباً [107] وكان بقاء هذا الخط تحت سيطرة الحكومة أمراً حيوياً بالنسبة لمهمة غوردون ، فقد جاء للسودان موفداً من قبل حكومتي مصر وبريطانيا . فاصبح لزاماً عليه إبلاغ الحكومتين بتطور الأحداث في حينها وبصورة تفصيلية . هذا هو عين ما درج عليه طوال الفترة التي ظل فيهاخط التلغراف صالحاً للإستعمال . وقد كان بيرنج ، من ناحية أخرى ، منتظماً في الرد على تساؤلات غوردون وآرائه بعد عرضها على الحكومتين المصرية والبريطانية إذن فقد كان الاتصال المنتظم السريع بالقاهرة ضرورياً حتى يتمكن غوردون من تنفيذ مهامه التي كانت تتحكم فيها ظروف خارجية متشعبة . وبمرور الزمن تضاعفت الحاجة لهذا الاتصال ، فقد أصبحت المدينة في حالة حصار ، وكان من الضروري أن يطلع أولئك الذين بعثوا به على دقائق الموقف حتى يتخذوا الإجراءات التي تتناسب وذلك الظرف .

ظل الاتصال التلغرافي بالقاهرة ممكناً إلى أن بدأت ثورة القبائل في الشمال في مطلع عام 1884 . ربما يعود احتفاظ تلك المنطقة بهدوئها حتى ذلك التاريخ إلى بعدها عن قلب الثورة في أقاصي الغرب ، كما أن علائقها التجارية مع مصر ، والحكومة القائمة آنذاك في الخرطوم جعلت أهلها يترددون في إتخاذ موقف إيجابي مبكر من المهدي . إلا ان هذا الهدوء لم يقدر له أن يدوم طويلاً ، إذ سرعان ما لاحت بوادر الثورة في الأفق . ويمكن تأريخ بداية هذه المرحلة بعودة أحمد حمزة السعدابي ، أحد مشايخ الجعليين ، وهو من بيت الملك نمر ، من عند المهدي في أول عام 1884 . وقد توافق وصول غوردون إلى بربر مع ذلك الحدث ، إلا أن هذا لم يقف عائقاً في سبيل انضمام رجال القبائل إلى السعدابي ، بل على العكس ، ساعد انتشار محتويات فرمان الإخلاء في دفع عجلة الأنصار أميالاً إلى الأمام . فقد دفع كثير من المترددين ومؤيدي الحكومة إلى تحديد موقفهم ، إذ تأكد لهم أن لا مناص من سيطرة المهدي على البلاد .

ومن ثم بدأت معسكرات الأنصار ي الانتشار شمالاً وجنوباً من بربر منذ أواخر

---

(107) Leverson, “Insurrection of the False Prophet”.

مـارس 1884 ، فشـمل نشـاطهم كل المنطقـة الواقعـة مـا بـين شـندي وبربـر ، حتـى أنهـم في حـوالي 25 منـه تمكنـوا مـن قطـع الإتصـال التلغـرافي بـين المدينتـين ، في حـين أن الخـط التلغـرافي بـين الخرطـوم وشـندي كان معطـلاً منـذ 12 مـارس ، بعـد ثـورة القبائـل شـمالي العاصمـة ، ورغـم أن الاتصـال بـين بربـر ومـصر ظـل مفتوحـاً بعـض الوقـت إلا أنـه كان مهـدداً بالانقطـاع في أي لحظـة بعـد 18 أبريـل . وكانـت سـيطرة الأنصـار شـبه شـاملة عـلى كل المنطقـة الواقعـة شـمال بربـر ، حتـى أن بعـض المسـافرين إلى القاهـرة قـد وقعـوا في قبضتهـم بعـد مسـيرة يـوم واحـد منهـا .

إذن فقـد واجـه غـوردون مشـكلة الاتصـال بالقاهـرة ، وهـو لم يكمـل شـهره الأول في الخرطـوم بعـد . ولم تكـن هنـاك ايـة بـادرة تشـير إلى أن الوضـع قـد يتطـور في مصلحتـه ، بـل عـلى النقيـض مـن هـذا ؛ بـدأت جمـوع الأنصـار تزحـف نحـو بربـر لتسـيطر عـلى تلـك المدينـة ذات الأهميـة البالغـة بالنسـبة للخرطـوم .

ظـل محمـد الخـير عبداللـه خوجـلي في بربـر يـوازن بـين الحكومـة مـن جهـة وتلميـذه السـابق مـن جهـة أخـرى لفـترة طويلـة رغـم أن المهـدي كان قـد أسر لـه بدعوتـه في عـدة مكاتبـات شـخصية . وفي فبرايـر 1884 قـرر حسـم موقفـه بالهجـرة إلى المهـدي حتـى يقـف عـلى حقيقـة الأحـداث بنفسـه . وقـد عـاد في نهايـة أبريـل محمـلاً بالإيمـان القاطـع بصـدق دعـوة المهـدي وببعـض الرسـائل لمشـايخ تلـك الجهـات ، وقـد فوضـه المهـدي لأخـذ البيعـة منهـم . فانضـم إليـه أحمـد حمـزة السـعدابي باتباعـه في المتمـة ، وعنـد وصولـه إلى الدامـر بايعـه أحمـد المجـذوب، فاتخـذ بربـر وجهتـه بصحبـة جيـش قوامـه 40 ألفـاً مـن الجعليـين ، والرباطـاب ، والبشـاريين ، مـن المشـاة والفرسـان ، وقـد تسـلح بعضهـم بالأسـلحة الناريـة . وعسـكر محمـد الخـير حـول المدينـة ، ومـن هنـاك بعـث بجملـة رسـائل إلى رجـال الحاميـة والأعيـان يطلـب منهـم التسـليم دون إراقـة دمـاء . فاسـتجاب لـه البعـض ، وعـبروا النيـل إلى حيـث تقـوم معسـكرات الأنصـار ، وقـد جـاء سـقوط بربـر في أيـدي محمـد الخـير وأتباعـه في 23 رجـب 1301هــ 19 مايـو 1884 ليضـع النهايـة لأي أمـل لغـوردون في إجـراء إتصـالات تلغرافيـة بمـصر .

لم يعـد أمـام غـوردون خيـار بعـد ذلـك سـوى الإسـتعانة بالأشـخاص المتنقلـين عـلى ظهـر البواخـر ، أو الـدواب ، أو الوسـيلتين معـاً ، لنقـل رسـائله إلى مـصر . ولقـد كانـت هنـاك صعوبـات عمليـة تجعـل الإسـتفادة الفعليـة مـن هـذه الوسـيلة أمـراً متعـذراً . فقـد

كانت الطرق التي يتحتم على الجواسيس عبورها محفوفة بالمخاطر ، فكانوا نظراً لهذا يطلبون مبالغ خيالية من المال ، وقد كان وقوع أحدهم في أيدي الأنصر متوقعاً في أي لحظة ، ومن هنا كان لابد أن تأتي الرسالة في شكل مقتضب اقتضاباً قد يخل في بعض الأحيان بالمعنى . ويشكل طول المسافة العقبة الرئيسية ، إذ كان الطريق الذي يربط بين مصر والسودان يمر ببربر ، ومنها شمالاً أو شرقاً ، من الشمال كانت هناك عدة طرق : طريق كورسكو – أبوحمد – الخرطوم – عن طريق النيل – ثم طريق الصحراء إلى بربر . فالخرطوم (خط التلغراف). ويبلغ طول هذا حوالي 782 ميلاً ، طريق وادي حلفا – أم بكول عبر النيل ثم عبر الصحراء إلى شندي فالخرطوم ويبلغ طوله حوالي 659 ميلاً ، كان على غوردون أن يبعث برسوله ليقطع أياً من هذه المئات من الأميال ويتحمل مخاطرها . ولقد كان أقصر الطرق ، 576 ميلاً ، هو طريق كورسكو – أبوحمد – بربر – الخرطوم يمر في وسط منطقة يسيطر عليها الأنصار كلية ، الأمر الذي حتم على حاملي تلك الرسائل ، إما المجازفة بعبور هذه المنطقة ، أو إختيار طريق آخر أطول منه .

أما من ناحية الشرق فكان هناك إحتمالان : طريق سواكن – بربر – الخرطوم ، ويبلغ طوله 445 ميلاً تقريباً ، ثم طريق مصوع – كسلا – أبوحراز – الخرطوم – ويبلغ طوله 653 ميلاً تقريباً . كان يمكن أن يكون الطريق الأول مثالياً لولا سقوط بربر وإندلاع نار الثورة في السودان الشرقي . لقد ظل ذلك الجزء من البلاد هادئاً حتى منتصف 1883 . كان عثمان دقنة يتسقط أخبار المهدي على البعد ، إلى أن قرر أخيراً أن يشد الرحال إليه . فاسبغ عليه المهدي بركته وعينه أميراً على الشرق ، وحمله خطابات للأهالي والأعيان يدعوهم فيها للقيام لنصرته . فاستجابت له قبائل الحسانات ، والهدندوه ، والارتيقة ، وتوجهوا لحصار الحاميات المصرية في مواقعها الثلاثة في طوكر وسنكات وسواكن في آن واحد .

وفي مطلع عام 1884 تمكنت قوات عثمان دقنة من السيطرة على طريق سواكن – بربر ، كان لهذا الطريق أهمية خاصة بالنسبة للخرطوم ، فبالرغم من عدم وجود خط تلغراف عليه إلا أنه اقصر طريق ، سواء من الشرق أو الشمال ، يصل بين الخرطوم والعالم الخارجي ، وفقدانه بلا شك يدفع المدينة أكثر وأكثر نحو دائرة الخطر . ولقد حاولت الحكومة المصرية – التركية إستعادة سمعتها في المنطقة ، إلا أن

نشـاطها اقتـصر عـلى بعـض الإجـراءات الدفاعيـة ، ولم تفكـر في شـن أي هجـوم ضـد الأنصـار. فاشـتدت قبضتهـم عـلى كل مـن سـنكات وطوكـر ، وأهـم مـن ذلـك بقـي طريـق سـواكن بربـر تحـت سـيطرتهم ولم يكـن بإمـكان أي جاسـوس إخـتراق صفوفهـم ليصـل برسـائل مـا إلى سـواكن حيـث ترابـط القـوات المصريـة .

بعـد مـضي خمسـة أشـهر عـلى الحصـار وانقطـاع الاتصـال التلغـرافي ، أيقـن غـوردون أن تلـك القصاصـات الصغـيرة مـن الـورق التـي يحملهـا الجواسـيس وإن وصلـت لا تكشـف أبـداً عـما يـدور بخلـده وعـن الوضـع عـلى حقيقتـه . فاسـتقر رأيـه عـلى إرسـال معاونـه سـتيورت باشـا عـلى ظهـر الباخـرة ((العبـاس)) حتـى يتمكـن بشـخصه ومـا يأخـذه معـه مـن وثائـق مـن إبـلاغ المسـئولين بالحقيقـة . فغـادر الخرطـوم في 9 سـبتمبر 1884 وبصحبتـه قناصـل إنجلـترا وفرنسـا وألمانيـا وبعـض التجـار والموظفـين مـن السـوريين والاغريـق . فـزوده غوردون بمجموعـة كبـيرة مـن الخطابـات إلى بيرنـج والخديـوي بالإضافة إلى مذكـرات يوميـة بالأحداث وعريضـة رفعـت إلى الجنـاب العـالي ووقعهـا أربعـة وثلاثـون مـن الضبـاط ورؤسـاء الدواويـن والعلـماء يتوسـلون فيهـا إليـه أن يرسـل جنـده لإحتـلال البـلاد وكـسر شـوكة العصيـان [108].

أصـدر غـوردون أوامـره لإثنتـين مـن البواخـر لتصحبـا ((العبـاس)) إلى أن تتعـدى مناطق الخطـر ثـم تعـودان أدراجهـما . ورغـم أن الأسـطول الثـلاثي قـد تعـرض لهجـمات الأنصـار منـذ مغادرتـه الخرطـوم إلا أنهـم تمكنـوا مـن إجتيـاز بربـر دون خسـائر في الأرواح .

ومـن هنـاك عـادت باخرتـا الحراسـة متخذتـين طريقهـما جنوبـاً . ولم يكـن خافيـاً عـلى الأنصـار الذيـن كانـوا يتابعـون تقـدم الأسـطول مـن الشـواطئ أن ((العبـاس)) قـد أصبحـت بمفردهـا . ولعلهـم أيقنـوا أنهـا في سـبيلها إلى مـصر فانتـشر الخـبر بينهـم بـضرورة منعهـا مـن مواصلـة رحلتهـا . ولقـد درج الأنصـار عـلى اصطيـاد الجواسـيس ومؤيـدي الحكومـة ، فكيـف إذا كان بـين هـؤلاء بعـض الأجانـب لا تخطئهـم العـين . ولقـد ذكـر المـؤرخ محمـد عبدالرحيـم أن الحـماس كان ((يتأجـج في نفـوس الثـوار وألاّ يمكنـوا رجـلاً أبيـض اللـون شـاحب البـشرة أن يفلـت مـن بينهـم ولـو إتخـذ نفقـاً في الأرض أو سـلماً في السـماء)) [109].

---

(108) المهدي إلى غوردون ، 2 محرم 1302 22 أكتوبر 1884 – ملحق و .

(109) محمد عبدالرحيم - ص 8-9 .

وقد واتت الأنصار الفرصة عندما إصطدمت ((العباس)) بصخرة في شلالات ود قمر في أرض المناصير [110]فسارع شيخ قرية هبه ، الفقيه ود عثمان ، بتبليغ أمر السفينة الجانحة إلى سليمان نعمان ود قمر ، فما كان من هذا إلا نصب كميناً لقافلة ستيورت فأبيدت في غمضة عين . وقد استولى سليمان على كل المكاتبات التي كانت على متن الباخرة وأرسلها إلى بربر لتبعث من هناك إلى المهدي .

وبهذا جاءت خسارة غوردون مزدوجة ، فقد فشلت مهمة ستيورت ووقعت وثائقه السرية في أيدي خصمه . ولقد استفاد المهدي بدرجة كبيرة من هذه الوثائق في توقيت هجومه على المدينة .

ويلاحظ أنه قد تسلم تلك الرسائل في الوقت المناسب ، وذلك بعد وصوله لمنطقة الخرطوم مباشرة . فأمدته بقاعدة متينة يرتكز عليها في تقرير خططه بصورة محددة ونهائية . فقد استفاد من يوميات ستيورت في معرفة قوة الحامية وتوزيعها ، ومواطن الضعف في خط النار من حيث نوعية الجنود والاستحكامات . ووقف على حقيقة شعور السكان ومدى التعاطف الذي يجده بينهم . وفوق كل شيء ، تأكد له موقف المدينة التمويني والوسائل التي يتخذها غوردون لمواجهة الأزمة الغذائية . فكان أن وطد عزمه على تشديد الضغط على الخرطوم وإخضاع كل منافذها للمراقبة الدقيقة حتى يضطرها إلى استهلاك مخزونها .

ولعل المهدي قد إعتمد على هذه الوثائق في تقدير المدة التي عليه أن ينتظرها قبل أن يوجه ضربته ، فقد كان يسعى إلى إمتصاص الحياة من رجال الحامية حتى يجبرهم على التسليم أو تصبح مقاومتهم لهجومه ضرباً من المستحيل .

المشكلة المالية :

إن جاز لنا أن نعتبر الجنود في المرتبة الأولى من سلسلة إحتياجات غوردون ، فإن المال بلا شك يأتي في المرتبة الثانية .

ولقد فطن كل من بيرنج والحكومة المصرية لهذه الحقيقة فوعدوا غوردون بإطلاق يده ليصرف أي مبالغ يرى أنها ضرورية . ولكن يبدو أن هذا الوعد كان حبراً على ورق، إذ سرعان ما أخطره بيرنج أن يقتصد في النفقات إلى أقصى حد ممكن ، إذ أن مصر بوضعها حينذاك لم تكن تستطيع أن تتحمل أي أعباء مالية في السودان .

---

(110) يقول سلاطين إن القبطان كان أنصارياً ، وقد أوقع الاصطدام عن قصد .

غـادر غـوردون القاهـرة وبحوزتـه 40ر000 جنيـه ولقـد أخطـرت سـلطات القاهـرة محافـظ أسـيوط أن يدفـع لـه مبلـغ 10ر000 جنيـه أخـرى ، ولكـن غـوردون ، قـرر ألا يحمـل معـه كل هـذا المبلغ تحسـباً لأخطـار الطريـق في رحلـة طويلـة عـبر صحـاري ومناطـق غـير آمنـة تمامـاً . فـترك المبلـغ في أسـوان عـلى ان يرسـل لـه بصـورة سريـة لا تثـير إنتبـاه أحـد فيـما بعـد . وأكتفـى في رحلتـه بمبلـغ ألفـي جنيـه .

وقـد تمكنـت سـلطات اسـوان مـن جمـع 50ر000 جنيـه بالفعـل ، إلا أن هـذا المبلـغ لم يقـدر لـه أن يصـل إلى الخرطـوم .

لم تكـن بربـر قـد سـقطت بعـد ، ولكـن كان الطريـق إلى الخرطـوم محفوفـاً بالمخاطـر ، وإرسـال كل تلـك الأمـوال ربمـا يعرضهـا للضيـاع . ففضـل الحـكام الإحتفـاظ بهـا في خزينتهـم بانتظـار ظـروف أكـثر ملاءمـة . ورغـم كل هـذا ورغـم كل هـذا الحـذر فقـد وقـع المبلـغ في أيـدي الأنصـار عندمـا سـقطت بربـر واسـتولى محمـد الخـير عـلى الخزينـة . ومـا لبـث المهـدي أن بعـث بإبراهيـم ود عـدلان لينقـل محتوياتهـا إليـه .

ولم يكـن مبلـغ الألفـي جنيـه الـذي أخـذه غـوردون مـن القاهـرة ليسـاوي شـيئاً أمـام إحتياجـات مدينـة في حالـة حـرب . فبالإضافـة إلى بنـود الـصرف الثابتـة ، كان لا بـد أن تنشـأ مـع الحصـار جملـة التزامـات يعتـبر الوفـاء بهـا أمـراً حيويـاً لإسـتمرار صمـود المدينـة . وجـد غـوردون أزمـة ماليـة في إنتظـاره تعـود ذيولهـا إلى ثلاثـة أشـهر خلـت ، فلقـد كانـت الخزينـة خاويـة ، وسـبق أن طلـب دي كتلوجـن مـن سـلطات القاهـرة أن تبعـث لـه بــ140ر000 جنيـه ليدفـع رواتـب الموظفـين والجنـود المتأخـرة .

ولعـل الملابسـات والظـروف التـي أحاطـت بمعالجـة مسـألة السـودان قـد أنسـت الحكومـة المصريـة الأمـر تمامـاً وربمـا ، تجاهلـت الطلـب نهائيـاً بعـد تقريـر سياسـة الإخـلاء ، لإعتقادهـا أنهـا لم تعـد في حاجـة لخدمـات أولئـك الموظفـين والجنـد . وقـد كان عـلى غوردون أن يتحمـل نتائـج تقاعـس السـلطات المصريـة ، إذ وجـد أن بقـاء هـؤلاء المسـتخدمين في خدمتـه أمـراً لا بـد منـه . وعليـه فمـن الـضروري أن يجـد المخـرج ليفـي بالتزامـات الحكومـة الماليـة تجاههـم . فاضطـر إلى الإسـتدانة مـن بعـض التجـار ، ولم يمـض عـلى وصولـه إلى الخرطـوم شـهر واحـد .

لم يغـب عـن بالـه مـن ناحيـة أخـرى أن السياسـة السـليمة التـي وطـد عزمـه عـلى إنتهاجهـا مـن أجـل كسـب المؤيديـن لحكومتـه كانـت في حاجـة إلى المـال لتثبـت أركانهـا .

فشرع منذ وصوله في توزيع العملات الذهبية على كل من يتقدم له بشكوى أو ظلامة . كما كان يدفع مكافآت لأولئك الذين يمدونه بمعلومات عن تحركات الأنصار ويدفع إعانات مالية منتظمة للعلماء والفقراء مقابل قيامهم بإقناع الأهالي ببطلان دعوى المهدي .

وقد كان من حين لآخر يضطر لدفع بعض التعويضات للسكان الذين يرى استخدام منازلهم في أغراض عسكرية .

وكان أيضاً بحاجة إلى المال لمواجهة جملة مشاكل أخرى ، من ذلك مثلاً إغراء الجواسيس بمبالغ كبيرة لحمل رسائله إلى مصر . وكان عليه أن يبتاع كميات من الأغذية لسكان المدينة ، من سنار وبعض القرى المجاورة.

لجأ غوردون كما سبق أن ذكر للاستدانة من التجار والضباط الذين لديهم بعض المدخرات لإيجاد حل للأزمة المالية . وكان يحرر لكل مدين إيصالاً بالمبلغ على أمل أن يتمكن من سداده حالما تتوفر لديه الأموال ، أو على أسوأ الفروض أن تقوم سلطات القاهرة بدفعه إذا ما قدم إليها الإيصال . ويبدو أنه على سبيل الإغراء كان يدفع لهم ربحاً قدره قرش واحد على كل مائة قرش [111] وتحدثنا بعض المصادر أن إحدى السيدات ، وهي أرملة التاجر الشركسي مصطفى تيرانس . أمدت غوردون بمبالغ كبيرة فأنعم عليها ((بنجمة الحصار)) إلا أن بعض التجار الذين هبوا لمساعدته في بادئ الأمر أحجموا عن مساندته إلى ما لا نهاية لإقتناعهم بأن موقف الحكومة يضعف يوماً بعد يوم ، واصبحت إمكانية وصول أي أموال إليها بعيدة التحقيق .

ومن ثم حاول غوردون وسيلة إغراء جديدة لعلها تنجح في إستمالة التجار ، وهي توزيع القاب الباشوية والبكوية عليهم ، كل حسب وضعه الإجتماعي ، غير أن هذه لم تحرز نجاحاً بعيد المدى ، إذ بدا التجار يتساءلون عن ماهية هذه الألقاب إذا إستمر الوضع كما هو ووقعوا بنهاية الأمر في أيدي الأنصار . فاستقر رأي غوردون على إصدار عملة ورقية محلية عرفت ((بأوراق البون)) ولعل تاريخ إصدار هذه العملة 25 أبريل – يكشف أن غوردون كان يعاني فعلاً من أزمة مالية بعد مرور شهرين تقريباً على وصوله . وكانت ((أوراق البون)) عبارة عن أمر دفع يصرف في القاهرة ويحمل توقيع غوردون وختمه بجانب ختم الحكمدارية . حملت كل ورقة نمرة مسلسلة وعبارة

(111) المهدي إلى غوردون 2 محرم 1302 (22 أكتوبر 1884) ملحق و .

فحواهـا أن هـذا ((المبلـغ مقبـول وسـيدفع مـن الخزينـة في الخرطـوم أو القاهـرة في أي وقـت بعـد مـرور سـتة أشـهر عـلى هـذا التاريـخ 25 أبريـل 1884)) .

كانـت جملـة الأوراق التـي طبعـت في بـادئ الأمـر تسـاوي 50ر000 جنيهـاً مـن فئـات 1-10 جنيهـاً إلا أن مبلـغ 10ر000 جنيهـاً قـد طبـع فيـما بعـد مـن الفئـات الصغـيرة ذات القـرش والخمسـة والعـشرة .

واظـب غـوردون بعـد ذلـك عـلى توفـير كل مـا يحتاجـه مـن مـال بهـذه الوسـيلة . فأصـدر ذات مـرة 60ر000 جنيـه ثـم 70ر000 جنيهـاً فيـما بعـد . يقـال إنـه دفـع منهـا زيـادات في مرتبـات المسـتخدمين ، وأرسـل جـزءاً منهـا لحاميـة سـنار ، ويقـدر جملـة المبلـغ الـذي طبعـه غـوردون بــ 220ر000 جنيـه .

وكان اسـتقبال أهـالي الخرطـوم لأوراق البـون متفاوتـاً ، يعكـس إلى درجـة كبـيرة مـدى ثقـة كل فئـة منهـم في الحكومـة : فقـد تشـكك السـودانيون عمومـاً في قيمـة العملـة الحقيقيـة ، وكان الإتجـاه بينهـم هـو محاولـة التخلـص مـن ايـة كميـة تقـع بأيديهـم ، في حـين أن طبقـة التجـار بمـا فيهـم الإغريـق والسـوريون والمصريـون وربمـا بعـض السـودانيين قـد ، أبـدوا إسـتجابة ، طيبـة وقبلـوا التعامـل بهـا عـلى أمـل أن تسـاعد هـذه في تقويـة مركـز الحكومـة المـالي وبالتـالي تتمكـن مـن الصمـود في وجـه الأنصـار . ولكـن يبـدو أن فئـة منهـم رفضـت التعامـل بهـا ، الأمـر الـذي دفـع غـوردون إلى إعـلان عقوبـات صارمـة بحـق هـؤلاء تراوحـت بـين التسـليم للعـدو والإعـدام رميـاً بالرصـاص . وقـد اضطـر لحبـس أربعـة عـشر تاجـراً في طابيـة السرايـا الشرقيـة في مواجهـة مدافـع الأنصـار عقابـاً لهـم عـلى رفضهـم للعملـة الجديـدة ، ولم يطلـق سراحهـم إلا بعـد أن قطعـوا وعـداً بالاعـتراف بهـا .

غـير أن كل هـذه الإجـراءات لم تجعـل تـداول العملـة أمـراً يسـيراً ، إذ سرعـان مـا بـرزت مشـكلة التزويـر . فبعـد ظهورهـا بفـترة وجيـزة أكتشـف أحـد رجـال الحكمداريـة ورقـة مـزورة فئـة العشريـن قرشـاً وقـد أثبتـت التحريـات أنهـا مـن فعـل أحمـد وصابـر ابنـي الشـيخ عبدالغنـي السـلاوي ، فقدمـا للمحاكمـة .

بالإضافـة إلى هـذا فقـد حـاول بعـض التجـار شراء كميـات كبـيرة مـن أوراق البـون بمبالـغ زهيـدة أقـل كثـيراً مـن قيمتهـا الرسـمية ، حتـى يتمكنـوا مـن إسـتبدالها متـى مـا توفـرت النقـود بقيمتهـا الحقيقيـة ، إلا أن غـوردون تمكـن مـن كشـف هـؤلاء ، وكان بينهـم السـيد محمـد طـه ، وعـلي أغـا بريـازي ، ومحمـد سـعيد الدبـاغ ، ومحمـد حسـن خـير اللـه

. وقد عاقبهم بالحبس في السرايا الشرقية وهددهم بالتسليم إلى الأنصار إذا ما عادوا لفعلتهم تلك .

إلا أن الخطر الحقيقي الذي كان يهدد تداول العملة الجديدة هو هبوط قيمتها . فلقد لوحظ بعد حوالي شهرين من إصدارها أن قيمة الجنيه قد هبطت إلى 80 – 90 قرشاً .

ولم يكن إرتفاع الأسعار هو السبب في هذا ، بل على الأرجح أن عدم الثقة في أوراق البون هو الذي أدى إلى هبوط قيمتها . باشتداد الحصار حول المدينة أخذت هذه المشكلة تتخذ شكلاً أكثر حدة ، حتى أن قيمة الجنيه هبطت إلى 15- 20 قرشاً فقط . وكان من الطبيعي أن يخلق هذا الوضع موجة تذمر عاتية في صفوف الجند والموظفين ، ولتلافي هذا عمل غوردون على إعطائهم أجور إضافية وهبات مالية فوق الرواتب حتى يعوضهم عن الفرق بين القيمة الرسمية للعملة وقيمتها الحقيقية في الأسواق .

مشكلة المؤن :

كان لا بد أن تواجه الخرطوم ، شأنها شأن أي مدينة في حالة حصار ، مشكلة المواد الغذائية . وقد أضافت هذه المشكلة إلى غوردون عبئاً جديداً ، إذ أصبح لزاماً عليه توفير الطعام لما يقارب الخمسين ألف شخص إلى أجل غير محدود . فاضطر إلى خوض معارك ضارية ضد جموع الأنصار حتى يجبرهم على التراجع ويبقي الطرق المؤدية إلى المناطق الزراعية التي تعتمد عليها المدينة مفتوحة له .

وكان الأنصار يرون من ناحية أخرى . أن تحقيق مجاعة في الخرطوم هو هدف رئيسي ووسيلة فعالة لحملها على التسليم .

نجح أنصار الشيخ العبيد وود البصير منذ البداية في عزل الخرطوم عن مناطق تموينها التقليدية . وجاء أبو قرجة ليفرض مزيداً من الرقابة على أعراب الجزيرة حتى لا يدخلوا إليها شيئاً من الغلال والأبقار . وواظبوا في ذات الوقت على شن هجمات على بواخر غوردون متى ما ظهرت على مرمى البصر . وعند وصول أنصار النجومي إكتملت لهم السيطرة على كل المناطق المتاخمة للمدينة سواء من جهات الجريف والحلفاية ، أو الجزيرة، وتمكنوا بالتالي من فرض حظر شامل على دخول أي مواد غذائية إلى المدينة.

رغـم أن الخرطـوم كانـت تحـوي ضمـن تخطيطهـا جملـة أراضي صالحـة للزراعـة يمكـن إسـتغلالها في وقـت الشـدة ، إلا أنهـا كانـت تعتمـد في تموينهـا عـلى المناطـق التـي تحيـط بهـا مـن الجنـوب والـشرق وعـلى مناطـق الجزيـرة الممتـدة إلى سـنار . ولقـد بـدأت أزمـة الخرطـوم حينـما قامـت القبائـل القاطنـة في تلـك الجهـات لنـصرة المهـدي فهجـر بعضهـم الزراعـة تلقائيـاً لإيمانـه بـأن الجهـاد أفضـل . وثمـة بعـض آخـر إسـتقر بواسـطة دعـاة المهـدي لنبـذ مباهـج هـذه الدنيـا الزائفـة والمسـاهمة في إقامـة ديـن الحـق . فتركـوا مزارعهـم تحـت رعايـة صغـار الأبنـاء والرقيـق [112]. وقـد فطـن المهـدي منـذ البدايـة إلى الـدور الـذي يمكـن أن تؤديـه هـذه القبائـل في إمـداد الخرطـوم بالغـذاء فأصـدر لهـم منشـوراً يأمرهـم فيـه بقطـع علاقاتهـم التجاريـة مـع أهـالي العاصمـة ، والإمتنـاع عـن تسـويق الغـلال بداخلهـا .

وقـد تمـادى بعـض دعـاة المهـدي في تحذيـر رجـال القبائـل بالقـول إن مـن دخـل الخرطـوم فهـو كافـر ، يؤخـذ مالـه وأولاده غنيمـة ، ولعـل الإجـراء الـذي إتخذتـه الحكومـة بشـأن شراء كميـات مـن الغـلال في آخـر 1883 وأول 1884 كان رد فعـل لهـذا المنشـور ، فعنـد إنسـحاب حاميتـي الكـوة والدويـم سـارع رجـا ل الحكومـة إلى شراء كميـات مـن الـذرة مـن قـرى النيـل الأبيـض جـرى تخزينهـا بالشـونة . كـما تمكـن حاكـم سـنار مـن الحصـول عـلى كميـات أخـرى بعـث بهـا إلى العاصمـة في مطلـع 1884 .

إذن وجـد غـوردون عنـد وصولـه أن موقـف المـواد الغذائيـة لا غبـار عليـه ، فقـد قـدرت كميـة الـذرة بحـوالي 500ر23 أردب ، بالإضافـة إلى 100 أردب مـن القمـح وكميـات مـن الأرز والبقسـماط و14 قنطـاراً مـن العسـل و 1000 مـن الزيـت و 100 قنطـاراً مـن الزبـد [113]. ولقـد كانـت هـذه الأرقـام مسـجلة في دفاتـر الحكومـة ، إلا أن غـوردون إكتشـف فيـما بعـد إختلاسـاً في المـواد قـام بـه حسـين سري المخزنجـي ، واتضـح أن الكميـات الموجـودة تقـل كثيراً عـما هـو مقيـد في الدفاتـر ، قـدر غـوردون إسـتهلاك الجنـود اليومـي بحـوالي سـبعين أردبـاً مـن الـذرة ، ولـو اقتـصر الـصرف الحكومـي عليهـم لأمكـن تدبـيره ، خاصـة وأنـه قـد تمكـن مـن الحصـول عـلى كميـات إضافيـة مـن الغـذاء فيـما بعـد ولكـن غـوردون كان مضطـراً لإعاشـة فئـات أخـرى .

---

(112) بابكر بدري - ص 30 .

(113) Nushi Pasha, p. 4.

فـما أن وصـل إلى الخرطـوم حتـى بعـث بــ 6000 أردب مـن الـذرة إلى بربـر ، يبـدو أن حسـين باشـا خليفـة كان قـد طلبهـا منـه . ولعلـه كان يريـد إغـراء المدنيـين ليبقـوا عـلى تأييدهـم لـه عـن طريـق صرف المـواد الغذائيـة لهـم مـن مخـازن الحكومـة ، حتـى أنـه كان ينفـق عـلى حـي بأكملـه قـدر عـدد سـكانه بأربعـة الآف شـخص تقريبـاً . ولهـذا كان لابـد مـن إتخـاذ الاحتياطـات اللازمـة لتوفـير الغـذاء في المدينـة حتـى تتمكـن مـن الصمـود. فمهما كان تعـداد رجـال الحاميـة ، ومـا يحملونـه مـن سـلاح ، فلـم يكـن متوقعـاً أن يتمكنـوا مـن صـد هجـوم يشـنه الأنصـار وهـم جوعـى. بالإضافـة إلى أنـه مـن الصعوبـة إقنـاع المدنيـين التمسـك بحكومـة عاجـزة عـن توفـير أول متطلبـات الحيـاة لهـم .

ومـن هنـا جـاء قـرار غـوردون الـذي اتخـذه حـال وصولـه إلى الخرطـوم بعـدم إسـتهلاك المـواد المخزونـة في الـصرف اليومـي والاحتفـاظ بهـا لوقـت الشـدة . وحـاول في ذات الوقـت إيجـاد مصـادر لتمويـن المدينـة باحتياجاتهـا اليوميـة . ولمـا أتاحـت لـه الظـروف ثلاثـة مصـادر بـذل جهـداً خارقـاً في اسـتغلالها لأقـصى درجـة.

أ- الغارات على مواقع الأنصار :

شـكلت معسـكرات الأنصـار – التـي بـدأت في الظهـور عـلى مشـارف الخرطـوم منـذ مطلـع شـهر مـارس – أولى مصـادر غـوردون التموينيـة ، إذ قـام أهـالي المناطـق الزراعيـة المتاخمـة للخرطـوم بمـد المحاصريـن بكميـات وافـرة مـن الـذرة جـرى تخزينهـا داخـل المواقع العسـكرية . فحـرص جنـود غـوردون أثنـاء هجومهـم عـلى الاسـتيلاء عـلى تلـك المخزونـات . فأضحـت الحمـلات ذات فائـدة مزدوجـة ، فهـي بالإضافـة إلى هدفهـا العسـكري الـذي يتمثـل في إجبـار الأنصـار عـلى التراجـع تقـدم حـلاً جزئيـاً لأزمـة الغـذاء في المدينـة .

وعنـد وصـول قـوات أبي قرجـة وإتخـاذ مواقعهـا أمـام طابيـة بـري بعـث غـوردون قـوة لمهاجمتهـا ، فنجحـت في إنـزال الهزيمـة بهـا ، وتراجـع الأنصـار مخلفـين وراءهـم كميـات مـن الـذرة قـدرت بأربعمائـة أردب .

وفي اغسـطس أرسـل غـوردون فرقـة لتتعقبهـم في معسـكرهم الجديـد الـذي أقامـوه في الجريـف ، فتمكنـت مـن الإسـتيلاء عـلى 6000 أردب مـن الـذرة وبعـض الأبقـار . أمـا هجـمات سـاتي بـك فقـد تركـزت عـلى تجمعـات الأنصـار في النيـل الأبيـض ، حتـى تمكـن مـن غنيمـة 1000 رأس مـن الأبقـار ، ونتـج مـن جـراء العمليـات العسـكرية حـول الخرطـوم أن هجـر أهـالي الضفـة الشرقيـة للنيـل الأزرق ديارهـم في محاولـة لإيجـاد مـأوى آمـن ، فبعـث

غـوردون أحـد قادتـه – محمـد عـلي باشـا – ليستكشـف مـا إذا كان الأهـالي قـد خلفـوا وراءهـم أي مـواد غذائيـة .

وقـد صـدق حـدس غـوردون ، إذ تمكنـت القـوة مـن وضـع يدهـا عـلى كميـات مـن الأغذيـة بينهـا بعـض الزيـوت ، وكميـة مـن الـذرة قـدرت بألـف أردب .

كانـت منطقـة الحلفايـة فيـما مـضى مركـزاً لتجمـع القبائـل وسـوقاً لبيـع الغـلال ، إلا أن تصاعـد العمليـات العسـكرية فيهـا قـد أدى إلى شـل حركـة تلـك السـوق ، فلـم يعـد بإمـكان الأعـراب الحضـور ببضائعهـم ، ولم يكـن بإمـكان أهـالي الخرطـوم الخـروج لـشراء إحتياجاتهـم منهـا . وقـد تفـاءل غـوردون بعـد إرغامـه أبي قرجـه عـلى التراجـع ، فحـاول أن يعيـد الحيـاة الطبيعيـة إلى المنطقـة ، فأوفـد كلاً مـن محمـد عـلي باشـا وفـرج اللـه بـك عـلى رأس قـوة تهـدف لإجبـار العبـاس العبيـد عـلى إخـلاء الموقـع ، فأنجـزت الحملـة هـذه المهمـة ، وعـادت محملـة بكميـات مـن الـذرة والمـواد الغذائيـة . ونتيجـة للهـدوء النسـبي الـذي سـاد المنطقـة فقـد ظهـرت الغـلال مـرة أخـرى ، وتزاحـم أهـالي الخرطـوم عـلى شرائهـا ، وهبطـت الأسـعار إلى مسـتواها العـادي لأول مـرة منـذ بـدء الحصـار .

وفي إحـدى الهجـمات عـلى منطقـة أم درمـان اسـتولت قـوات الحكومـة عـلى مـا يقـارب التسـعين رأسـاً مـن البقـر . وفي معركـة أخـرى تـم الإسـتيلاء عـلى ثمانـين منهـا .

ب – الحملات العسكرية إلى الجزيرة .

كانـت سـنار ومـا جاورهـا مـن القـرى هـي المصـدر الثـاني الـذي إعتمـد عليـه غـوردون في إمـداد المدينـة بالغـذاء . ولهـذا فقـد كان يرقـب تصاعـد العمليـات العسـكرية في تلـك المنطقـة بكثـير مـن القلـق ، إذ أن سـيطرة الأنصـار عـلى طريـق سـنار – الخرطـوم ، كان لابـد أن يعجـل بوقـوع أزمـة غذائيـة في الخرطـوم يصعـب تفاديهـا ، ولعـل كولونيـل دي كتلوجـن قـد فطـن إلى هـذه الحقيقـة قبـل وصـول غـوردون ، فبعـث بصالـح المـك عـلى راس قـوة من الباشـبوزق إلى فـداسي فحفـر خندقـاً هنـاك وتحصـن بـه ليحمـي طريـق سـنار – الخرطـوم .

ورغـم أن هـذه القـوة قـد صمـدت بعـض الوقـت أمـام هجـمات الأنصـار إلا أنهـا استسـلمت أخـيراً لقـوات أبي قرجـة وانقطـع منـذ ذلـك الحـين أي إتصـال بـين الخرطـوم وسـنار، ولم يتمكـن غـوردون مـن إيفـاد أي بعثـات إلى سـنار إلا في أغسـطس 1884 حينـما دحـر أنصـار أبي قرجـه وإضطرهـم إلى التراجـع ، فاصبـح الطريـق آمنـاً بعـض الـشيء . وبعدهـا أرسـل غـوردون قـوة تحـت قيـادة محمـد عـلي باشـا لبعـض قـرى النيـل الأزرق

في محاولـة لـشراء مـواد غذائيـة . وقـد توجهـت مـن توهـا إلى قريـة أبي حـراز التـي عرفـت بثرائهـا لكونهـا مركـزاً هامـاً لتجـارة الحبشـة . وقـد نجـح محمـد عـلي باشـا في رفـع الحصـار عنهـا واسـتولى عـلى 1800 أردب مـن الـذرة ، و85 قنطـاراً مـن الـبن ، و32 قنطـاراً مـن السمسـم ، قبـل أن يعـود أدراجـه إلى الخرطـوم .

بعـث غـوردون بعـد ذلـك بخيـت بـك بطـراكي إلى سـنار بهـدف الحصـول عـلى كميـات أخـرى مـن الـذرة وبعـض المـؤن التـي كانـت سـنار غنيـة بهـا ، ويبـدو أن أهـالي سـنار كانـوا عـلى علـم بأزمـة الخرطـوم التموينيـة ، فتسـابقوا في إرسـال المـواد الغذائيـة لذويهـم في العاصمـة ، فعـادت السـفن محملـة بهـا . إلا أن نصيـب الحكومـة لم يتعـد الألـف أردب مـن الـذرة ، ولهـذا أوقـع غـوردون الجـزاء عـلى بخيـت بـك ففقـد وظيفتـه .

وكان مديـر سـنار ، حسـن بـك صـادق ، يعـي تمامـاً دور مدينتـه في تمويـن الخرطـوم بالغـذاء، فبـذل غايـة جهـده لمقابلـة تلـك الإحتياجـات رغـم أن سـنار كانـت تحـاول هـي الأخـرى الفـكاك مـن قبضـة الأنصـار ، ومـع هـذا فقـد أمـر السـكان بـضرورة جمـع الـذرة مـن القـرى المحيطـة بهـم كلـما سـنحت لهـم الفرصـة ، وأخـذ يقـوم مـن جانبـه بـين الفينـة والأخـرى بالهجـوم عـلى معسـكرات الأنصـار المنتـشرة حـول المدينـة ليسـتولى عـلى مـا يجـده فيهـا مـن مـؤن . ذات مـرة أرسـل فرقـة مـن الجهاديـة بقيـادة أربعـة مـن السـناجك إلى شـاطئ النيـل الأزرق الشرقـي ، حيـث كان الأنصـار قـد خزنـوا كميـة مـن الـذرة ، وبعـد مناوشـات دامـت ثمانيـة عـشر يومـاً نجحـت قـوة سـنار في الإسـتيلاء عـلى تلـك المخزونـات .

وفي سـبتمبر أرسـل غـوردون محمـد نصحـي باشـا في بعثةعـلى الباخرتـين ((البورديـن)) و ((تل الحويـن)) إلى سـنار ، فأمـده حسـن بـك بقـدر مـن تلـك الكميـة التـي تـم الإسـتيلاء عليهـا[114] فأخـذ حمولـة بلغـت ثلاثـة الآف أردب . كان نصيـب الحكومـة منهـا ألفـان . ومـا تبقـى كان هدايـا مـن أهـالي سـنار إلى ذويهـم في الخرطـوم مـع كميـات مـن الزيـوت والسمسـم .

إلا أن ذلـك الوضـع لم يكـن ممكنـاً أن يسـتمر ، فـما أن وصـل عبدالرحمـن النجومـي حتـى سـعى مـرة أخـرى للسـيطرة عـلى الطريـق ، فشـيد طابيـة في الجريـف ، عليهـا قـوة مـن رجالـه ، لا تسـتهدف شـيئاً سـوى بواخـر غـوردون متـى ظهـرت في الأفـق . ومنـذ ذلـك الحـين فشـلت كل محـاولات غـوردون في إخـتراق ذلـك الحصـار ، ففقـد بالتـالي مصـدراً مـن مصـادر تموينـه الرئيسـية.

---

(114) إسماعيل أغا إبراهيم ، وإفادات عن حصار الخرطوم وسنار .

ج-حملات داخل المدينة : .

وإضطر غـوردون لاتخـاذ جملـة إجـراءات لتفـادي خطـر المجاعـة التـي أصبـح حدوثهـا وشـيك الوقـوع ، فعـين بعـض ضباطـه للإسـتيلاء عـلى كل الغـلال الموجـودة في المدينـة . وأصبحـت الحكومـة تبيعهـا بدورهـا للمسـتهلك الـذي يقـدر عـلى الدفـع . ثـم أمـر سـكان جزيـرة تـوتي بزراعـة أراضيهـم وجلـب المحصـول إلى الشـونة . وكذلـك كـون لجنـة خاصـة لمتابعـة هـذا الأمـر برئاسـة فـرح باشـا الزينـي، وقـد تـم حصـد حـوالي 200 أردب مـن الـذرة ، وفي آخـر نوفمـبر 1884 تـأزم الموقـف بشـكل حـاد ، إذ أن كل مـا أمكـن جمعـه مـن مـؤن قـد نفـد تمامـاً مـن مخـازن الحكومـة . فشـكل غـوردون لجنـة أخـرى برئاسـة القنصـل اليونـاني ليونديـدس ليقـوم مـن جديـد بحملـة تفتيـش شـاملة في المدينـة تـأتي بـكل مـا تجـده في حـوزة السـكان إلى الشـونة تاركـة لهـم مؤونـة عشريـن يومـاً .

وقـام هـو مـن جانبـه بتحريـر إيصـالات لـكل مـن صـودرت غلالـه يقـضي بدفـع 12 جنيهـاً لـلأردب حـال وصـول القـوات الإنكليزيـة . ورغـم أن هـذه اللجنـة قـد واظبـت عـلى القيـام بمهمتهـا يوميـاً لمـدة شـهر كامـل إلا أن كل مـا أمكـن الحصـول عليـه بلـغ حـوالي 300 أردب فقـط.

دعـا غـوردون قادتـه للتشـاور في كيفيـة تـدارك الأمـر فأسـتقر الـرأي عـلى الاكتفاءبنصـف التعيـين المقـرر للجنـود . ثـم كونـت لجنـة أخـرى برئاسـة أحمـد بـك عـلي جـلاب ، وعضويـة إبراهيـم فـوزي ، وإبراهيـم البوردينـي ، ونكـولا ليونديـدس ، والمعـاون فتـح اللـه ، ونكـولا بـك الطبيـب اليونـاني ، لتجـري بحثـاً دقيقـاً في المدينـة عـن أي مأكـولات مخزونـة لـدى السـكان .

وكان نتيجـة هـذا البحـث حـصر حـوالي 63 أردبـاً مـن الـذرة وبعـض الأبقـار الخائـرة القـوى .

لجـأ غـوردون بعـد ذلـك إلى الطبيـب يسـتفسر عـما إذا كان هنـاك عائـق صحـي في سـبيل تغذيـة الجنـود بالصمـغ المخلـوط بجـمار النخيـل . وقـد أفتـى الطبيـب بأنـه لا ضرر منـه . ولعـل غـوردون كان أول العارفـين بـأن هـذا الغـذاء لا يمكـن أن يكـون غـذاء لحاميـة مطلـوب منهـا أن تدافـع عـن مدينـة يقـف عـلى أبوابهـا ألـوف مؤلفـة . واتضـح في ذلـك الحـين أن غالبيـة الجنـود قـد فقـدوا المقـدرة حتـى عـلى حمـل السـلاح ناهيـك عـن إسـتعماله .

وإزاء هـذا الوضـع كان لا بـد أن تتفـشى ظاهـرة التمـرد والعصيـان وتكـررت حـوادث الفـرار إلى معسـكرات المهـدي.

وفي 16 ينايـر 1885 كانـت المدينـة قـد قضـت تماماً عـلى كل مـا يمكـن أن يـؤكل سـواء بإستشـارة الطبيـب أو بدونهـا [115]. كان الجنـود يقتاتـون مـن الصمـغ منـذ أول ينايـر ففقـد معظمهـم الحـد الأدنى مـن اللياقـة البدنيـة التـي تؤهلهـم لخـوض معركـة لدرجـة أن غـوردون أصـدر مرسـوماً يعفيهـم مـن الوقـوف لتحيتـه ، وقـد وصلـت صحتهـم درجـة مـن الوهـن بحيـث لم تكـن لتسـمح لهـم بصد أي هجـوم يشـنه الأنصـار لإقتحـام أبـواب المدينـة وخطـوط دفاعهـا .

أصبـح أمـل غـوردون معلقـاً بوصـول فرقـة الإنقـاذ ، ولعلـه كان أمـلاً يرتكـز عـلى عـدم معرفـة حقيقيـة بحجـم هـذه الحملـة . فلـم تكـن سـوى باخرتـين عليهـما بضعـة مئات مـن أرادب الـذرة .

ولا بـد للمـرء أن يتسـاءل عـما إذا كانـت هـذه الكميـة الضيئلـة كافيـة لتعيـد الحيـاة إلى جنـد الحاميـة ، بدرجـة تمكنهـم مـن الصمـود أمـام القـوات التـي اقتحمـت أسـوار المدينـة عشـية السـادس والعشريـن مـن ينايـر . ولقـد أجـاب أحـد قـادة غـوردون بالنفـي القاطـع عندمـا سـئل إن كانـت مسـاهمة حملـة الإنقـاذ – في حالـة وصولهـا قبـل سـقوط المدينـة ستسـاعد بـأي صـورة مـن الصـور في تغيـير مجـرى الأحـداث [116].

لقـد كانـت الخرطـوم تعـاني مـن أزمـة حـادة ، واصبـح سـقوطها نتيجـة لتفـشي المجاعـة أمـراً يـكاد يكـون مؤكـداً . ولعـل حملـة الإنقـاذ لم تكـن لتفعـل سـوى القليـل . كانـت مشـكلة الجنـود هـي الإنهـاك الجسـدي الـذي تعرضـوا لـه في الآونـة الأخـيرة ، وفقـدوا مـن جرائـه لياقتهـم ومقدرتهـم عـلى الحـرب ، ولهـذا فمـن الصعـب قبـول الـرأي القائـل بـأن المدينـة سـقطت لأن حملـة الإنقـاذ قـد وصلـت متأخـرة ، أو لأن الأنصـار قـد علمـوا بواسـطة الجواسـيس أن هنـاك فتحـة في التحصينـات يمكـن إجتيازهـا بيـسر إلى الداخـل .

لقـد حشـد المهـدي قواتـه حـول المدينـة قرابـة عـام كامل مـارس خلالـه حرب إسـتنزاف بطيئـة ، أنهكـت قـوى جنـود الحكومـة لدرجـة أنـه لم يكـن في مقدورهـم الصمـود أكـثر مـن يـوم واحـد عـلى أكـثر تقديـر بعـد 26 ينايـر.

115)) شهادة عبدالقادر حسن في المحكمة التي عقدت في القاهرة في أبريل 1887 لتحاكم حسن بك بهنساوي Wingate, Mahdiism and the Anglo-Egyptian Sudan, pp. 556-90.

116)) حسن بك بهنساوي ، تقارير وإفادات عن حصار الخرطوم وسنار .

وإذا ما إفترضنا أن الأنصار قد هاجموا المدينة من الجانب المتهدم من الخندق، فإن المجاعة هي التي تسببت من بقائه على ما هو عليه . درج غوردون على أمر جنوده بترميم كل جزء تجف عنه الماء ، إلا أنه إضطر إلى إهماله عندما تدهورت حالة الجنود الصحية . إذن فقد كان مصدر الضعف الأساسي هو المجاعة التي لا بد أن تكون آثارها قد إنعكست على أداء الجند سواء في صد الهجوم أو تقوية وسائل الدفاع . كان الحصار المضروب حول المدينة شاملاً طويلاً ، اضطر السكان خلاله إلى استهلاك كل ما وقع بين أيديهم .

مشاكل المهدي :

كان لا بد أن يواجه الفريق الآخر مشاكل شبيهة بتلك التي واجهها غوردون . إلا أن هناك عدة عوامل ساعدت في تخفيف حدة الأزمة عند الأنصار . وتاتي في مقدمة هذه طبيعة الدعوة نفسها .

فهي نداء لكل مسلم ليدير ظهره لهذه الدنيا الفانية فلا يلتفت لجمع أموال ولا يلهث وراء سلطان ويكتفي في مأكله بما يسد الرمق ، وفي ملبسه بما ينم عن التواضع الجم .

أما العامل الثاني فهو الانتصارات المتعددة التي حققها المهدي في جملة معارك قبل تقدمه نحو الخرطوم . ويأتي العامل الثالث في حجم وطبيعة نفقات الأنصار . فلم يكن المهدي يملك جيشاً من العسكريين و المدنيين يضطر إلى دفع رواتبهم شهرياً حتى يحفظون له الولاء . أما العامل الرابع فهو نجاح المهدي في كسب تأييد الرعاة من قبائل كردفان الذين لم يشدوا من عضده ليسيطر على مديريتهم فحسب . بل ساروا معه حتى تمت له السيطرة على الخرطوم .

المشكلة المالية :

بدأ المهدي معركته في جزيرة أبا وهو خالي الوفاض ، يملؤه الإيمان الصادق بالدعوة، وإحتقار عنيف للملذات الدنيوية من مال وجاه ومنصب . إلا أن هذه الأسلحة لم تكن وحدها كافية لإنزال الهزيمة بقوات الحكومة على الدوام . فاستعان أنصاره بسيوفهم وحرابهم لمواجهة نيران قوات رؤوف باشا .

ولم تبرز في ذلك الوقت مشكلة إمداد الأنصار بالمال لمعيشتهم فقد كانوا بضعة مئات يعيشون مع أسرهم بالوسائل التي درجوا عليها .

إلا أن الهجرة إلى الغرب وما تبعها من تكاثر أعداد مؤيديه ، وتوسع نشاطهم قد حتم عليه أن يجد وسيلة ما لتمويل الدعوة . فلكي تبقى تلك الجموع المؤلفة في معيشته كان عليه أن يوفر لهم سبل الحياة إذ هاجر أغلبهم من دياره وفقد بالتالي مصدر معيشته .

لم تكن أمامه وسيلة سوى استنفار الموسرين من أتباعه ليجودوا بما يفيض عن حاجتهم . فوجه لهم المنشورات والرسائل التي تحثهم على نبذ مظاهر البذخ والترف والإكتفاء بالقليل الذي لا بد منه . وقد جاء في إحداها قوله ((... إنكم بايعتم الله ورسوله وبايعتموني ورضيتم بي وببيعتي على نصرة الدين ، فقد قبلتكم ، ونسأل الله أن يقبلكم ، ولكن لازم تعملوا بما يرضيني من البذل للنفس والغيبة عنها لله ورسوله ، فإنه على قدر الغيبة عن الحسن يزيد العبد من الملكوت القدسي ، فأقللوا من النظر إلى ظاهركم ، لترنوا من القدسي الملكوتي الذي يدوم لكم ، وليكن نظركم في خدمة ربكم فقط ، فإن حب المال والجاه الذي هو إصلاح ظاهركم فان وعلى قدر الأمل في ذلك والإكثار يظلم القلب ، ويشترك في النصيب الشيطاني كما ورد أن حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينب الماء السبقل ... [117]وكان يكرر لهم دوماً قوله تعالى ((هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم)) فالتضحية بالمال تأتي قبل النفس . وعليهم أن يتخذوا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم أمثال عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان قدوة يحتذون بها في هذا المجال . فقد كانوا يصرفون من مالهم الخاص لتجهيز الجيوش ((وكان الذي لا يقدر على ذلك يجهز المايه وبعضهم الاثنين والثلاثة حتى يكون البعض الذي لا تطوله أيدي الصحابة يجهز من بيت المال..))[118].

ولم يكن المهدي يستولي على أموال أتباعه عنوة بل كان يسعى عن طريق الوعظ والمنشورات لإقناعهم بتقديمها لبيت المال من تلقاء أنفسهم ، ولكن هناك حالة واحدة اعتبر فيها الاستيلاء على أموال الأنصار مباحاً ، وهي تنطبق على أولئك الذين أقاموا في أحد المواقع تعرضت للحصار ، إلا أنهم خرجوا للمهدي قبل سقوط الموقع . في

(117) المهدي إلى أحبابه المذكورين ومن تبعهم ، جمادى آخر 1300 إنذارات ب ص 65-6 .

(118) المهدي إلى حبيبه في الله عمر الياس وآخرون 13 جمادى آخر 1300 إنذارات ب ص 9-67 .

هـذه الحالـة ((تغنـم جميـع أشـيائهم التـي بالقفـرة وتـترك التـي خرجـت معهـم كـثرت أو قلـت[119].

ورغـم أن المهـدي أعطـى تجـرد أصحابـه مـن ثرواتهـم الخاصـة بعـض الأهميـة ، كـما تـدل رسـائله ، إلا أنـه بـلا شـك لم يكـن مصـدر تمويلـه الرئيـسي . كان مـن الطبيعـي أن يواكـب إنتصاره العسـكري عـلى قـوات الحكومـة في عـدة مواقـع امتلاءاً في خزينتـه . ولقـد جـاء أول الغيـث مـع هزيمـة راشـد أيمـن حـين تمكـن مـن الإسـتيلاء عـلى مـا كان بحـوزة حملتـه مـن مـال وعندمـا جـاءت هزيمـة يوسـف الشـلالي غنـم منهـا ((شـيئاً كثـيراً مـن النقـود)).

ولعـل كسـب المهـدي الأكـبر قـد جـاء بعـد سـقوط الأبيـض حيـث إسـتولى عـلى خزينـة الحكومـة بالإضافـة إلى الأمـوال الخاصـة ، إذ كانـت الأبيـض مركـزاً تجاريـاً هامـاً جذبـت عـدداً كبـيراً مـن الأجانـب الذيـن تمكنـوا مـن جمـع ثـروات واسـتوطنوا بالمدينـة .

ويصـف أحـد شـهود العيـان الأمـوال التـي اسـتولى عليهـا الأنصـار عنـد دخولهـم بقولـه ((أمـا جهـة الغنايـم التـي جمعهـا أحمـد ولـد سـليمان بخـلاف الـذي أخـذو الأعـراب مـن الذهـب الغشـيم والفضـة شيء لا يوصـف وأمـا مـن العملـة مـن الجنيهـات ، والفـرج اللـه ، والبندقـي ، والمجـر ، والمحمودية والمجيدية ، والخيريـة ، والربيعيـة عملـة الذهـب شيء كثـير خـلاف عملـة الفضـة المجيـدي وأبوشـنيكو ، والمـصري ، وأبـو مدفـع ، وأبـو مسـلا ، والطـبر، والدمـج ، مـال لا يأكلـه الـتراب جميعـه بيـد أحمـد سـليمان أمـين بيـت المـال بخـلاف سلاسـل الذهـب الكيـس في الكيـس لغايـة سـقف المربوعـة .

ويبـدو أن بعـض أتبـاع المهـدي قـد تمكنـوا عنـد سـقوط المدينـة مـن الاسـتيلاء عـلى بعـض الأمـوال كـما ذكـر هـذا المصـدر .

ومـا لبـث المهـدي أن اصـدر منشـوراً يحذرهـم فيـه مـن مغبـة هـذا الفعـل ((فتابـوا ورجعـوا عـن ذلـك وأوردوا بيـت المـال كثـيراً مـن الأمـوال والرقيـق والمصاغـات))[120].

وكان المهـدي صارمـاً في مسـألة الغنائـم هـذه ، حريصـاً أشـد الحـرص بـأن تعـود بكاملهـا لبيـت المـال ، وقـد كتـب في تبريـر هـذا عـدة منشـورات ورسـائل فهـو يخاطـب مجموعـة مـن قادتـه في هـذا الأمـر قائـلاً ((أحبـابي إنـه لا يخفـى مـا كررنـا عليكـم فيـه والأمـور كلهـا

(119) المهدي إلى محمد الخير عبدالله خوجلي - أحكام ص 216 - 22.

(120) المهدي إلى محمد الخير بن عبدالله خوجلي 3 صفر 1302 إنذارات ب ص 203 - 13.

بيد الله وهو القائل لأعدائه لا أنتم ولا غيركم وإنما ساقكم للجهاد ...)) . وقد تشدد معهم في هذا إلى درجة أنه قال ((... من خبأ شيئاً من الغنائم ولو قليلاً فليس من أصحابنا وإنما هو من أصحاب إبليس والدجال))[121].

تمكن المهدي أيضاً من الإستيلاء على الأموال التي كانت بحوزة حملة هكس باشا، وتلك التي وجدت في خزينة بربر . ويبدو أن ما حدث في الأبيض من أمر إستيلاء بعض الأشخاص على الغنائم تكرر في بربر . فما كان من المهدي إلا أن أرسل أوامره الشديدة لإسترجاع تلك المبالغ التي قدرها معاونه أمين بيت المال بمائة وواحد وستين ألف ريال وثلثمائة وخمسة وسبعون .

وقد أمر المهدي ألا يترك في حوزة من استولوا عليها ديناراً أو درهما ((ومن أخر شيئاً من ذلك يؤخذ منه كرهاً يخرج أسمه من دفاتر أنصارنا)).

كانت نفقات المهدي تنحصر أساساً في إعاشة المحاربين من أتباعه الذين يثبت فعلاً أنهم لا يمتلكون ما يقتاتون به ، فيقوم بيت المال بالتكفل بضرورياتهم من مأكل ومشرب وملبس [122]. أما الأسلحة فلم يكن يصرف عليها كثيراً ، إذ أنه استفاد من تلك التي غنمها من المعارك السابقة ، والمواقع التي استسلمت له ودياً ، وكان بدوره يقوم بتوزيعها على من يستحقها من المجاهدين ، شريطة أن يكون إيمانه بالمهدية لا يرقى إليه الشك .

مشكلة الغذاء :

لم تبرز قضية الغذاء عند الأنصار كأزمة بالصورة التي عاناها سكان الخرطوم طوال مدة حصارهم للمدينة . وهذا يعود إلى موقف المهدي المبدئي من مسألة ملذات الدنيا وأهوائها . إذ آمن بأن المسلم الحق هو الذي يكرس جل وقته لذكر الله ورسوله ولا يجعل لقضايا الرزق وكيفية الحصول على الطعام تشغله عن هذه الغاية [123].

وما فتئ المهدي يذكر أتباعه بهذه التعاليم حتى أصبح أمر ماذا يأكلون أو كيف يأكلون لا يستحوذ إلا على قدر قليل من إهتمامهم . لم يكن المهدي يدعوهم بالطبع

---

(121) المهدي إلى محمد عثمان أبي قرجة وعمر الياس وآخرين محرم 1301 إنذارات ب ص 79 – 81.

(122) المهدي إلى محمد الخير عبدالله خوجلي ، أحكام ص 216-22 .

(123) المهدي إلى عبدالرحمن النجومي ، عبدالله النور ، محمد عثمان أبو قرجه ، ذو الحجة 1301 (قبل 20 أكتوبر 1884) إنذارات ب ص 225-37.

إلى المـوت جوعـاً ، بـل إلى الاكتفـاء بالقليـل الـذي يسـد الرمـق ، وبذلـك الغـذاء البسـيط الـذي لا يتطلـب توفـيره جهـداً يعوقهـم عـن الغـرض الأسـاسي مـن الدعـوة .

ولقـد حـرص قادتـه أشـد الحـرص عـلى الالتـزام التـام بتلـك المبـادئ ، حتـى أنهـم كانـوا يستشـيرونه متـى مـا أجبرهـم طـارئ عـلى الحيـاد عنهـا .

فكتـب لـه نفـر منهـم ذات مـرة يقـول ((... ثـم سـيدي إننـا حضرنـا بجهـة منـدروان اخوانئـا الفقـراء لمـا رأينـا مأكولهـم البليلـة فقـط اذناهـم بتعاطـي قليـل مـن البصـل والويكـة والسمسـم ومـع ذلـك أنـه ليـس موجـوداً ، وقـد رأينـا ذلـك ليـس مخلصـاً عنـد اللـه تعـالى بـلا رفـع الأمـر لسـيادتكم ، وحيـث أن الأخـوان حاصـل لهـم التعـب ولا معنـا هنـا سـوق يشـترون منـه الملاح والملـح ، والآن معنـا أبقـار قليلـة فالتزمنـا بتحريـر هـذا العـرض لسـيادتكم راجـين الإذن في راحـة الأخـوان مـما عندنـا الآن مـن البقـر القليلـة وفيـما يوجـد الآن فصاعـداً مـن الأصنـاف المذكـورة والمسـامحة فيـما مـضى ، وأن تبينـوا لنـا الجايـز تعاطيـه منهـا والممنـوع لسـلوك طريـق الرشـاد))[124] .

تكشـف هـذه الرسـالة حـزم وصراحـة المهـدي في ألا يقتـات أتباعـه إلا بأبسـط الغـذاء ، حتـى أن قادتـه يستشـيرونه ويطلبـون الإذن إذا مـا ابتغـوا إدخـال بعـض العنـاصر إلى وجبـة طعامهـم . ونلاحـظ التـزام المهـدي مـرة أخـرى في الـرد الـذي بعـث بـه ((... وأمـا البصـل والسمسـم والويكـة وغيرهـا مـن المأكـولات فجايـز للمجاهـد أن يأخـذ لـضرورة مـن غـير ادخـار وتمـول ، فـالأكل في بطنـه لـه جايـز كـما فعـل ذلـك أصحـاب رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم بـإذن منـه وأمـا البقـر فإنهـا متمولـه فاذبحـوا لـلأكل بـالإذن لـزوم الـضرورة[125] .

وكذلـك حـرص المهـدي عـلى التشـديد عـلى قادتـه بـالا ينصرفـوا إلى أمـر تدبـير الطعـام ويهملـوا تنفيـذ مـا أمرهـم بـه ، إذ أن مـن شـأن ذلـك أن ((يدخـل في قلـوب الأصحـاب الالتفـات إلى غـير اللـه مـن حيـث لا تقصـدون ذلـك لأنكـم مقتـدى بكـم ومتبعـون وللنـاس حسـن ظـن بكـم لأنكـم مـن الأولـين السـابقين المشـار إليكـم مـن حضرتنـا كثـيراً) [126].

وعندمـا إشـتكى لـه عبدالرحمـن النجومـي وعبداللـه ودالنـور ومحمـد عثـمان أبي قرجـه مـن أن أولاد ود البصـير لم يسـتجيبوا للأمـر الـذي وجهـوه إليهـم بجلـب الـذره لمعسـكرات

(124) عبدالرحمن النجومي وحمدان أبي عنجه ، رجب 1301 أحكام ص 37-9.

(125) المهدي إلى عبدالرحمن النجومي وحمدان أبي عنجه ، رجب 1301 أحكام ص 37-9 .

(126) المهدي إلى عبدالرحمن النجومي ، عبدالله النور . ومحمد عثمان أبي قرجة . إنذارات ب ص 225-37 .

الأنصار كتب المهدي رسالة مطولة يلومهم فيها على طلب الرزق من غير الله . ((... وتعلمون أحبابي إنا لما كنا في أبا ما كانت لنا جهة نعرف اتيان رزقنا منها ، حتى هاجرنا منها إلى قدير بأمر سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، فكان ياتينا رزقنا من الله من حيث لا نحتسب كما جعل الله رزق المتقين من حيث لا يحتسبون ، كما قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وكذلك على طريق الهجرة إلى قدير حيث نزلنا به فلا نعرف وجهة أتيان الرزق إلا من الله ، وإن حبس الله علينا الرزق حمدنا إيثاراً لما عند الله وإقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ... فعلى ذلك حتى أتينا بالأبيض فما رأيتم إلى طلبت قوماً عينتهم لأن تأتي أرزاقنا منهم ، ومع ذلك فنفر عن الدنيا وعن الإلتفات إليها ويأتينا رزقنا من حيث لا نحتسب)).

ومن الواضح أن المهدي لم يرمي من وراء هذا إلى القول بأن السماء ستمطر لهم غلالاً لإعاشتهم ، وعليهم ألا يحركوا ساكناً في انتظار هذا الرزق الموعود ، بل كان يرمي إلى ألا تكون قضية الطعام أمراً يقتتل عليه ، وتصبح مجالاً للشكوى بين القادة . كان يسعى دوماً لتذكير أتباعه بألا تستحوذ مسألة توفير الطعام على تفكيرهم حتى لا تعطى الأسبقية على الجهاد والقيام لنصرة دين الحق . فتعرض لهذا في ندائه للقبائل لتشارك في الزحف نحو الخرطوم بقوله ((بادروا واسرعوا للسفر ولا يهمكم شيء من الزاد بل يرزقنا الله الملك الخلاق)).

فإذا كان المهدي قد أهاب بالمجاهدين بصرف النظر عن كيفية إعاشتهم فقد تصدى بنفسه لمعالجتها . فكان يحرر الرسائل لقادته الذين يوفدهم للجهاد مبيناً وسيلة تأمين الرزق. بين هذه رسالته التي بعث بها إلى عبدالرحمن النجومي ، يطلب منه الاستعانة بأبي قرجه ومحمد عثمان حاج خالد ليوجهوا أتباعهم لجلب الذرة إلى معسكرات الأنصار حول الخرطوم [127].

وقد إستجاب أبوقرجة لهذا النداء، فأخذ أنصاره يجمعون الذرة من القرى الواقعة على ضفتي النيل الأزرق بواسطة الباخرة ((محمد علي)) التي استولوا عليها عند تسليم صالح المك في فداسي .

(127) المهدي إلى عبدالرحمن النجومي ، فيوضات 178/3 .

ولقـد واظـب بعـض دعـاة المهـدي في سـنار عـلى جمـع الغـلال الموجـودة في منطقتهـم وإرسـالها إلى القـوات المرابطـة حـول الخرطـوم .

ومـن هنـا جـاء وقـوع منطقـة الجزيـرة تحـت سـيطرتهم عامـلاً هامـاً في وفـرة الغـذاء في معسـكراتهم . ولم تنشـأ أيـة أزمـة في الغـلال إلا بعـد وصـول تلـك الجمـوع الهائلـة التـي صاحبـت المهـدي .

ورغـم هـذا لم تختـف مـن الأسـواق ، بـل ارتفعـت أسـعارها بصـورة خياليـة لم تألفهـا البـلاد مـن قبـل .

أمـا العامـل الحاسـم الـذي جنـب المهـدي شرور المجاعـة فهـو إسـتنفاره لبقـارة كردفـان، فسـاروا في ركابـه بـكل مـا يملكـون مـن مـواشي . فـكان أن توافـرت اللحـوم بأسـعار زهيـدة طـوال أشـهر الحصـار ، وكانـت خـير تعويـض لهـم عـن نـدرة الغـلال .

الفصل الخامس

عوامل حاسمة في تقرير نتيجة الحصار

الفصل الخامس
عوامل حاسمة في تقرير نتيجة الحصار

لم يكد يمضي وقت طويل على وصول غوردون حتى تحددت معالم القضية التي يصطرع حولها الفريقان ، تلك القضية التي هي في جوهرها محاولة كل فريق ليسيطر على السودان بأكمله عن طريق إستلامه لمقاليد الحكم في الخرطوم .

ورغم أن العوامل التي من شأنها أن تحسم الصراع كانت تكمن بالدرجة الأولى في المسائل الإدارية والعسكرية إلا أن هناك عاملين لا يجب إغفالهما : أولهما الأسلوب الذي اتبعه كل من غوردون والمهدي لتدعيم موقفه بكسب مزيد من التأييد مع المحافظة على قواعده الجماهيرية وتوثيق العلاقة بينه وبينها ، هذه العلاقة التي من شأنها أن تخلق نوعاً من الترابط والألفة لا غنى عنها لكل من وجد نفسه في ذلك الموقف . أما ثاني هذه العوامل فهو المسلك الذي إتخذه كل فريق تجاه الآخر ، ذلك المسلك الذي لعب دوراً بارزاً في تعقيد الأزمة والوصول بها إلى نقطة يستحيل التراجع منها ، وكان لا بد أن تستخدم القوة لتحسم الصراع .

غوردون وأعوانه :

كان غوردون يستمد قوته من التأييد المعنوي والمادي الذي تسبغه عليه حكومتا الخديوي وصاحبة الجلالة ، بالإضافة إلى الدعم العسكري الذي يلقاه من القوات الأجنبية والسودانية التي كانت ما تزال تحفظ الولاء القديم لحكام الخرطوم، وبعض المدنيين من الأهالي ورعايا الإمبراطورية العثمانية ، ورغم أن هذا الوضع قد أمن له السيطرة على الخرطوم في بادئ الأمر ، إلا أن فشله في إستقطاب أي تاييد خارج المدينة جعل تلك السيطرة أمراً مؤقتاً . ولقد شرع غوردون فور وصوله في توزيع المنشورات على مشايخ قبائل المنطقة ، والزعامات الدينية فيها موضحاً لهم تفاصيل الخطة الإصلاحية التي ينوي تنفيذها.

ثم أوفد ستيورت في رحلة إلى منطقة النيل الأبيض لذات الهدف ، ورغم أن هذه المنشورات قد فقدت إلا أن الوقائع تثبت أن المهدي كان أقدر على بسط نفوذه بين تلك الجماعات . ولا يستبعد أن يكون أسلوب غوردون في مخاطبة هؤلاء ضمن الأسباب التي أدت لذلك الفشل ، إذ تميز أسلوب معاملته لأعوانه داخل الخرطوم بالتحامل وعدم التقدير، فقد كان يعتقد أن في مقدوره التصدي بمفرده لكل مشاكل الحصار ، وجاءت – بالتالي – إستفادته من الآخرين وتجاربهم ضئيلة. بل أنه سعى في حالات

بعينهـا للتخلـص مـن شـخصيات كان يمكنهـا أن تلعـب دوراً فعـالاً وعمليـاً في صمـود المدينـة والدفـاع عنهـا.

جـاء غـوردون إلى السـودان وهـو لا يصحـب معـه مـن الجنـد أو الإداريـين سـوى سـتيورت باشـا ، وإبراهيـم فـوزي ، ولم تكـن المهمـة التـي أوكل أمـر إنجازهـا مـن اليـسر أو الوضـوح بحيـث يمكـن تنفيذهـا بواسـطة هـذا العـدد الضئيـل ، ربمـا توقعـت حكومـة الخديـوي أن يجنـد غـوردون لخدمتـه بعـض الرجـال الذيـن مـا زالـوا في الخرطـوم أمثـال الكولونيـل دي كتلوجـن الـذي وجـده غـوردون قائمـاً بأمـر وكالـة الحكمداريـة خلفـاً لحسـين باشـا سري .

إلا أن غـوردون سـارع بعـد يومـين مـن وصولـه يأمـره بمغـادرة البـلاد ، إذ أن خدماتـه لم تعـد مرغوبـة . وقـد بـرر هـذا الإجـراء بـأن العمليـات العسـكرية التـي كان يسـهم فيهـا دي كتلوجـن قـد أوقفـت . ولعلـه قـد تـسرع في إقـرار هـذه الحقيقـة إذ أنهـا مـا لبثـت أن اسـتؤنفت بعـد أقـل مـن شـهر مـن صـدور هـذا الأمـر ، وحتـى إذا اعتـبر رأي غـوردون هنـا سـليماً ، فقـد كان بإمكانـه الإسـتفادة مـن دي كتلوجـن في النواحـي الإداريـة التـي لا بـد أن تتطلبهـا عمليـة الإخـلاء بـكل تعقيداتهـا ومشـاكلها .

ولم يكـن بالخرطـوم ، مـن ناحيـة أخـرى ، كثـير مـن أصحـاب المعرفـة والخـبرة في هـذا المجـال ، فلـم تسـتوعب حملـة هكـس باشـا كل مـن لـه مقـدرة عـلى القتـال فقـط ، بـل أولئـك الذيـن يمكـن أن يـؤدوا مهامـاً إداريـة .

كان مـن بـين الذيـن صحبـوا هكـس باشـا وقتلـوا معـه كل مـن عـلاء الديـن باشـا وكيـل الحكمداريـة الـذي خلـف عبدالقـادر باشـا حلمـي ، ومحمـد بـك أحمـداني مديـر الخرطـوم ، وبسـاطي بـك المحـسي باشـكاتب المديريـة . وبقـي في المدينـة كل مـن حسـين باشـا سري وكيـل الحكمداريـة وإبراهيـم حيـدر باشـا لـواء العسـكرية . ولكـن غـوردون أبرقهـما قبـل وصولـه الخرطـوم يأمرهـما بالتوجـه فـوراً إلى مـصر .

لم يكـن دي كتلوجـن الرجـل الوحيـد الـذي شـاء غـوردون ألا يسـتفيد مـن خدماتـه ، فقـد تجاهـل عـدة عـروض تقـدم بهـا بعـض الأوروبيـين الذيـن كانـوا مـع المهـدي للعمـل معـه . وقـد اتخـذ هـذا الموقـف عـلى أسـاس أنـه لا يثـق في الشـخص الـذي يتخـلى عـن دينـه مـن أجـل إنقـاذ حياتـه .

وكان مفهومـه أن أولئـك الأوربيـين قـد إعتنقـوا الإسـلام وسـاروا في ركاب المهـدي مـن أجـل حمايـة أنفسـهم مـن الهـلاك فأصبـح الديـن بالنسـبة لهـؤلاء رداء يمكـن إسـتبداله في أي لحظـة وفي الوقـت المناسـب . ولم تفلـح كل المحـاولات التـي بذلوهـا لينالـوا فـرص

لشرح وجهة نظرهم . فقد بعث له سلاطين بثلاثة خطابات قوبلت بالتجاهل التام ، ولم تشفع له قولته إنه قد حارب سبعاً وعشرين معركة ضد الأنصار ، ولم يرتكب في حياته ما يشين إلى الحد الذي يمنع غوردون من الرد على رسائله .

كان يمكن أن يؤدي سلاطين خدمات جليلة للمدينة سواء من الجانب الإداري أو العسكري ، إذ عاصر المهدي لفترة مكنته من الإلمام بتفاصيل أساليبه الحربية ونفوذه المعنوي وعدته وعتاده .

ومع تقدم الحصار واشتداد ضغط الأنصار واجهت غوردون مشكلة جديدة تتمثل في صعوبة إيجاد شخص مؤتمن يحمل رسائله إلى مصر . وهنا طلب سلاطين من غوردون أن يبعث له بمكاتباته وسيجد هو وسيلة ما لإرسالها لوجهتها ، إلا أن غوردون قرر ألا يتيح له هذه الفرصة .

وشاء غوردون أيضاً الاستغناء عن رجل كان بمثابة ساعده الأيمن ، وهو ستيورت باشا ، فدفعه لمغادرة المدينة في وقت حرج ، ولابد أنه لم يضع في الإعتبار إحتياجات الخرطوم البشرية في ذلك الوقت بالذات ، إذ كان شهر سبتمبر بداية لمرحلة أكثر عنفاً في تاريخ الحصار . فقد وصل عبدالرحمن النجومي بجيوشه وعسكر خارج بوابات الخرطوم في إنتظار جموع أخرى في طريقها إليه . فتضاعفت بهذا مشاكل غوردون وأصبحت فوق مقدرته وحده كما اعترف بنفسه فيما بعد . وربما كان رائده في إرسال ستيورت هو محاولة إنقاذ الآخرين من مصير مجهول ، وكان لا بد لغوردون أن يجند كل الطاقات الموجودة لديه حتى يتمكن من إيجاد مخرج لهم .

ولقد علق غوردون بعد سفر ستيورت مباشرة بأنه يحمل فوق أكتافه كل مسئولية الحصار ، فهو يشرف على الجنود وتدريبهم ، ويقوم بتفتيش الطوابي ، ويخطط للعمليات العسكرية ، ويراقب التموين والمالية ، ويشرف على المرضى وكان يحس أنه في حاجة ماسة للمعاونة إلا أنه لا يجد بين موظفيه من يمكن الاعتماد عليه في أداء واجب ما خارج عمله الروتيني ، وقد كشف غوردون في عدة مواقف عن رايه في أعوانه ، ففي الواقع لم يكن يضع ذرة من الثقة في العسكريين منهم ، بل أعلنها صريحة أنه من خلال تجاربه الطويلة لم يلتق بضابط أو جندي أكثر ضعة من الجندي المصري ، أما الباشبوزق الأتراك فهم عديمو الفائدة ولا أمل يرجى منهم على الإطلاق ، ثم وصف عساكر الشايقية بأنهم يفتقرون إلى الحد الأدنى من الشجاعة المطلوبة في الجندي ، وهم فوق هذا مترددون متخاذلون ، ولا توجد فئة من البشر في العالم بأسره يمكن أن يستنفد الصبر مثلهم .

ولا بـد للمـرء أن يتسـاءل إذا كان هـذا هـو رأي غـوردون في قواتـه المحاربـة أمـا كان الأجـدر أن يخضـع الأمـر برمتـه للمراجعـة ، إذ لا يسـتقيم تقييمـه لهـؤلاء مـع تصميمـه عـلى القتـال، ولا بـد أنـه لم يكـن يـرى بارقـة أمـل في إحـراز النـصر ، وكان الإجـراء المنطقـي في هـذه الحالـة هـو قبـول دعـوة التسـليم التـي كثـيراً مـا وجهـت إليـه .

إلا أن إصرار غـوردون عـلى الاحتفـاظ بالمدينـة والدفـاع عنهـا ، يثـير ظـلالاً مـن الشـك حـول عدالـة تلـك الأحـكام التـي أطلقهـا . ولعـل الموضـوع بنهايـة الأمـر ، هـو مبالغـة في مقدرتـه الذاتيـة ، وإعتقـاده الشـخصي بأنـه ليـس هنـاك مـن يسـتطيع أن يـؤدي عمـلاً بالوجـه الأكمـل كـما يفعـل هـو . ولقـد أثبتـت الوقائـع بعـض الإشراقـات لجنـوده الذيـن خاضـوا معـارك كثـيرة ضـد الأنصـار ، وتمكنـوا مـن الإنتصـار في بعضهـا رغـم كل النقائـص التـي تعـاني منهـا الحاميـة . كذلـك أظهـر بعـض الضبـاط مـن الشـجاعة والبـأس مـا جعـل غـوردون ينعـم عليهـم برتـب وألقـاب مختلفـة ، مـن بـين هـؤلاء محمـد نصحـي باشـا ، ومحمـد بـك طلعـت ، وحسـين بـك بهنسـاوي ، وإبراهيـم بـك فـوزي . كـما أن رجـلاً مثـل خشـم المـوسى بـك لا يمكـن أن يوصـف بالـتردد أو التخـاذل ، فقـد عمـل بهمـة في الدفـاع عـن المدينـة أثنـاء وجـوده فيهـا ، وأدار ظهـره لـكل المحـاولات التـي بذلهـا أعـوان المهـدي في منطقـة الخرطـوم شـندي لحملـه عـلى هجـر معسـكر الحكومـة ولانضـمام إليهـم .

لم يسـلم رجـال الحكومـة البريطانيـة بمـا فيهـم ممثلهـا في القاهـرة مـن حمـلات التشـهير العنيفـة التـي كان يشـنها غـوردون ، ولعـل هجومـه المتواصـل عـلى بيرنـج قـد خلـق نوعـاً مـن التوتـر اسـتحال معـه التعـاون المثمـر . ((لابـد أنـه قـد أخفـى برقيـاتي)) هكـذا كتـب غـوردون مشـيراً لبيرنـج ((وهـذا عـلى أيـة حـال لا يدهشـني)).

ولم يخـف غـوردون حقيقـة مشـاعره تجـاه رجـال وزارة الخارجيـة ، وكتـب يقـول أنـه لا يتصـور وجـود مجموعـة مـن الرجـال عديمـي الفائـدة كهـؤلاء بمـا فيهـم (كلارنـدون دربي ، دلـكي، جرانفيـل ، وإني أتعجـب كيـف تقـوم سياسـة بريطانيـا العظمـي الخارجيـة عـلى أكتـاف هـؤلاء)) .

كان غـوردون يتمتـع بميـزة شـخصية يميـل دومـاً إلى التقليـل مـن شـأن الآخريـن ، رؤسـاء كانـوا أو مرؤوسـين ، فجـاءت ثقتـه فيهـم ضئيلـة ، وتباعـدت الشـقة بينـه وبينهـم ، وفقـد عامـلي التضامـن والتعاطـف النفـسي اللذيـن مـن شـأنهما أن يسـاعدا كثـيراً ، خاصـة في ذلـك الموقـف الـذي وجـد نفسـه متورطـاً فيـه .

دبلوماسية المهدي :

درج المهدي منذ بداية دعوته على انتهاج أسلوب تميز بالتواضع واحترام الغير ، فهو يسعى إلى ترغيب الآخرين في المهدية بلا إرهاب أو عنف ن لذلك تمكن من إستقطاب تأييد جماهير القبائل السودانية التي حققت له إنتصاراته على راشد أيمن ، ويوسف الشلالي ، وتضاعفت أعدادها كرد فعل لإستيلائه على مراكز الحكومة في كردفان ودارفور ، فدحرت حملة هكس باشا في شيكان ، وواصلت نشاطها في أجزاء أخرى من البلاد . ولم تغر تلك الانتصارات المهدي ، بل التزم بنفس المسلك حتى يحتفظ بثقة مؤيديه إلى يتسكملوا المهمة بفرض السيطرة الكلية على البلاد .

كانت وسيلة المهدي الإعلامية لبث الدعوة هي المنشورات العامة والرسائل الخاصة، يبعث بها للجماعات والأفراد سواء كانوا من الذين عرفوا بتعاطفهم معه أو بعداوتهم له . وبمراجعة نماذج من هذه الخطابات يتضح أن المهدي لم يلجأ فيها لأسلوب الارهاب أو الاستفزاز ، بل كانت وسيلته الكلمة الطيبة التي لها – في أغلب الأحيان - سحر لا يقاوم . وقد أثبت هذا الإتجاه فعاليته وإيجابيته ، فاقتنع كثير من مشايخ القبائل وزعماء الدين بصدق الدعوة عند إستلامهم لتلك الخطابات .

وكان من بين الذين إتصل بهم المهدي عن هذا الطريق محمد عثمان بن محمد الحسن الميرغني ، زعيم الختمية بكسلا ، الذي عرف بمعارضته له ، وظل الوحيد من بين رجال الدين في السودان الذين وقفوا ضد المهدي وقاوموا دعوته إلى النهاية . ولم يكن رفض الختمية للدعوة سلبياً ، بل حاولوا القيام علناً بنشاط مضاد . فاستجابوا لدعوة الإنكليز عندما فطن هؤلاء إلى إمكانية زج النعرات الطائفية في المعركة ، فرافق محمد سر الختم المرغني – الذي كان مقيماً بمصر – بيكر باشا في رحلته إلى شرق السودان في ديسمبر 1883. وهناك طلبوا منه القيام بجولة يحاول خلالها إثناء رجال القبائل بالطرق السلمية عن مناصرة المهدي ، فأرسل هو وخلفاؤه ((إلى جميع العربان كتبا يخبرونهم فيها بأن هذا الأمر ليست إلا فتنة محضة وليس هناك المهدي ، وأمرهم بالرجوع عن هذه الحالة))[128] . وقد وجه رسالة شخصية لعثمان دقنة بذات المعنى، فرد عليه هذا الأخير معرضاً عن النصيحة ، وبعث بكل هذه الخطابات إلى المهدي حتى يتمكن من الوقوف على حقيقة الأمر.

بالإضافة إلى هذا كان نشاط خلفاء المرغنية ونسائهم في منطقة شندي على أشده، فما أن وصل أسطول غوردون الصغير المكلف بإستطلاع أنباء الحملة الإنكليزية حتى

(128) دفتر وقائع عثمان دقنة ، قسم السودان، مكتبة جامعة الخرطوم .

تعاونـوا معـه في إجـراء سلسـلة مـن الإتصـالات تهـدف لحمـل رجـال القبائـل عـلى هجـر المهـدي والرجـوع مـرة أخـرى إلى طاعـة الحكومـة [129].

لم تـثن هـذه الوقائـع المهـدي عـن محاولـة خلـق وشـائج المـودة المبنيـة عـلى السـعي لكسـب محبـة اللـه بينـه وبـين زعيـم المرغنيـة ، فهـو يصفـه بأنـه مـن ((أولـو الـشرف والمقام وذوي الألبـاب الذيـن قـال اللـه فيهـم إن في خلـق السـموات والأرض وإختـلاف الليـل والنهـار لآيـات لأولى الألبـاب الذيـن يذكـرون اللـه قيامـاً وقعـوداً وعـلى جنوبهـم ويتفكـرون في خلـق السـموات والأرض))[130]. ويفطـن المهـدي إلى أن حقيقـة كونـه زعيـمًا دينيـاً قـد تخلـق حساسـية مـن شـأنها أن تقـف عائقـاً في سـبيل إسـتجابته لنـداء المهـدي .

فيضمـن إحـدى رسـائله اعترافـه بتلـك الزعامـة ، وتقديـره لهـا ، ويخاطبـه بثقـة في علمـه بانـه ((... كمـن يطلـب رضـاء اللـه ولـو تقطعـت في ذلـك إربـاً وفاتـت عنـك جميـع المطالـب النفسـية بمـا تعلمـه مـن عظمـة اللـه ونعمتـه وشـدة عقابـه لمـن وقـع فيـه ، وكل ذلـك أنـت جنـد بـه وشـأنك أن تـربي مـن أتـاك هكـذا ....)) ويقـول لـه أيضـاً ((... وإنـك أعظـم مـن يقبـل النصـح تواضعـاً للـه الـذي خلـق وأحيـا وإليـه المرجـع ومـن أخـص المؤمنـين الذيـن يسـمعون القـول فيتبعـون أحسـنه ..)) [131]وأشـار إليـه بوضـع حـد لـتردده وتـرك لـه الخيـار ، فأمـا أن يهاجـر إليـه حيثـما يكـون ، أو يعـين نفسـه عامـلاً لـه ، ويشـنها حربـاً عـلى الحكومـة بجهتـه . ولكـن محمـد عثـمان لم يحـرك سـاكناً ولم تبـد منـه إشـارة تنـم عـن أنـه ربمـا يتخـذ موقفـاً مغايـراً ، ورغـم هـذا لم يشـأ المهـدي أن يغلـظ لـه القـول ، بـل ظـل يدعـوه ((حبيبـي في اللـه المكـرم محمـد محمـد عثـمان ..)) ويعاتبـه بأنـه كان أحـق بلقـاء المهـدي مـن عامـة النـاس ، لأنـه مـن المظنـون فيهـم الخـير ، أولئـك الذيـن لا يـرون في الدنيـا شـيئاً ، وإنمـا إشـتياقهم دومـاً إلى ذي الجـلال والإكـرام [132]. ثـم كـرر لـه ذات العـرض الـذي قدمـه لـه في الرسـالة السـابقة ، ووعـده بحسـن المعاملـة والأمـان الشـامل ((ووصينـا المذكـور وأخوانـه عليكـم بملاحظتكـم وشـمول النظـر فيكـم ومنـع التعـدي عليكـم مـن أي أحـد كان ، وعـدم حصـول أدنى ضرر بكـم ، لا في نفسـكم ، ولا في أموالكـم ، ولا في أحـد مـن جماعتكـم الخصوصيـين ، أمـا إذا صمـم محمـد عثـمان عـلى تجاهـل هـذه الرسـائل فسـيظل البـاب مفتوحاًلـه حتـى يأتيـه اليقـين . ويبـدو أن زعيـم المرغنيـة قـد تأثـر بهـذه المعاملـة ، ولم يشـأ

(129) جورنال الحوادث .

(130) المهدي إلى محمد عثمان بن محمد الحسن مرغني، محرم 1301 – إنذارات ب ص 8-164.

(131) المهدي إلى محمد عثمان بن محمد الحسن ، محرم 1301 – إنذارات ب ص 164-8 .

(132) المهدي إلى محمد عثمان بن محمد الحسن 9 شعبان 1302 إنذارات ب ص 294-7.

أن يـرد عليهـا بمواصلـة نشـاطه المضـاد ، وكان في هـذا مكسـباً للمهـدي ، فقـد نجـح عـلى الأقـل في أشـد معارضيـه عـلى التحفـظ ، واتخـاذ موقـف سـلبي مـن الدعـوة .

كذلـك اتصـل المهـدي عـن طريـق الرسـائل بالشـيخ محمـد الأمـين الضريـر رئيـس ومميـز علـماء السـودان الـذي كان مقيـماً في الخرطـوم وبقـي فيهـا حتـى سـقطت ، إلا أنـه نجـا مـن المذبحـة التـي أعقبـت دخـول الأنصـار . وقـد تضاربـت الروايـات حـول الوسـيلة التـي أمنـت لـه النجـاة ، فهنـاك مـن يقـول إن أخـاه عليـاً كان مـن قدامـى أعـوان المهـدي ، فسـعى إلى الإبقـاء عـلى حياتـه عنـد سـقوط المدينـة ، ولكـن مصـادر أخـرى ذكـرت أنـه لم يكـن ثمـة تفكـير لـدى الأنصـار لقتـل محمـد الأمـين ، لأنـه كان مـن مؤيـدي المهـدي ، وقـد أجـرى إتصـالات سريـة مـع آخريـن عـبر فيهـا عـن هـذا التأييـد . ورغـم تبايـن الروايـات فمـن المؤكـد أنـه قـد حـرر أكـثر مـن رسـالة يعلـن فيهـا رفضـه لدعـوة المهـدي جملـة وتفصيـلا ، وجـاءت إحـدى هـذه الرسـائل في وقـت متأخـر مـن الحصـار [133]وقـد كتـب لـه المهـدي عدة رسـائل شـارحاً لـه حقيقـة الدعـوة التـي يبـدو أنهـا كانـت مـا تـزال خافيـة عليـه . ورغـم أنـه لا يثبـت لقبـه الرسـمي في هـذه الخطابـات إلا أنـه يخاطبـه بتجلـة ((الأسـتاذ المعظـم الشـيخ محمـد الأمـين جعلـه اللـه مـن المكرمـين))[134].

وهـو يسـهب في إغرائـه لقبـول الدعـوة وإنقـاذ نفسـه مـن المهالـك حـين يقـول ((ولا تعـاون الظلمـة بعـد هـذا ، فإنـه لا يخفـاك مـا أحدثـوه في الإسـلام ، وقـد أخـبر النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم فيهـم بأخبـار كثـيرة ، ومثلـك تكفيـه الإشـارة)) وأراد المهـدي أن يؤكـد لـه اعترافـه بعلمـه فدعـاه ((سـلم الشريعـة المحمديـة المسـتفيض مـن رحمـة ربـه بالعلـوم النقليـة))[135]. ولعـل السـمعة الطيبـة التـي كان يتمتـع بهـا محمـد الأمـين كرجـل ديـن لـه أتبـاع ، ويمكـن أن يؤثـر تأثـيراً مبـاشراً عـلى موقـف فئـات أخـرى ، وهـو الـذي دفـع المهـدي لمعـاودة الإتصـال بـه والإلحـاح عليـه ليعـترف بـه ومـن جهـة أخـرى ، يبـدو أن تلـك الرسـائل قـد أدخلـت الطمأنينـة في نفـس محمـد الأمـين بالمهـدي ، لا يعاديـه ولا يضمـر لـه شراً ، ولعلـه لهـذا آثـر أن يضـع توقيعـه عـلى العرائـض التـي أرسـلت سراً إليـه .

حـاول المهـدي أيضـاً إسـتمالة زعـماء القبائـل الذيـن مـا زالـوا عـلى ولائهـم للحكومـة المصريـة بالترغيـب والمـدح . كان عـلى رأس هـؤلاء الشـكرية ، فكتـب المهـدي لهـم ممتدحـاً مـا عرفـوا بـه مـن حسـن تدبـير وتفهـم لأمـور الديـن والدنيـا ، ولا يعقـل أن يبقـى مـن

---

(133) الرسالة الموجهة إلى عبدالقادر إبراهيم وعبدالرحمن النجومي 23 ذو القعدة 1301 (13 سبتمبر 1884) ملحق ((ح)).

(134) المهدي إلى محمد الأمين إنذارات ب ص 32-7 .

(135) المهدي إلى محمد الأمين ، ربيع آخر 1301 ، إنذارات ب ص 94-8 .

هو في مكانهم بعيداً عن الدعوة الدالة إلى سكة الله ورسوله ((... فإذا بلغكم جوابي هذا وكنتم مصدقين كما أحسنا فيكم الظن بحسب مجاوبتكم وما أسررتموه من بعض الإحسان على الأهل بحسن الظن وكل ذلك لا يخلص الإنسان إلا صفاه وحسن تصديقه لما عند الله الذي يوجب إيثار ما عند الله ، فإن الذين كانوا حامدين على ما هم فيه من الجاه والمال واحتجبوا عن الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كانوا ينتظرونه ويستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به خوفاً من فوات المال والجاه))[136] ولعل هذه الخطابات كانت ضمن الأسباب التي جعلت الشكرية ينقسمون على أنفسهم . فأعلن جزء منهم تأييده للمهدي وساهم مساهمة فعالة في عمليات حصار الخرطوم منذ بدايتها .

وعمل المهدي أيضاً لكسب تاييد الشيخ العبيد ود بدر الذي كان يتمتع بمكانة دينية مرموقة ، ليس بين سكان منطقة الخرطوم وحدها ، بل في أنحاء متفرقة من البلاد . فأرسل له عدة مكاتبات حاول فيها أن يستميله إلى صفه بالحسنى وبلا استفزاز . وكان أن أعترف له في إحدى الرسائل بأنه من ((أعظم من يعد ويظن بالصداقة والإخلاص لما عند الله)) وجاء فيها أيضاً قوله ((وما عهدتك إنك تتباطأ على قدر هكذا مع إنك جد عارف بعظمة ما عند الله وخسة الدنيا وما فيها .. وإنك ممن لم يكن دينه على مرض فإن أصابه خير إطمأن به وإن أصابته فتنة إنقلب على وجهه ، بل أنت ممن يطلب ما عند الله ولو تقطعت أرباً أرباً وفاتتك جميع المطالب النفسية لما تعلم ما هو عند الله من العظمة التي لا توازيها جميع المطالب))[137]. ويصفه أيضاً بأنه ((من أعظم من يقبل النصح تواضعاً لله الذي خلق)). ((وإنك من أخص المؤمنين الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله أولو الألباب))[138]

وحتى عندما تجاهل الشيخ العبيد هذا الخطاب أعقبه المهدي بآخر والتزم نفس الأسلوب الذي اتبعه في الرسالة الأولى فجاء فيه ((... أنتم أهل دراية ومعرفة ، وقد علمتم إذا خلا القلب من غير الله يمتلئ نوراً ويفيض منه إلى خلق الله ، ولا شك أن الرباني المتمسك بالله كأمثالكم شأنه هكذا وسيماه وعلاقته هي عدم الخشية من

---

(136) المهدي إلى عبدالكريم أحمد أبو سن (وآخرين) ربيع أول 1301 ، إنذارات ب ص 91-40 .

(137) المهدي إلى العبيد ود بدر ، - إنذارات ب ص 129-32.

(138) المصدر السابق .

أحد غير الله ، وللآن أنتم معدودون عندنا لأجل ذلك ...))[139]. وبعد طول تردد أعلن الشيخ العبيد مساندته للمهدية ، فكان لهذا أكبر الأثر في حصار الخرطوم كما أوضحنا في غير هذا المكان.

أما أسلوب المهدي في معاملة أعوانه فقد ساعد إلى حد كبير في تماسك فريقه طوال مدة الحصار ، ولم تتزعزع ثقتهم فيه وإيمانهم به قيد أنمله ، فقد بقي رجل الدين الذي ينظر إليهم جميعاً كأنداد له لا يقلون عنه من حيث الفهم والدراية والمكانة عند الله طالما أنهم وهبوا أنفسهم في سبيل تلك الدعوة وهو القائل لهم . ((يا أحبابي إنكم قد صرتم من أنصار الدين وصرنا لسنا أولى به منكم))[140].

أما قادته العسكريون والإداريون فقد كان يضعهم في مصاف ذاته ، وقد اعتمد عليهم إعتماداً كاملاً في القيام بأمر الدعوة في مناطق كثيرة ووجه الأهالي إلى أتباعهم وعقد لواء أمورهم لهم .

وقد كتب في منشور تعيين أحد هؤلاء يقول ((... فنحن عيناه لأجل الجهاد في سبيل الله ، وإقامة دين الله ، وإحياء سنة رسول الله ، وأجزناه في قتال الترك الذين أمر الله ورسوله بقتالهم ... وحيث علمتم ذلك فإن المذكور ارسلناه إليكم لأجل أن تجتمعوا معه أنتم رهطه أجمعين ومن انضم إليكم من سائر القبائل من المسلمين أن توزروه وتنصروه وتقوموا معه بكامل المهمة والمروة ... فأطيعوا امره ونهيه فمن أطاع أمره فقد أطاعني ومن خالفه فقد خالفني ....))[141].

وقد جاءت مكاتباته مع قادته العسكريين تحمل اعترافاً كاملاً بجهودهم ، فقد ساهموا بكل طاقتهم لإحراز النصر ، وخاضوا المعركة تلو المعركة بدافع الإيمان الخالص فخاطبهم المهدي بقوله ((فجزاكم الله خيراً وإحساناً وشكر سعيكم وأحسن مآلكم ومالكم فإننا أحبابي شاكرون لفضلكم وعارفون لقدركم وندعو لكم بالخير والبركة وأنتم عندنا كبعض الجسم من نحو عين ويد وقد قرت بكم أعيننا ...))[142]. ولعل هذا الأسلوب قد دفعهم لبذل المزيد من الجهد والتفاني لاستكمال سيطرتهم على البلاد .

(139) المهدي إلى العبيد ودبدر ، إنذارات ب ص 137-9 .

(140) المهدي إلى عمر الياس ومحمد بن العريق ومن معهما من الأنصار 13 جمادى آخر 1300، إنذارات ب ص 67-9.

(141) المهدي إلى كافة قبيلة دار محارب غرب ، ذي الحجة 1299 ، إنذارات ب ص 45-6 .

(142) المهدي إلى عبدالرحمن النجومي ، وعبدالله النور ، ومحمد عثمان أبي قرجة ، إنذارات ب ص 37-225 .

كان بالطبع بين قادة المهدي من يخطئ ويلحق الضرر بنفسه وبالآخرين ، وكثيراً ماكان المهدي يتصدى لمعالجة هذه الحالات بشخصه ، فجاء اسلوبه خالياً من غلظة في القول أو اللوم العنيف ، مثال هذا ما حدث لمحمد النيل حامد عامله في الجزيرة الذي تهاون في بعض شئون الدين . فما كان من المهدي إلا أن بعث له بخطاب جاء فيه ((... حبيبي منذ أنك من أجل من سبق وتحقق عنا وعلم أن الراحة والعزة في دار الأبد وأن إرادة العلو والكثرة هو عين الإنقلاب من سواء الصواب ، وياحبيبي حيث أن لك أتباعاً بكثرة فعاين بهم ما تطلبه عند ربك ، و لا تعاين لطلب نفسك في وقتك فإن ذلك عرض زائل وقصد عند الله عاطل ، وحيث أني أعهد فيك الصفا واتباع سكة المصطفى وتعلم كثرة أتباع بعض الصحابة ولصدق طلبهم ما عند الله إتبعوا من هو دونهم أتباعاً وشجاعة وتدبيراً وذلك لصدق الطلب لما عند الله .. فيا حبيبي عامل إخوانك بالمعاملة التي ترجى بها ما عند الله وسارع بذلك إلى مغفرة الله ومحبته فإنك محتاج إلى ذلك))[143].

أتى هذا المسلك الذي انتهجه المهدي بأطيب النتائج ، فقد كسب به الرجال الذي اطمأنوا إليه لما عبر عن ثقة فيهم واحترام لهم . فازداد إيمانهم بالمهدي وجدوا في مؤازرته وهيأوا له سبيل النصر باستعدادهم للتضحية بأنفسهم وأولادهم وممتلكاتهم ، فشكلوا قوة دفع هائلة تمكنت في النهاية من فرض سيطرتها على السودان كله .

العامل الثاني:

أما العامل الثاني الذي كان له أثره في المعركة الفاصلة ، فهو مسلك كل فريق تجاه الآخر وأسلوب معاملته له ، كما كشفت عنها الرسائل التي تبودلت بين أمراء المهدي وغوردون وقادته ، وبين المهدي وغوردون أيضاً .

لجأ فريق غوردون إلى الإستفزاز ، والتحقير ، وهي في الغالب الأعم الأساليب التي يستخدمها من هو في موقف الضعف ، في حين حاول فريق المهدي تهدئة الخواطر باللين قبل الشدة . إلا أن إصرار الجانب الآخر على موقفه دفعهم إلى تصعيد عملياتهم العسكرية ومواصلة الضغط على المدينة حتى يتمكنوا من الاستيلاء عليها بالوسيلة التي اختارها حكامها .

غوردون وأمراء المهدي :

ونشأت علاقة بين غوردون وأمراء المهدي طوال مدة الحصار ، كشفتها لنا جملة الرسائل التي تبادلوها . ورغم أن بعض هذه الخطابات وجد مع يوميات غوردون إلا

(143) المهدي إلى حمد النيل حامد 1301 ، إنذارات ب ص 221-3.

أن من المرجح أن يكون بعضها قد فقد خاصة تلك التي تبودلت في الستة أشهر الأولى من الحصار . بين الرسائل التي وجدت مع اليوميات إثنتان من الشيخ عبدالقادر إبراهيم مع ردود غوردون إليه ، ولأن هذه قد بعثت خلال سبتمبر فلم يتمكن من وضعها مع الوثائق التي حملها ، ولعله قد فعل بالنسبة لتلك التي وصلته قبل هذا التاريخ والتي أشار إليها الشيخ عبدالقادر في رسائله الملحقة باليوميات [144].

كما أن نصحي باشا قد ورد في تقريره ملخصاً لأحد خطابات الشيخ عبدالقادر ، ومع مقارنتها مع النصوص يتضح أنها لا تطابق أياً منها، فلا بد أنه يشير إلى رسالة أخرى ما زالت مفقودة ، وجدت أيضاً مع اليوميات ثلاث خطابات من عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون مع رسالتين بعث بهما غوردون إلى عبدالرحمن النجومي .

تميزت هذه الخطابات بأربعة مظاهر ، أولها أن أمراء المهدي أبدوا دائماً حرصاً على مخاطبة غوردون بتقدير وإحترام . فاثبتوا لقبه الرسمي ، وأضافوا عبارات أخرى للتحية في بعض الأحيان ، ثانيها أنها قد تصمنت نداءات صريحة لغوردون ليسلم المدينة بلا قتال . ثالثها أنها قد أعطت غوردون وعداً قاطعاً بعدم التعرض له أو لسكان الخرطوم بسوء في أرواحهم أو ممتلكاتهم في حالة التسليم . ورابعها أنها لم تورد بشكل صريح مسألة اعتناق غوردون للدين الإسلامي كشرط مسبق لنجاته أو نجاة من معه .

فخاطبه عبدالقادر إبراهيم في رسالته الأولى بقوله ((سعادة غوردون باشا وإلى عموم السودان))[145] وإثبات لقب الوالي هنا لا يعني بالضرورة أنه يعترف به بصفته هذه ، إلا أنه أراد إثباتها لأنها لقبه الرسمي ولعل استجابة غوردون لهذه الروح كما كشفها رده للشيخ عبدالقادر جعلت الأخير يكتفي في رسالته الثانية بـ ((غوردون باشا)) فقط [146]والتزم عبدالرحمن النجومي وعبدالله بمخاطبته بـ ((غوردون باشا)) في أولى رسائلهما [147].وفي أخرى بـ ((غوردون باشا عزيز بريطانيا والخديوية))[148] ورغم أنهما قد اكتفيا في ثالثة بذكر إسمه مجرداً إلا أنهما امتدحاه في ذات الوقت بالقول ((أنت من أهل الفطانة والمعرفة العقلية))[149].

---

(144) عبدالقادر إبراهيم إلى غوردون ، غاية ذي القعدة 1301 (22 سبتمبر 1884) ملحق ب .

(145) عبدالقادر إبراهيم إلى غوردون باشا ، 18 ذو القعدة 1301 (10 سبتمبر 1884) ملحق أ .

(146) عبدالقادر إبراهيم إلى غوردون باشا ، غاية ذي القعدة 1301 (22 سبتمبر 1884) ملحق ب .

(147) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور ، 21 ذو القعدة 1301 (13 سبتمبر 1884) ملحق ج .

(148) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون باشا 2 ذو الحجة 1301 (24 سبتمبر 1884) ملحق د .

(149) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون 3 ذو الحجة 1301 (25 سبتمبر 1884) ملحق هـ .

ولقد أوضح الأمراء في أكثر من رسالة أن المعركة ليست بينهم وبين غوردون ، بل اعترفوا له بتعاطفه مع السودانيين بصفة عامة كما تجلى في سابق زياراته للبلاد ، فهم لا يضمرون له حقداً وليس بينهم وبينه عداوة شخصية . وقد ورد في إحدى رسائل الشيخ عبدالقادر قوله (... ومما نعلمكم به سعادتكم أن ما أنتم عليه من الحلم والشفقة على الأهالي وإكرامكم لنا نحن بالأخص معلوم عندنا ومثبوت بالفعال من إبتدى حلولكم بالسودان في المرات الأولى والثانية هذه وما أعلنتم به بالمنشورات الصادرة منكم حال حضوركم بالسودان هذه الدفعة صار معلوم عندنا وعند الخاص والعام))[150].

بدا جلياً أن الهدف من تلك المخاطبات كان حمل غوردون على التسليم وتجنب إراقة الدماء . وظل الأمراء يكررون هذه النداءات طوال فترة الحصار . فكتب الشيخ عبدالقادر يقول ((... وكنا قبل ذلك خاطبنا سعادتكم بالمرات العديدة وفي كل منها أوضحنا ما فيه الكفاية لمن له قلب وفي جميع المكاتبات أوضحنا لكم طريق السلامة والنجاة ، فلم تقبلوا ذلك ولم تنظروا إلى عواقب الأمور فيما دعوناكم إليه لأنه سبب لسلامتكم من عطب الدنيا والآخرة أنتم وأهل البندر لأن كثيراً منهم أحبابنا وأهلينا وقد تركتم ما أوضحناه لكم مراراً وتكراراً وصرتم تسمعون كلام العلما ...)).

وحاول الشيخ عبدالقادر أن يقنع غوردون من جانبه بصدق دعوة المهدي ، وأنه بحق المذكور في الكتب السماوية ولا مجال لنكرانه وإدارة الظهر له ، وهذا هو السبب الذي يقعده عن مساندة غوردون . ومن ثم أصبحت المفاضلة عنده بين خيارين : أما الانحياز إلى مباهج الدنيا التي يعرضها غوردون في شكل إحسانات وإنعامات ، وأما اختيار سكة الله ورسوله ، فاختار الأخيرة)) لم يتطرق الشيخ عبدالقادر إلى دين غوردون أو اعتبار التخلي عنه شرطاً مسبقاً للتسليم . بل يخطره بأنه قد حصل على تفويض من المهدي بالمحافظة على حياته وضمان سلامته الشخصية [151] ولن يتم هذا إلا في حالة تسليمه . يقول الشيخ عبدالقادر ((... بل النافع الرجوع للحق ونبذ الباطل بجميع أصنافه وتسليم الأمر لهذا الإمام عليه السلام ، فلا نجاة إلا في ذلك ، ولا سلامة إلا فيما هنالك ، فإن كانت لك محبة معي كما حكيتم فأقبلوا قولي وانتفعوا به وسلموا أنفسكم والمسلمين ..)) [152] إلا أنه يعود في رسالة أخرى لينقل له استعداده

(150) عبدالقادر إبراهيم إلى غوردون باشا ، 18 ذو القعدة 1301 (10 سبتمبر 1884) ملحق أ.

(151) عبدالقادر إبراهيم إلى غوردون باشا ، 18 ذو القعدة 1301 (10 سبتمبر 1884) ملحق أ .

(152) عبدالقادر إبراهيم إلى غوردون باشا، غاية ذي القعدة 1301 (22 سبتمبر 1884) ، ملحق ب .

لتأمين سفره إلى بلاده مع ستيورت باشا وسكرتيره إبراهيم بك رشدي متى ما أعلن تسليم المدينة له ، ومن جهة أخرى فقد أرسل عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور عدة نداءات لغوردون ليسلم . وأكدا له أن المهدي يعطيه وعداً بعدم التعرض لحياته أو حياة السكان أو ممتلكاتهم أو أموالهم . ولن يؤثر ما سبق من صدام مسلح بين الفريقين في وضعهم مستقبلاً في دولة المهدية بل سيتمتعون بنفس الحقوق ويلتزمون بنفس الواجبات [153].

ولكن استجابة غوردون جاءت على غير ما رغب الأمراء . حيث أوضح لهم أنه ليس على استعداد لمقابلتهم بتلك الروح التي برزت في خطاباتهم ناهيك عن قبول نداء التسليم ، فكانت رسائله استفزازية تحمل بين طياتها عبارات التحقير والاستهانة بهم . ولم يحاول في أي منها الإشارة إلى المهمة التي أوفد من أجلها ، بل أبدى إصراره على الدفاع عن المدينة مهما كلفه ذلك ، وأضاع بهذا الفرص المتكررة التي أتيحت له لإنقاذ نفسه ومن معه .

حرص غوردون على صياغة تلك الرسائل بنفسه مستعيناً بقاموس لديه [154] فجاءت أغلبها خالية من عبارات التحية والمجاملة التقليدية . فهو ، يخاطب الشيخ عبدالقادر باسمه المجرد [155] ويشير إلى المهدي بـ ((محمد أحمد)) [156] . وفي ردوده على عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور يتجاهل الأخير تماماً ويوجه حديثه للنجومي وحده [157] وعندما وصله خطاب من محمد عثمان أبي قرجة لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه ، لأنه حسب قوله لا يتراسل مع العبيد . ثم نعته في رسالة للنجومي بأنه سكير لا يتوقع منه أن يفلح في شيء خارج هذا المضمار [158] ولم يحاول غوردون إخفاء حقيقة رأيه فيهم ، فهم مجموعة لصوص وقاطعو طرق ((.... وإن كان إنسان له رغبة أن يعمل درويشاً فنحن لا نمنعه ومن جهة العلماء الذاكرين عنهم بأنهم

---

(153) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون باشا، 2 ذي الحجة 1301 (24 سبتمبر 1884) ملحق د .

(154) غوردون إلى عبدالرحمن النجومي 23 ذو القعدة 1301 (15 سبتمبر 1884) ملحق ج .

(155) غوردون إلى عبدالقادر إبراهيم، بعد 18 ذوالقعدة 1301 (10 سبتمبر 1884) ملحق أ .

(156) ملحق ((أ)) ، ((ب)) ، ((ج)) .

(157) غوردون إلى عبدالرحمن النجومي ، ملحق ج ، د .

(158) غوردون إلى عبدالرحمن النجومي، 2 ذو الحجة (1301) 24 سبتمبر 1884 ملحق د .

كذابين وكلامهم جميعه في غير محله فأنهم ما قالوا شيئاً إلا بحسب المنصوص عندهم في الكتب بل وجميع علماء الإسلام مصرحين بذلك ولم يرضوا أن يناموا على الأرض ويسلبوا الدراويش أمتعتهم وعنقريبات نيامهم ....)) [159]

أما محمد الخير عامل المهدي على بربر فقد استولى على الأموال العامة ليحولها لمنفعته الشخصية ، ووضح لأنصاره أن ((الأمور كلها غش في غش))[160]

لم يشر غوردون إلى أنه جاء للسودان لينفذ سياسة الإخلاء وسحب الجند والمدنيين إلى مصر ، بل أسبغ على نفسه صفة الحاكم على البلاد ((معين فيها .... من طرف دولتين عظام ولذلك مجبور على رؤية مصالحها بحسب ما تقتضيه شئون صداقتي وشفقتي على المسلمين))[161] . وهو يرهبهم بأن الحكومتين اللتين أوفدتاه قد أرسلت بجيوشها لضرب العصاة والمتمردين وإدخالهم في الطاعة قسراً ، وقد حاول معهم هذا الأسلوب لعله ينجح في حملهم على التراجع . فقال في رسالة أخرى ((ورد لنا جواب من رئيس جيش الإنكليز بأن الجيوش الإنكليزية التي وصلت لدنقلا قتلت الشريف الهندي والشريف محمود اللذين كانا أرسلا من طرف محمد أحمد لمحاصرة دنقلا ، وقتل كافة من معهم من الدراويش ومتوجهين دوغري – وأن الوابورات التي أرسلناهم بالاسبوع الماضي وصلوا لبربر فوجدوها قاعاً صفصفا ودخلوا فيها واستلموا الاثنين وابوبورات الموجودين فيها من سابق، وأن محمد الخير هرب من هنا)) [162]. أراد غوردون أن يشعلها حرباً نفسية على الأنصار ، فكان يعلنهم من حين لآخر بأنه سوف يشرع في ضربهم بكافة أنواع الأسلحة بما فيها الصواريخ التي لا بد ستحدث هزة أرضية عنيفة يخشى عليهم من نتائجها .

وكان غوردون يهدف من وراء تلك الرسائل إلى زعزعة ثقة الأنصار في أنفسهم ، فهم لن يتمكنوا من استلام مقاليد الحكم لأنهم لا يملكون السند الديني للدعوة ، إذ أفتى العلماء بأن محمد أحمد لا يمت بصلة من قريب أو بعيد إلى المهدي المذكور في الكتب السماوية، وهم لا يملكون السند الاجتماعي لأنهم ينتمون لطبقة من الدرجة الثانية ، وهم بالإضافة إلى هذا لا يملكون المقدرة العسكرية لمجابهة دول عظام تتفوق

---

(159) غوردون إلى عبدالرحمن النجومي ، 23 ذو القعدة 1301 (15 سبتمبر 1884) ملحق ج .

(160))غوردون إلى عبدالقادر إبراهيم ، 30 ذو القعدة 1301 (22 سبتمبر 1884) ملحق ب .

(161) غوردون إلى عبدالرحمن النجومي 23 ذو القعدة 1301 (15 سبتمبر 1884) ملحق ج .

(162) غوردون إلى عبدالقادر إبراهيم 30 ذو القعدة 1301 (22 سبتمبر 1884) ملحق ب .

عليهـم كثـيراً برجالهـا وعتادهـا . لم يدخـل هـذا الأسـلوب الرعـب في نفـوس الأنصـار – كـما تصـور غـوردون – بـل سـاعد عـلى إزديـاد حـدة التوتـر . فقـد تأكـد لهـم أنـه لـن يسـتجيب لنـداء التسـليم ، فشرعـوا في ممارسـة مزيـد مـن الضغـط عـلى المدينـة حتـى يسـتولوا عليهـا عنـوة .

أمراء المهدي وقادة غوردون :

لعـل الأسـلوب الـذي بـرز في رسـائل غـوردون مـن جهـة وأمـراء المهـدي مـن جهـة أخرى كان يعكـس فلسـفة بالنظـام الـذي يمثلـه كل فريـق . ومثلـما بـرز هـذا الإتجـاه في الخطابـات المتبادلـة بـين غـوردون والأمـراء والمهـدي بـرز أيضـاً في الرسـائل المتبادلـة بـين رجـال الحكومة والأنصـار . فجـاء هـذا ليـزكي نـار الاختـلاف ، فيـزداد كل فريـق تمسـكاً بموقفـه . ولعلـه مـن المفيـد هنـا مراجعـة بعـض تلـك الرسـائل وهـي تشـمل المجموعـة المتبادلـة بـين محمـد نصحـي باشـا ورجـال أسـطوله الصغـير المرابـط في جهـات شـندي والمتمـة وأمـراء المهـدي المنـوط بهـم القيـام بأمـر الدعـوة في تلـك الجهـات . بالإضافـة إلى خطابـات مـن أحمـد المصطفـى الأمـين ، والصديـق الطاهـر ، وحامـد ولـد إدريـس الشـايب ، عـمال المهـدي في منطقـة جنـوب أم درمـان ، إلى خشـم المـوسى بـك قائـد الباشـبوزق الشـايقية وعثـمان بـك قائـد طابيـة أم درمـان .

تميـزت هـذه الرسـائل بظاهرتـين ، أولهـما أنهـا في جملتهـا التزمـت الموضوعيـة في النقاش وصيغـت بأسـلوب خـال مـن أي اسـتفزاز أو غلظـة في القـول . فقـد سـعى الأمـراء لكسـب رجـال غـوردون بالترغيـب والتأليـف . ثانيهـما أنهـا حرصـت عـلى تأكيـد الأمـان وحسـن المعاملـة لـكل مـن يعلـن مسـاندته لهـم بـصرف النظـر عـما ارتكبـه في المـاضي في حقهـم . فكتـب محمـد الخـير عبداللـه خوجـلي خطابـاً موجهـاً إلى ((المـك خشـم المـوسى بك وسـعادة محمـد نصحـي باشـا)) [163] حـاول فيـه إقناعهـما بـأن المهـدي ليـس بمـدع ولا محتـال وإنمـا هـو قائـم بدعوتـه رفقـاً بالمسـلمين ومـن أجـل إنقاذهـم مـن المهالـك التـي تـردوا فيهـا ردحـاً مـن الزمـان . ويظهـر واضحـاً هنـا تاثـر محمـد الخـير باسـلوب المهـدي في الكتابـة حيـث يركـز عـلى تبخيـس هـذه الحيـاة الدنيـا والاسـتخفاف بهـا فهـي ((ليسـت بـدار البقـاء بـل هـي دار الفنـاء والعاقـل يتـزود فيهـا بالتقوى))[164]ويقـول أيضـاً ((إني أدعوكـم يـا عبـاد اللـه إلى الديـن الخالـص والانضـمام لحـزب اللـه ... وأنـه الإمـام المهـدي ومـن شـك فيـه فقـد كفـر ... لا يدعـو النـاس إلى الرياسـة والجـاه وإنمـا لعبـادة اللـه)).

(163) محمد الخير عامل المهدي لعموم مديرية شندي إلى المك خشم الموسى ، جورنال الحوادث .

(164) محمد الخير عامل المهدي لعموم مديرية شندي إلى المك خشم الموسى ، جورنال الحوادث .

وأكد لهم محمد الخير في كل رسائله حسن المعاملة وعدم التعرض لهم بسوء متى يتم التسليم ((وإن سلّمتم سلِمتم ولكم الأمان في ذاتكم وممتلكاتكم ونسائكم ولكم منا الإكرام ومزيد الإحترام ولا يمسكم سوء ولا مكروه)).

ولقد كتب أمراء شندي وبعض سناجق الشايقية خطابات مماثلة إلى محمد نصحي باشا ومرافقيه أوضحوا فيها أن القضية ليست بأية حال بينهم وبين قادة الإسطول ، فهم أحباب وإخوة في الدين ، وليس هناك ما يدعوهم للاقتتال . ثم حاولوا عرض المشكلة على أساس أنها معركة بينهم وبين الإنكليز وعلى الفريقين أن يتحدا في مواجهتهم . أما تطلعهم لحملة الإنقاذ فأمر غير مقبول ، وينبهونهم في ذات الوقت لما حدث في بلادهم بالقول ((يا أيها الضباط والعساكر من بر مصر تذكروا عدوان الإنجليز على بلادكم وما حدث لعرابي وتملكهم على بلادكم وأرضكم وأموالكم ...))[165].

وقد أعطاهم الأمراء أيضاً الأمان على أنفسهم وأموالهم ونسائهم . أما قاضي شندي محمد أحمد عوض السيد فقد حرر رسالة إلى حواره السابق خشم الموسى معبراً فيها عن شفقته عليه لبقائه خارج حظيرة المؤمنين بالمهدية ، ويدعوه للإسراع بالانضمام ، مؤكداً له أن هذا سيقابل بالاغتباط والترحاب .

ويبدو أن المهدي كان حريصاً على كسب رجال الأسطول لما كان يمكن أن يحمله تأييدهم له من سند مادي ومعنوي ، فقد تمركزوا هناك في ثلاث بواخر تحمل من الجند والذخيرة ما يفيده كثيراً . بالإضافة إلى أن إعلان تأييدهم سيفقد الخرطوم هذه الفرقة الاستطلاعية التي كانت بانتظار حملة الإنقاذ . ومن ثم فقد وجه المهدي الخليفة عبدالله ليحرر لهم خطاباً ضمن إطار محاولات الاقناع التي كان يقوم بها أمراء شندي ، فوجه إلى ((أحبابه في الله المكرمين خشم الموس بك وكافة من معهم من الضباط والعساكر)) ولقد حوت الرسالة مناقشة دينية على نمط تلك التي يجريها المهدي عادة في رسائله . فهو يبشر بزوال الدنيا وخستها وحقارة ما فيها من جاه ومال ، والعاقل من عمل لآخرته لأنها دار الخلود الأبدي وفي خاتمتها يعطيهم الخليفة الأمان على أرواحهم وأموالهم .

ووجه المهدي أيضاً خطاباً إلى هذه المجموعة ، ورغم كل ما أبدوه من تعنت وإصرار على موقفهم فما زالوا ((أحبابه في الله المكرمين خشم الموسى بك ومن معه من الضباط والعسكر بجهة شندي))[166]وحاول إقناعهم بالترغيب والتأليف دون أن

---

(165) كافة الأمراء والمقاديم إلى سعادة محمد نصحي باشا ، جورنال الحوادث .

(166) المهدي إلى أحبابه في الله ، جورنال الحوادث .

يتوعدهم أو يغلظ لهم القول فيقول ((.. إعلموا وتحققوا أحبابي أني لست قاٸماً هذا المقام إلا لدعوة الخلق إلى الله وسعادتهم الكبرى ونيل مراتبهم العلى .... ولا أريد جاهاً ولا غنى ولا مال إلا غنى بالله ، فلا تظنوا إنا نطلب أموالكم وما ملكت ايديكم ، إن سلمتم لنا وصرتم من أصحابنا ...)) وبعدهم ، ((إن سلمتم عفوناكم ورضينا عنكم وكنتم من الأصحاب المكرمين الذين لهم عند الله حسن المكانة الأبدية)) . ولقد جاءت رسالة أحمد المصطفى إلى ((سعادة لواء وقمندان وابورات السفرية محمد نصحي باشا)) تحمل كذلك مناقشة لمسألة علاقتهم بالمشكلة القائمة في السودان . فهم يتعاونون مع الإنجليز ضد إخوتهم في الدين مع العلم بأن هؤلاء قد دخلوا بلادهم عنوة واغتصبوا الحكم من ((الخديو وسيروه جسم بلا روح)) . واختتم رسالته بالوعد ايضاً ((فإن سلمتم لكم ما لنا وعليكم ما علينا وأنت وأولادك ومالك في ذمتي ولو ضاعت منك إبرة تدفع من بيت المال)).

ولكن محمد نصحي باشا وخشم الموسى ومن معهما قرروا تجاهل الروح التي بدت في رسائل الأمراء ومقابلتها بأسلوب الاستفزاز والتحقير ، ولم يفكرا لحظة واحدة في الاستجابة لنداء التسليم ، وكان لقب أمراء المهدي السائد في رسائلهم هو ((الأشقياء)) في حين يوصف المهدي بالدجال تارة والشقي المتمهدي تارة أخرى . خاطبوا الأمير أحمد حمزة بقولهم ((... نحن لا نقبل مثل هذه المخادعات وتلفيقاتكم هي أوهى من بيت العنكبوت ، ولا ترسلو لنا بعد هذا مخاطبات إلا إذا كانت بشأن دخولكم في الحكومة ... وإن قبلتم نصيحتى دعوا الناس يذهبوا لمواشيهم)) . لم تكن مسألة التسليم واردة على الإطلاق ، وقد وصفها خشم الموسى بأنها بعيدة ((بعد المشرقين)) حتى لو وعده المهدي بتنصيبه حاكماً على البلاد من أقصاها إلى أدناها ، أو حمل إليه كل ما تحويه خزائنه من مال .

ويبدو أن الشيخ أحمد المصطفى قد درج على الاتصال ببعض سكان المدينة عن طريق الرسائل . فبعث بخطاب إلى خشم الموسى بك الذي تربطه به صلة النسب ، وآخر لأحمد بك على جلاب مدير الخرطوم ، وأحد الذين وضعوا توقيعاتهم على العريضة التي بعثت بها مجموعة من أعيان المدينة إلى المهدي يؤكدون فيها ولاءهم له . سلم خشم الموسى رسالته لغوردون فألحقها بيومياته ، ولكن يبدو أن جلاب قد آثر الاحتفاظ بها ، وسواء أن بعث أي منها برد أم لا فهو أمر لم يثبت حتى الآن .

ركز أحمد المصطفى في رسالته لخشم الموسى على الجانب الديني تماماً كما يفعل رفاقه . ((فهذا الأمام هو المهدي المنتظر الذي يتوجب على كل المؤمنين اتباعه

وتسليمه زمام أمورهم . أما ما يردده علماء الخرطوم فهو قول باطل من أساسه ولا يحق للعقلاء الاستماع إليه)). وجاء فيها أيضاً قوله ((ولا زلتم فيبالنا حتى سعينا لكم في أخذ الأمان وأنتم داخل الخرطوم فوجدناه لكم ولأموالكم وأولادكم وأنفسكم ومن تبعكم صريحاً بختم ورسم لا يعقبه مكر ... وكنت مجتهداً في إدخال تلك البشارة إليكم داخلاً فما وجدنا سبيل فأجاب الله دعانا وما خيب رجانا فيكم))[167] ويبدو أنه قد فطن إلى إمكانية الإستفادة من العتاد الحربي الذي يملكه أتباع خشم الموسى داخل المدينة ، فطلب إليه أن يخرج لملاقاته بما معه من ذخيرة وسلاح ، أما إذا تعذر ذلك فليترك كل شيء حتى ممتلكاته الشخصية التي بالتأكيد سترد إليه عند فتح المدينة . وربما اعتقد الشيخ أحمد المصطفى أن تردد خشم الموسى يعود إلى تخوفه من انتقام الأنصار ، إذ كان هو أحد قادة غوردون الذين اشتركوا في عدة عمليات ضدهم فسد له هذه الثغرة بقوله ((وما جرى بينكم وبين الفقراء بالشرق لا تخشوا منه ، فإنه لا شك في عفو الإمام عليه السلام ، وما فعلتموه أنتم لا يكون سيئة من سيآت صالح المك بقتله لليعقوباب وإنتهابه لأموالهم وأولاد المكاشفي وسبيه لأولادهم وما لهم مع كونهم أشراف ، فمع ذلك كله الآن هو أقرب الناس من الإمام ، وعفا عنه وأعطاه صريح الأمان ، فلا تحسبوا لما جرى منكم حسبة فاحضروا إلينا ولو سراً)).

كتب الصديق الطاهر وحامد ولد إدريس الشايب خطاباً إلى عثمان بك قائد طابية أم درمان ومن معه من ضباط وعساكر أوضحا فيها أن المعركة ليست ضدهم فهم ((أخوان في دين الله وجيران وماكلين عيش وملح))[168]. وحاول الكاتبان أيضاً إقناع العساكر المصريين بوجوب تأييدهم للمهدي فقد سبق أن قبل السودان الحكم التركي ردحاً من الزمن ، وعليهم الآن أن يقبلوا بالمهدية . بالإضافة إلى أن حكم الأتراك قد زال من بلادهم نفسها وآلت الأمور إلى الانكليز .

وفي الختام وجهوهم للانضمام لمعسكر الشيخ أحمد المصطفى ، حيث يشملهم قرار المهدي الذي نص على أن كل من خرج لملاقاته من أم درمان أو الخرطوم مع الشيخ المذكور فعليه وعلى أولاده وأمواله أمان الله ورسوله . أما إذا رفضوا هذا العرض فما عليهم إلا تسليم الطابية والتوجه إلى وطنهم وسنقدم لهم كافة التسهيلات حتى تتم الرحلة بأمان .

بذل أمراء المهدي – إذن – جهداً من أجل إقامة جسر بينهم وبين قادة غوردون

---

(167) أحمد المصطفى الفقيه الأمين إلى خشم الموسى المك 19 ذو القعدة 1301 (11 سبتمبر 1884) ملحق ج .

(168) الصديق الطاهر وحامد ولد إدريس الشايب إلى عثمان بك ، 23 ذو القعدة 1301 (15 سبتمبر 1884) ملحق ي .

عـن طريـق الحـوار الموضوعـي والتفاهـم المنطقـي حـول القضيـة القائمـة . وكان يحدوهـم الأمـل في أن يسـتجيب هـؤلاء لتلـك النـداءات المتكـررة وينضـوا تحـت لـواء المهديـة . ولكـن القـادة تمسـكوا بموقفهـم فعـبر بعضهـم عـن عظيـم اسـتخفافه بالدعـوة نفسـها ، وآثـر آخـرون الصمـت المطبـق فلـم يكلـف نفسـه حتـى مشـقة الـرد عـلى الرسـائل التـي بعثـت إليهـم .

مسلك المهدي كما كشفته رسائله لغوردون :

تمكـن غـوردون مـن الوقـوف عـلى نوايـا المهـدي المتعلقـة بسياسـته نحـو البـلاد مـن مصادرهـا الأصليـة دون أن تتعـرض لتحريـف أو تشـويه ، إذ كانـت لديـه المعلومـات والحقائـق التـي ضمنهـا المهـدي في الرسـائل التـي بعـث بهـا لـه . وقـد كان في هـذا فائـدة جمـة ، لأنهـا أعطتـه أساسـاً بإمكانـه أن يقـرر عـلى ضوئـه مـا ينـوي اتخـاذه مـن خطـوات فيـما يتعلـق بموقفـه الشـخصي أو بمصـير البـلاد السـياسي بصـورة عامـة . وكان إتجـاه المهـدي هـذا منسـجماً تمامـاً مـع مـا درج عليـه في علاقتـه مـع قـادة المراكـز الحكوميـة ورؤسـاء حملاتهـا العسـكرية فلـم ، يسـتثن غـوردون مـن هـذا . ورغـم أن المبـادرة جـاءت مـن غـوردون إلا أن اسـتجابة المهـدي كانـت سريعـة فتوالـت خطاباتـه بصـورة منتظمـة طـوال فـترة الحصـار ، فكتـب لـه آخرهـا قبـل أسـبوعين فقـط مـن سـقوط المدينـة .

بعـث المهـدي لغـوردون بثـمان رسـائل حملـت أولاهـا تاريـخ 7 جـمادى أول (5 مـارس 1884). حيـث كان المهـدي آنـذاك بالأبيـض [169]. تضمنـت تلـك الرسـالة بوصفهـا أول إتصـال مـن طرفـه وجهـة نظـره في كافـة القضايـا المتعلقـة بالدعـوة موضحـاً طبيعتهـا ومراميهـا بصـورة شـاملة ، بالإضافـة إلى تعليقاتـه عـلى بعـض مـا ورد في رسـالة غـوردون الأولى إليـه ، فجـاءت طويلـة تحـوي 1450 كلمـة تقريبـاً . وقـد بعـث المهـدي معهـا ((كسـوة الزهـاد)) وحـرر لغـوردون بضعـة أسـطر عنهـا . ولأنهـا كتبـت في صيغـة الخطـاب فقـد رأى بعـض المؤرخـين تصنيفهـا كرسـالة قائمـة بذاتهـا [170]، ثـم أرسـل المهـدي برسـالته الثانيـة مـن الرهـد في شـوال 1301هــ (بعـد 27 يوليـو 1884) [171]وتقارب هـذه في مضمونها الرسـالة الأولى ،فهي تحمـل شرحـاً تفصيليـاً للدعـوة ونـداء لغـوردون لإعـلان تاييـده ، فجـاءت في ما يقـارب 1200 كلمـة . بـدأت مسـيرة المهـدي إلى الخرطـوم بعـد ذلـك بفـترة وجيـزة ، ولم يتصـل بغـوردون حتـى وصـل إلى مـشروع القيعـة بالقـرب مـن أم درمـان ، فبعـث برسـالته الثالثـة بتاريـخ

---

(169) المهدي إلى غوردون ، إنذارات ب ص 109-18

(170) Holt, “The Sudnaese Mahdia and the Outside World,”BSOAS Xxi/2 (1958) pp. 276-90.

(171) المهدي إلى غوردون ، النجومي 26 .

2 محـرم 1302 (22 أكتوبـر 1884) [172] ذكـر المهـدي فيهـا نبـأ إغتيـال سـتيورت وقافلتـه ، وأورد مقتطفـات مـن المكاتبـات التـي كانـت بحوزتـه حتـى يجـزم غـوردون بصـدق قولـه . ولا بـد أن هـذه الرسـالة قـد أثـرت تاثـيراً كبـيراً في نفسـية غـوردون ، إذ انهـار آخـر أمـل لـه في الاتصـال بالخـارج لتبليـغ المسـؤولين مـا تعانيـة المدينـة . وبعـد أن اسـتقر المهـدي في ديـم أبي سـعد بعـث برسـالة رابعـة تحمـل تاريـخ 1 صفـر 1302 (19 نوفمـبر 1884) [173] ولأنهـا كانـت تحمـل نبـأ وصولـه إلى الخرطـوم فقـد توقـع أن يهتـم غـورون بالـرد عليهـا ، فبقـي زهـاء الخمسـة أسـابيع في إنتظـار تلـك المكاتبـة . وعندمـا لم تصـل بعـث لـه بأخـرى في 9 ربيـع أول 1302 (27 ديسـمبر 1884) [174].

كانـت اسـتعدادات الأنصـار قـد شـارفت نهايتهـا ، ولم يعـد هنـاك مـن يـبرر الانتظـار ، فسـارع المهـدي ببـذل محاولـة أخـيرة لإقنـاع غـوردون ، فجـاءت ثـلاث رسـائل متتاليـة تحمـل تواريـخ 19 – 20 – و21 ربيـع أول 1302هــ (6 ، 7 ، 8 ينايـر 1885)[175].

خاطـب المهـدي غـوردون في كل الرسـائل بــ ((غـوردون باشـا)) مثبتـاً بهذا لقبه الرسـمي رغـم عـدم اعترافـه بالألقـاب ، وإصـداره منشـوراً يحـذر الأنصـار مـن إسـتعمالها . إلا أنـه لم يشـأ أن يحذفهـا مـن إسـم غـوردون خشـية مـن سـوء التفسـير ، أو يضيـف إلى هـذا اعترافـه بـه كممثـل للحكومتـين المصريـة والإنجليزيـة ، فهـو ((عزيـز بريطانيـا والخديويـة))[176]. وحـرص أيضـاً في غالبيتهـا عـلى طلـب الدعـاء لـه ليأخـذ اللـه بيـده فهـو يقـول ((هـداه اللـه إلى الطريـق القويـم))[177] و ((غـوردون باشـا وقـاه الـه كل شر)) [178]و ((غـوردون باشـا هـداه الله إلى طريق النجاة قبل أن يتلاشى))[179].

---

(172) المهدي إلى غوردون ، ملحق ج .

(173) المهدي إلى غوردون ، نعوم شقير ص 846-7 .

(174) المهدي إلى غوردون ، اثار/178 ، يؤرخ يوسف ميخائيل هذه الرسالة 19 صفر 1302 (7-8 **ديسمبر)**، **يوسف** ميخائيل، ص 195-7 .

(175) المهدي إلى غوردن / إنذارات ب ص 252 ، 323 25-4، 251-2 نعوم شقير يؤرخ خطأ **أولى هذه الرسائل في 9** ربيع أول ص 856 .

(176) المهدي إلى غوردون ، إنذارات ب ص 109-18 .

(177) المهدي إلى غوردون ، ملحق ز .

(178) المهدي إلى غوردون ، إنذارات ب ص 253-4 .

(179) المهدي إلى غوردون ، إنذارات ب ص 251-2 .

ولقد أكد المهدي في أولى رسائله إلى غوردون حقيقة أنه ((المهدي المنتظر خليفة رسول الله)) [180] الذي اختاره الله للقيام بهذه الدعوة ، فهو ليس ((بمتحيل ولا مريد ملكا ولا جاها ولا مالا إنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جلبوا عليه من حب الجاه والمال والبنين، وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم ، وأخذ نصيبهم من ربهم ، فأخذوا الفاني وتركوا الباقي واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ورسوله)).

ثم أوضح المهدي طبيعة مهمته ، فهي دينية بحته لا غرض منها سوى هداية الناس إلى طريق رسول الله ، وذلك بالابتعاد عن النعيم الفاني والسعي إلى النعيم الباقي . ولم يكتف المهدي بإثبات هذا القول بل دعمه بموقفين برزا في تلك الرسالة . أولهما رفض بصراحة ولاية كردفان التي عرضها غوردون عليه في رسالته الأولى ((فلا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا في مال الدنيا ولا زخرفها، وإنما أنا عبد دال إلى الله وإلى ما عنده)) . فالسلاطين والملوك – في رأيه – هم سبب ضعف الإسلام لانشغالهم بغير ربهم . وثاني تلك المواقف هو رفضه هدية غوردون التي أرسلها إليه وكتب معلقاً ((.... أما الهدية التي أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك لله الخير وهداك إلى الصواب وأعلم أنه كما كتبنا لك إنا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها ، وإنما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هي مرسولة إليك)) .

ولأن الدعوة دينية ، فهو يرفض الاعتراف بغوردون كحاكم على السودان مستنداً على الآية ((لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض)) . فهو يسعى إلى إقامة دولة ترتكز على الإسلام ، يتمكن حاكمها من إصلاح حال المسلمين ، وبهذا لا يمكن أن تكون الولاية لغير المسلم ، فيرد على غوردون فيما يشبه الاستنكار ((فإن كنت شفيقاً على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فطهر نفسك أولاً بالدخول في ملته ثم أشفق على ملته بدخول سنته ، فعند هذا فأنت الشفيق ، ومن غير هذا فمالك من المحققين رفيق..)) فالدولة الإسلامية لا يقيمها إذن إلا المسلم ، من هنا جاء رفضه لغوردون كحاكم على البلاد ، وهو مبدئياً وليس شخصياً ، بل لقد كان المهدي يعطي غوردون كشخص بعض الاعتبار ، فهو يقول له ((...قد سمعنا مراراً فيك الخير)) [181] ويذهب إلى أبعد من هذا حين يؤكد له إمكانية الاعتراف به كوال

(180) المهدي إلى غوردون ، إنذارات ب ص 109-18.

(181) المهدي إلى غوردون ، إنذارات ب ص -253 4 .

في حالـة اعتناقـه الإسـلام ((.... وأعلـم أنـك إذا أتيتنـا مسـلماً نربيـك ونريـك مـن النـور مـا يطمـئن بـه قلبـك ويـزول بـه طمعـك في الدنيـا ومـا فيهـا ثـم بعـد ذلـك إن رأينـا فيـك خـيراً وصلاحـاً للمسـلمين ولينـاك كـما فعلنـا بمحمـد خالـد ..)).

أوضـح المهـدي ، إذن ، أنـه لا يعـترف بغـوردون كحاكـم عـلى بـلاد المسـلمين ، وسـوف يسـعى لوضـع نهايـة لتلـك السـلطة بالوسـائل السـلمية أولاً ، وذلـك عـن طريـق تنـازل غـوردون عنهـا . وأنـه لـن يقبـل حـلاً وسـطاً فيـما يتعلـق بهـذا الأمـر . أمـا مصـير غـوردون الشـخصي فقـد كشـف المهـدي عـن إمكانيـة التفـاوض حولـه . فهـو يقـول في أول رسـاله لـه ((وبعـد هـذا البيـان إن اهتديـت وسـلمت لي واتبعتنـي حـزت شرف الدنيـا والآخـرة وفـزت بأجـرك وأجـر جميـع مـن اتبعـك ، وإلا هلكـت فـكان عليـك إثمـك وآثـام جميـع مـن اتبعـك))[182] هنـا يشـترط المهـدي عليـه التسـليم لـكي ينجـو بحياتـه ، ولكنـه لا يطالبـه صراحـة بالاعـتراف بالمهديـة أو اعتناقـه الإسـلام[183]. إلا أنـه في الرسـالة الثانيـة خـيره بـين الدخـول في الإسـلام أو الهـلاك ، وفي ذات الوقـت أعطـاه وعـداً بالإبقـاء عـلى حياتـه وحيـاة مـن معـه وممتلكاتهـم في حالـة التسـليم ، وقـد فـوض محمـد عثـمان أبوقرجـة لمراعـاة تنفيـذ هـذا الوعـد إذا اسـتجاب غـوردون للنـداء .

ربمـا فهـم منطقيـاً أنـه إذا سـلم غـوردون للمهـدي فإنمـا هـذا يعنـي أنـه قـد اعـترف بـه ليـس كحاكـم فقـط بـل بصفتـه الدينيـة .

ولكـن يبـدو أن المهـدي أراد أن يضـع هـذا شرطـاً صريحـاً ، فضمنـه في رسـالته الثالثـة ((فـإن أنبـت إلى اللـه تعـالى وأسـلمت وسـلمت وصدقـت بمهديتنـا أرسـل مخاطبـة منـك ومـن معـك جميعـاً إلينـا بعـد وضـع السـلاح ورفـع المحاربـة ، لنرسـل لكـم مـن يؤمنكـم وبذلـك تحـوزوا خـير الداريـن))[184] وزاد عـلى هـذا أنـه في حالـة الرفـض فليـس أمامهـم ((سـواء الاسـتعداد لحـرب مـن جنـد اللـه ورسـوله وهـم بـلا شـك هالكـون فيهـا كـما هلـك الذيـن يفوقونهـم عـدة وعتـاداً)). وفي هـذه الحالـة سـوف تؤخـذ أموالهـم وممتلكاتهـم وأولادهـم غنيمـة للمسـلمين . جـاء محتـوى بقيـة الرسـائل متشـابهاً في جوهـره مـع مـا سـبق أن ذكـره المهـدي في خطاباتـه الأولى باسـتثناء رسـالته السـابعة والتـي ظهـر فيهـا أن تغيـيراً قـد طـرأ عـلى رأي المهـدي فيـما يتعلـق بمصـير غـوردون . فهـو مـا زال يـصر عـلى تسـليم الخرطـوم ، ولكنـه يبـدي إسـتعداده لضـمان حريـة غـوردون الشـخصية إذ يقـول

(182) المهدي إلى غوردون ، انذارات ب ص 109 – 18 .

(183) المهدي إلى غوردون ، النجومي 26 .

(184) المهدي إلى غوردون ، ملحق ز .

((فإن أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت في أماننا وضماننا فهو المطلوب ، وإن أردت أن تجتمع على الإنكليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك إليهم))[185]هناك عدة عوامل يبدو أن المهدي أخذها في الاعتبار عندما قرر أن يتراجع قليلاً عن مطالبته لغوردون باعتناق الإسلام أو الاعتراف بالمهدية ، ربما كان يسعى في البداية إلى كسب غوردون إلى جانبه حتى يتمكن من الاستفادة منه في بناء الدولة التي يزمع إقامتها في السودان ، ولا بد أنه سيكون مفيداً تماماً كما هو الحال مع سلاطين باشا وغيره من الأجانب . إلا أنه تنازل عن هذا الطلب حين تأكدت له أنباء وصول الحملة الإنكليزية ، فرأى أن يعرض على غوردون إمكانية تأمين سفره إلى حيثما تكون الحملة .

وتوقع المهدي أن تعود الحملة من حيث أتت في حالة قبول غوردون للعرض فتجنبهم - بالتالي - إراقة المزيد من الدما . ثمة عامل آخر أيضاً ، ربما أخذ المهدي في الاعتبار تمسك غوردون بدينه وتعصبه له مهما كلفه الأمر، وقد وضح هذا جلياً في تجاهله التام للنداءات المتكررة التي وجهت له في عدة رسائل لاعتناق الإسلام كي ينجو بحياته . فايقن المهدي في تلك المرحلة من الحصار أن غوردون لن يسلم حتى لو كان في هذا فقدان حياته فآثر أن يتخلص منه ويأمن شر الحملة .

ومثلما كان الحال بالنسبة للمهدي فقد اتخذ غوردون الرسائل وسيلة للاتصال بخصمه ، إلا أن عدد الخطابات التي بعث بها غوردون إلى المهدي ما زال خاضعاً لاجتهاد المؤرخين ، فلقد تضاربت روايات المصادر حول هذا الأمر وتباينت . فهناك نسخة عربية لرسالة واحدة هي أولى رسائل غوردون إلى المهدي والتي حفظت ضمن مجموعة المسلمي[186]. كما أن هناك نسخة من رسالة برقية بعث بها غوردون إلى فرج الله بك ، وطلب منه نقلها إلى المهدي ، وقد أرفقت باليوميات [187]. إلا أن نصحي باشا أورد في تقريره ترجمة لرسالتين أخريتين . وذكر أن غوردون قد بعث بالأولى في مارس 1884 بعد تسلمه لرد المهدي على خطابه الأول . ولقد اختار نعوم شقير الثانية وجاء بالنص العربي لها ، وذكر أنها أرسلت كرد على رسالة المهدي التي تحمل تاريخ 19 نوفمبر 1884 [188] ولابد للقارئ أن يخضع رواية التقرير للتأمل ، إذ لا توجد أصول

(185) المهدي إلى غوردون ، إنذارات ب ص 253-4 .

(186) غوردون إلى المهدي ، 12 ربيع أول 1301 (10 فبراير 1844) فيوضات ج 151/1 .

(187) غوردون إلى فرج الله بك ، 3 محرم 1302 (24 أكتوبر 1884) ملحق ل .

(188) نعوم شقير ، ص 847 .

لأي مـن هـذه الرسـائل . ربمـا فقـدت الأولى باعتبـار أنهـا أرفقـت مـع يوميـات سـتيورت ، لأن غـوردون قـد كتبهـا قبـل 10 سـبتمبر – تاريـخ مغـادرة سـتيورت للمدينـة – ولكـن إذا كان تاريـخ شـقير صحيحـاً فإلحـاق الرسـالة الثانيـة بيوميـات غـوردون كـما فعـل مـع بقيـة الرسـائل التـي وصلتـه أثنـاء تسـجيلها كان أمـراً متوقعـاً . إلا أن كونـه لم يفعـل لا ينفـي حـدوث الواقعـة . فربمـا أبعدهـا لسـبب أو آخـر ولكنـي أميـل إلى الاعتقـاد بـأن نعـوم شـقير قـد أخطـأ في تاريخـه ، وأن غـوردون أساسـاً لم يبعـث بتلـك الرسـالة ، وإنمـا بعـث فقـط بالبرقيـة المشـار إليهـا سـابقاً . ولقـد درج مؤلفـو التقريـر عـلى ذكـر نصـوص الرسـائل معتمديـن عـلى معلومـات سـماعية فقـط، ولعلهـم لهـذا نقلـوا برقيـة غـوردون مـع بعـض التحريـف عـلى أسـاس أنهـا رسـالة.

ولكـن هنـاك دلائـل أخـرى تشـير إلى خطابـات بعـث بهـا غـوردون إلى المهـدي بالإضافـة لتلـك التـي وردت في التقريـر ومـا زالـت أصولهـا أو نسـخ منهـا مفقـودة .

جـاء في إحـدى رسـائل المهـدي لغـوردون قولـه ((وقـد بلغنـي مـن جوابـك الذي أرسـلته إلينـا أنـك قلـت إن الإنكليـز يريـدون أن يفـدوك وحـدك منـا بعشريـن ألـف جنيـه))[189] فربمـا تكـون الإشـارة هنـا لرسـالة مـا زالـت مجهولـة المـكان . إلا أن الاحتـمال الثـاني ، أن يكـون الخطـاب المعنـي هـو ذلـك الـذي بعـث بـه غـوردون إلى عبدالقـادر إبراهيـم وعـرض فيـه إسـتعداده لدفـع عـشرة ألـف جنيـه مقابـل إطـلاق سراح الأسرى الأوربيـين [190]. ولعـل الخلـط في المعنـى مـرده رداءة خـط وأسـلوب ذلـك الخطـاب .

ولكـن المهـدي يشـير في آخـر رسـالة كتبهـا إلى غـوردون إلى خطـاب وصلـه منـه ، فهـو يؤكـد لـه أن ((جوابـك رد المحـرر منـا وصـل إلينـا وفهمنـا مضمونـه)) [191] فـإذا كان غـوردون قـد بعـث بخطـاب للمهـدي قبـل أسـبوعين تقريبـاً مـن سـقوط المدينـة ، فاحتـمال أن يكـون قـد بعـث برسـائل أخـرى قبـل ذلـك التاريـخ غـير مسـتبعد عـلى الإطـلاق .

كشـفت رسـالة غـوردون الأولى أنـه كان يسـعى لمعالجـة المشـكلة في بـادئ الأمر بدبلوماسـية وبـلا إسـتفزاز ودون أن يتـورط في شيء ، فخاطـب المهـدي بإحـترام وكأنـه أحـد رجـال الصوفيـة ((مـولاي السـيد محمـد أحمـد بـن عبداللـه))[192] ، لم يكـن تفـادي غـوردون لذكـر لقـب المهـدي

(189) المهدي إلى غوردون ، 20 ربيع أول 1302 (7 يناير 1885) إنذارات ب ص 253 ، 4 .

(190) غوردون إلى عبدالقادر إبراهيم ، بعد 18 ذو القعدة 1301 (10 سبتمبر 1884) ملحق أ .

(191) المهدي إلى غوردون ، 21 ربيع أول 1302 (8 يناير 1885) ، إنذارات ب ص 251-2 .

(192) غوردون إلى المهدي ، 12 ربيع أول 1301 (10 فبراير 1884) ، فيوضات ج151/1 .

سهواً بل ، كان على الأرجح أمراً مقصوداً . وقد ركز في تلك الرسالة على الجوانب السياسية للأزمة ، متجاهلاً عن عمد الصبغة الدينية التي عرفت بها الثورة .

ولعل الموقف الذي اتخذه غوردون تجاه الأنصار طوال مدة الحصار بدأ في تلك اللحظة التي خط فيها رسالته الأولى للمهدي . فهو لم يأت للبلاد في مهمة مؤقتة ، بل جاءها كحاكم صاحب سلطة شرعية لم يبد أي استعداد للتنازل عنها قيد أنملة . ولكي يدخل شيئاً من الرهبة في نفس المهدي ذكر له أنه جاء منتدباً من قبل حكومتي دولتين عظيمتين هما مصر وبريطانيا ليتولى شؤون البلاد ، وينهي إليه بهذه الصفة موافقته على تنصيبه سلطاناً على كردفان .

لم يتطرق غوردون من بعيد أو قريب إلى طبيعة مهمته ، ولم يشر إلى أنه جاء من أجل إخلاء الحاميات والمدنيين ، ولو فعل هذا منذ البداية ربما كان في الإمكان رؤية صورة مغايرة تماماً لأحداث تلك الفترة .

وعندما تسلم غوردون رفض المهدي المكتوب للسلطنة في مارس 1884 ((استشاط غضباً وركل كسوة الزهاد برجله)) وفي حينه حرر خطاباً اختفى ، فيه أسلوب التحفظ الحذر الذي ظهر في الخطاب الأول واستعاض عنه بأسلوب الإستفزاز المباشر فهو يدعوه ((محمد أحمد المتمهدي)) . وقد أكد في هذا الخطاب ولايته على السودان مرة أخرى . ووضع أمام المهدي خيارين ، فأما أن يقبل منصب السلطان أو يجهز نفسه لحرب لا هوادة فيها ستقضي بالتأكيد عليه وعلى رجاله .

ويبدو أن المهدي لم يلق بالاً لتهديدات غوردون ، فواظب على ندائه له ليضع حداً للمشكلة بلا إراقة مزيد من الدماء . تجلت استجابة غوردون في قوله ((أنا لا يمكن أشوف كلام محمد أحمد زيادة عن الرصاص))[193] فكشف بهذا عن تصميمه على القتال سواء جاءت نجدة لمساعدته أو لم تأت ، وهو يدعو أنصار المهدي صراحة إلى التقدم نحو خطوط النار الرئيسية لملاقاة جنوده .

ولم تبد في أي رسالة منه إشارة إلى أنه ربما يقبل تسوية سلمية يمكن التفاوض حول أسسها ، خاصة وأن المهدي أبدى إستعداده لإخلاء سبيله وتأمين سفره إلى حيثما تكون القوات الإنجليزية ، وكان بالإمكان إجراء مشاورات تهدف إلى تأمين سلامة الأهالي من جند ومدنيين . ولعل التخوف من ردود فعل إنتقامية لا أساس له . فقد سبق أن قاتل أفراد حامية الأبيض الأنصار بضراوة وأنزلوا بهم من الخسائر ما يفوق كل

(193) غوردون إلى فرج الله بك ، ملحق ، ل .

مـا أنزلـه بهـم جنـود حاميـة الخرطـوم طـوال مـدة الحصـار . ومـع ذلـك لم يفقـد أي منهـم حياتـه عنـد التسـليم .

بالإضافـة إلى هـذا فقـد جـاء في إحـدى رسـائل المهـدي تأكيـد لأهـالي الخرطـوم بأنـه عـلى إسـتعداد لنسـيان المـاضي وقبولهـم بـين رجالـه متـى مـا أعلنـوا تأييدهـم لـه ، فهـو يخاطبهـم بقولـه ((.... وحيـث فهمتـم مـا ذكـر فـإني لا أواخذكـم بمـا فـات منكـم ولا تثريـب عليكـم اليـوم ، يغفـر اللـه لكـم وهـو أرحـم الراحمـين ، فأنيبـوا إلى ربكـم واسـلموا لـه مـن قبـل أن يأتيكـم العـذاب بغتـة وأنتـم لا تشـعرون ، وعليكـم أمـان اللـه ورسـوله وأمـان العبـد للـه وليـس عليكـم حـرج فيـما مـضى وغايتـه أن مـن سـلم سـلم ... ولا تخشـوا مـن شيء يحصـل عليكـم فإننـا مناظـرون منكـم آيـة قولـه تعـالى (وإذا جـاءك الذيـن يؤمنـون بآياتنـا فقـل سـلام عليكـم) .. [194] .

لقـد أراد غـوردون كـسر شـوكة المهـدي وهـذا هـو الأمـر الـذي أقعـده عـن تسـليم المدينـة ، فاتخـذ موقفـاً عدائيـاً منـه منـذ البدايـة ، عـلى أسـاس أنـه هـو صاحـب الحـق والسـلطة ، ومـا المهـدي إلا متمـرد خـارج عـلى القانـون يجـب إخضاعـه مـن أجـل المحافظـة عـلى سـيادة الدولـة وهيبتهـا . وقـد اتخـذ هـذا الموقـف رغـم أنـه لم يكـن يملـك مقـدرات الانتصـار ، وكان واضحـاً أن المعركـة تتحـول تدريجيـاً في مصلحـة الأنصـار ، وغـدت محاولتـه لصدهـم مغامـرة محفوفـة بالمخاطـر .

(194) المهدي إلى أهالي الخرطوم إنذارات ب ص 255-6 .

الفصل السادس

من عمليات الحصار إلى سقوط الخرطوم

الفصل السادس
من عمليات الحصار إلى سقوط الخرطوم

ما أن حل شهر مارس حتى تأكد لغوردون أن سياسته السلمية التي كان يأمل لها أن تنجح في كبح جماح الثورة قد أصبحت أضغاث أحلام ، لم تعد أنباء النشاط الذي يقوم به الأنصار في كل المنطقة الممتدة من الخرطوم جنوباً حتى القطينة وسنار، وشمالاً حتى بربر، هي مجرد شائعات ينقلها المسافروة والرواة ، بل حقائق سجلها معاونوه وحملت أنباءها بواخره الاستطلاعية . وقد انهارت آخر آماله في تنفيذ تلك الخطة بوصول رسالة المهدي الأولى إليه التي أوضح فيها رفضه لسلطنة كردفان ، وإن شيئاً لن يقعده عن مواصلة سيره نحو الخرطوم . فأما أن يقتنع غوردون بصدق الدعوة وينقذ نفسه ومن معه بتسليم المدينة للأنصار وإلا فإن ((حزب الله واصل إليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فاستدعيت ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين))[195] وهو لا يأتي للخرطوم ليقتسم الأسلاب مع غوردون أو يتفاوض معه بل ليستولي عليها وبالقوة إذا اقتضى الأمر . ثم يختتم المهدي الرسالة بقوله ((....وبعد هذا البيان فإن اهتديت وسلمت لي وأتبعتني حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك ، وإلا هلكت فكان عليك إثمك ومثل آثام جميع من اتبعك)) .

إلا أن تفكير غوردون لم يتجه ولو للحظة عابرة ، نحو تقديم الخرطوم لقمة سائغة للأنصار ، فإذا أصبح الاستيلاء عليها بواسطتهم قدراً لا مفر منه فليتم ذلك عنوة وبعد لأي. فباشر من توه في إجراء مزيد من الاستعدادات الدفاعية تحسباً لأي هجوم قد تشنه فرق الأنصار المرابطة حول المدينة وتأهباً لوصول المهدي .

حاول غوردون استغلال ما لديه من إمكانيات إلى أقصى الحدود ، فلم تكن المدينة تملك من الموارد البشرية والمادية التي تستخدم في الحروب إلا اليسير . كانت هناك حامية بالفعل ، إلا أنها كانت تعاني من عدة نقائص وقفت عائقاً أمام خلق شبكة دفاعية فعالة . وكانت هناك أيضاً مجموعة من البواخر التي أدخل عليها غوردون من الوسائل ما أهلها لخوض المعارك الحربية ، إلا أن الظروف التي صاحبت تطورات الحصار قد شلت من حركتها إلى حد بعيد كما سيوضح فيما بعد .

---

(195) المهدي إلى غوردون ، 7 جمادى أول 1301 (5 مارس 1884) إنذارات ب ص 109-18 .

حامية الخرطوم :

اشتملت الحامية على خليط من الجند المصريين والسودانيين النظاميين والأتراك والشايقية غير النظاميين ، بالإضافة إلى المتطوعين ، وقد قدر عددهم بعد انسحاب حاميتي الدويم والكوه إلى الخرطوم في 3 يناير 1884 بـ 6100 جندي ولقد اتجه تفكير غوردون عند وصوله في 18 فبراير 1884 إلى سحب حاميات سنار وبعض المراكز الصغيرة المتناثرة في الجزيرة إلى الخرطوم . إلا أن وقوع الحصار في كل من الخرطوم وسنار أضطره إلى إلغاء ذلك المخطط .

كانت العقبة الرئيسية التي تشل إلى حد كبير مقدرة الحامية في الدفاع عن المدينة هي عددها . إذ كان خط النار طويلاً يحتاج إلى ما لا يقل عن 12ر000 رجلاً لحمايته ، ولقد سبق أن أبرق الكولونيل دي كتلوجن سلطات القاهرة قبل وصول غوردون موضحاً أن حامية الخرطوم لن تستطيع أن تحمي خط الدفاع حتى لو تضاعف عددها الحالي بل أن بعض الناس كانوا يتشككون فيما إذا كانت الحامية بكامل قوتها ستتمكن من حفظ الأمن بصورة عادية في المدينة .

كان هؤلاء الجند يفتقرون إلى الحد الأدنى من التدريب العسكري الذي يؤهلهم إلى تنفيذ أية عمليات حربية ناجحة . ويلاحظ أن تكوين هذه الفرق قد تم بصورة عاجلة عند مجئ عبدالقادر باشا حلمي . فقد اضطر لترحيل جنود الحامية للاسهام في العمليات العسكرية في منطقة الجزيرة . ونسبة لقلة عددهم فقد قام بتجنيد ثلاث أورط من السود ، واستدعى ست أورط من الجنود النظاميين من السودان الشرقي . ويبدو أنه استعان بالأشداء منهم في العمليات التي شنها ضد أعوان المهدي ، أما البقية فلقد ناطوا بها مسئولية الدفاع عن الخرطوم ، ولم تكن تتمتع بأي مقدرة عسكرية ، بل وصفت بأنها ((بقايا جيوش ..)) ((أغلبهم من العجزة والعميان)) .

ولم يكن هذا الموقف خافياً على مسئولي القاهرة ، إذ كانت بيرنج على علم بضعف حامية الخرطوم بافتقار رجالها إلى التدريب ، فوصفهم بأنهم مجموعة ضعيفة من الجند الذين لا يمكن الاعتماد عليهم .

بالإضافة إلى هذا لم تكن مسألة إخلاصهم وتفانيهم في خدمة الحكومة أمراً فوق الشبهات ، فهذا خليط من الجند يعلمون تماماً أن الدفاع عن المدينة فوق طاقتهم لقلة عددهم وضعف خبرتهم الحربية . ولا بد أن يكون هدفهم من الجندية هو الارتزاق أكثر من العمل المخلص لهدف معين ، فعرف أن حوالي ثلث الجند لم يكونوا يدينون بالولاء للحكومة ، ولا يمكن الاعتماد عليهم حتى للحفاظ على الأمن الداخلي .

كانت الدوائر الحاكمة في كل من الخرطوم والقاهرة على يقين تام أنه إذا شن الأنصار هجوماً على المدينة سيتحيل على الحامية صده ، إلا أن غوردون تجاهل هذه المعلومات ووطد عزمه على الاحتفاظ بالخرطوم مهما كلفه الأمر .

ربما يتبادر إلى الذهن أن غوردون اتخذ هذا الموقف باعتبار أن سنداً عسكرياً لابد سيأتيه من الخارج . إلا أن هذا التقدير لم يكن يستند على أساس ، إذ سبق أن أخطر رسمياً ولم يمض على وصوله للخرطوم أكثر من شهر واحد في رسالة بعث بها بيرنج إليه وكررها لوزير الخارجية البريطانية ، فحواها أن ليست ثمة نية في إرسال قوة عسكرية للسودان ، كذلك رد جرانفيل على هذا برسالة يؤيد فيها رأي بيرنج وموضحاً أن الحكومة البريطانية ستعارض أي قرار تتخذه الحكومة المصرية بإرسال قوات للسودان ، إلا أنها قد توافق على إيفاد قوة مصرية إلى سواكن بشرط أن يكون هذا ممكناً من الناحية الفعلية ، وإذا رأى سردار الجيش المصري ((أي . وود)) (A. Wood) بأنه عمل هادف ولم تكن الحكومة البريطانية على استعداد للموافقة على إرسال قوات للسودان حتى وإن كانت بهدف المساعدة في تأسيس حكومة موالية لمصر هناك ، ناهيك عن قوة تصطدم عسكرياً مع المهدي . ومن ثم أوضحت بريطانيا أنه يمكن إرسال فرقة لبربر إذا رؤي أنها ضرورية لإنقاذ حياة غوردون ، وأنها سلتزم بتنفيذ هذا الأمر فقط . ولقد كان هناك خلاف حتى على إرسال هذه القوة ، إذ أن صغر حجمها سيعرضها لأخطار جمة ، في حين كان إرسال قوة كبيرة أمراً مرفوضاً على الإطلاق من جانبهم ، فإذا كان غوردون ملماً بهذه التفاصيل فهناك إحتمالان لتفسير موقفه ، أما أنه قرر بصفة جازمة الاستعانة بالقوات التي تحت تصرفه للتصدي للأنصار في هذه المواجهة ، وأما أن الأمل كان وما يزال يراوده في أن الحكومات التي أوفدته قد ترضخ أخيراً لرغبته وتبعث له بحملة تنقذ المدينة من براثن المهدي .

كانت حامية الخرطوم تتكون من ثلاث اورط من السود ، كل اورطة تضم حوالي 900 رجلاً ، وكانوا جميعاً تحت قيادة فرج بك الزيني ، وقد أنعم غوردون على فرج بك برتبة الباشوية وعينه قائداً عاماً للقوات لأنه من قلائل الضباط الموجودين في المدينة من ذوي الخبرة العسكرية رغم أنه قد عرف بميله للتمرد ، فقد عمل في مصر قبل ثورة عرابي وقام بتحرض ضباط الآلاي السوداني على التمرد عام 1881 ، إلا أن الجند كشفوا أمره فشكلت له وزارة الجهادية المصرية محكمة عسكرية حكمت عليه بالنفي إلى السودان ، ولكن رؤوف باشا الحقه بالجيش المصري مرة أخرى عند ولايته للبلاد ، ورغم أن كثيراً ضباط غوردون قد قاتلوا الأنصار عند دخولهم المدينة حتى

سقطوا في الميدان ، إلا أن فرج بك كان ضمن أولئك الذين تخلوا عن بزاتهم العسكرية ويمموا وجوههم صوب الصحراء.

كان هناك أيضاً ثلاث أورط من الجنود المصريين الذين سبق وأجلاهم غوردون إلى أم درمان تحت قيادة محمد نصحي باشا تمهيداً لإرسالهم لمصر ، ولكنه أرجع إثنتين منهم إلى الخرطوم وعين إبراهيم بك فوزي قومنداناً عاماً للقوات المصرية . وأوكل ليوسف أفندي عفت وفرج بك على قيادة كل أورطة منفصلة . كان الباشبوزق من الشايقية والأتراك يشكلون إثنين وثلاثين فرقة تضم الواحدة الستين رجلاً تقريباً . فوضع الأتراك تحت قيادة السعيد باشا حسن الجميعابي ومعاونه حسين باشا إبراهيم الشلالي .

إلا أن هذين الضابطين قد أعدما في أوائل أيام الحصار لإتهامهما بالتآمر مع الأنصار من أجل إنزال الهزيمة بقواتهما عمداً . تضاربت الروايات حول حقيقة هذه التهمة ، إذ تقول إحداها أن الضابطين بريئان وقد ، اختلق التهمة فرج باشا الزيني الذي كانت بينه وبينهما ضغائن قديمة ، وتقول رواية أخرى أن التهمة صحيحة قد أثبتها عليهما الجنود ، إلا أن الروايتين تتفقان في أن الحكم قد نفذ سراً . الأمر الذي يلقي بعض ظلال من الشك على أن التهمة لم تكن ثابتة بشكل قاطع ، فتخوف غوردون من إعدامهما علناً .

ثم عين غوردون خشم الموسى بك قائداً للشايقية الباشبوزق ، وعبد الهادي حسن على رأس قوة من المتطوعين بلغ قوامها السبعمائة رجلاً .

تحصينات المدينة :

كان عبدالقادر باشا حلمي أول من بنى تحصينات للخرطوم في مايو 1882 أثناء ولايته على السودان ، فشيد خندقاً نصف دائري يمتد حول المدينة من الشرق إلى الغرب . وقد استعان في هذا بالضابطين أحمد ثابت وأخيه محجوب ، وهما من أصل مصري ولدا بجهات دنقلا . ثم قام دي كتلوجن بتقوية وسائل دفاع المدينة كرد فعل مباشر لهزيمة هكس باشا في آخر عام 1883 . فحفر خنادق جديدة وزاد من عمق القديمة وشيد عدة طوابي على طول خط النار فبلغ طول الخندق 5900 ياردة في زمن فيضان النيل ، إلا أنه يمتد إلى ألف ياردة أخرى عند إنخفاضه . ويبلغ عمقه 8 أقدام وعرضه 17 قدماً في السطح و10 أقدام في قاعدته .

ثم رأى غوردون عند وصوله ضرورة تقوية التحصينات ، فزاد مرة أخرى من عمق الخندق حتى بلغ 18 قدماً وشيد سوراً من الداخل وأقام فوقه حائطاً بلغ إرتفاعه

خمسة أقدام وفتح فيه المزاغل . وقام أيضاً بربط الجزء الغربي من الخندق بسلك شائك مع شاطئ النيل الأزرق ، ثم أتى ببعض المراكب محملة بعبوات ناسفة وربطها مع هذا السلك لتملأ الفراغ الذي يخلقه إنحسار ماء النيل .

ولقد تخللت خط الدفاع جملة من الطوابي المسلحة بالمدافع . كانت هنا طابية الكلاكلة في أقصى الغرب تليها طابية المسلمية . وتجاور كلن منهما بوابة عرفت باسميهما . وفي أقصى الشرق قامت طابية بري ببوابتها ، إلا أن هذه ظلت مغلقة منذ بداية الحصار . وقد وجه غوردون ستيورت باشا وخليل أفندي للإشراف على بناء طابية أكبر في مكان طابية بري القديمة ، وفي شمال المدينة توجد طابية في شلك مبنى ذي طابقين عرف بقصر راسخ أو السرايا الشرقية . وهناك أيضاً طابية بالمقرن وأخرى بأم درمان. ونثر غوردون الأعمدة الخشبية ذات الرؤوس المدببة على بعد عشرين متراً خارج التحصينات ، ووضع العبوات الناسفة السريعة الإنفجار حول جميع الطوابي كما وأن براميل المياه الفارغة قد ملئت بالديناميت ووضعت في النقاط الضعيفة من خط الدفاع ، وزرعت الألغام في جزيرة توتي وخور شمبات ومنطقة الحلفاية .

بداية العمليات العسكرية :

كان غوردون بلا شك يتأهب لخوض معركة عسكرية ، ولا تشير الدلائل إلى أنه فكر في الانسحاب أو التسليم . وكان الأنصار في ذات الوقت لا يقلون حماساً فيما يتعلق بالاستعداد الحربي . فلقد وطد الشيخ العبيد عزمه على تنفيذ توجيهات المهدي التي حواها خطابه إليه ، فشرع أنصاره في القاء حصار على المدينة من جهة الشرق ، وقطعوا أسلاك التلغراف ، وبدأوا في إطلاق قذائفهم على طابية قصر راسخ ، ثم تقدموا حتى وصلوا موقع الصبابي المتاخم لمنطقة الحلفاية فتخوف غوردون من إحتلالهم لها . فارسل قوة من الشايقية في 13 مارس 1884 للسيطرة عليها ، إلا أن إبراهيم العبيد تصدى لهم مع أتباعه وأنزل بهم هزيمة ساحقة . فسارع غوردون لإنقاذهم بإرسال باخرة محملة بالجنود تحت قيادة إبراهيم بك فوزي ، وبعد معركة دامت أكثر من ساعة انهزمت قوة غوردون وتمكن الأنصار من أسر مائة وخمسين من أفرادها وغنموا كثيراً من الأسلحة والذخيرة [196] .

وبما أن الحلفاية كانت منطقة إستراتيجية بالنسبة للخرطوم فقد عزم غوردون على إستردادها . فأرسل قوة في 17 مارس 1884 مؤلفة من أربع فرق من الجهادية

---

(196) المهدي إلى محمد خالد 4 جمادى أول 1301 (3 مارس 1884) زقل 3 . هذه المعلومات مضمنة في حاشية الرسالة التي تحمل تاريخ 8 جمادى ثاني (6 أبريل) نعوم شقير أرخها خطأً 18 جمادى ثاني ، ص 776 .

والباشـبوزق، ثـلاث منهـا تحـت قيـادة الضبـاط السـودانيين السـعيد باشـا حسـين ، وحسـن باشـا إبراهيـم الشـلالي ، ومـولى بـك سـعيد الرباطـابي ، وعقـدوا لـواء الرابعـة لميتـو أغـا الـتركي ، فعـبرت هـذه القـوة النيـل الأزرق واشـتبكت مـع الأنصـار في موقـع عـرف بجلينقـو . وقـد جـاء وصـف هـذه المعركـة في رسـالة بعـث بهـا الشـيخ العبيـد ود بـدر للمهـدي ، إلا أن هـذه الرسـالة مـا زالـت مجهولـة المـكان . ولكـن المهـدي نقـل محتوياتهـا في خطـاب بعـث بـه لمحمـد خالـد زقـل يقـول فيـه ((.... وكذلـك بيـوم الأحـد الموافـق 18 جـمادى أول 1301 في سـاعة الضحـى خرجـت إليـه جـردة تسـاوي أربعـة الآف مـن قيقـر قـصر راسـخ بالـشرق، فتقاتلـوا مـع المذكوريـن فهزموهـم في أقـل مـن نصـف سـاعة وقتلـوا منهـم أربعمائـة نفـر واسـتلموا منهـم مدفـع وجبخانـة أربعـة جـمال والشـهداء مـن الأنصـار عـشرون شـهيداً ، وقـد كان بـين القتـلى مـولى بـك – أحـد قـادة الفـرق الأربعـة – وأخـوه فضـل اللـه .

إسـتمرت بعـد ذلـك المناوشـات بـين الفريقـين إلى أن وصـل أول فـوج مـن الجيـوش التـي بعـث بهـا المهـدي مـن الغـرب بقيـادة محمـد عثـمان أبوقرجـة في مايـو 1884 .

وكان المهـدي قـد عـين أبـا قرجـة أمـيراً عـلى القـوات المحـاصرة للمدينـة في وقـت مـا قبـل 3 مـارس 1884 . ورغـم أن خطـاب التعيـين لم يظهـر لـه أثـر فيـما بعـد إلا أن المهـدي ذكـر في رسـالة لمحمـد خالـد زقـل أنـه قـد عـين أبوقرجـة ((أمـيراً لقـوات البحـر)) . كـما أنـه يشـير لـذات الأمـر في خطـاب بعـث بـه لمحمـد الطيـب ود البصـير .

تخـوف المهـدي مـن أن لا يقابـل تعيـين أبي قرجـة أمـيراً لقـوات المحـاصرة بترحـاب مـن ود البصـير ، إذ كان هـذا الأخـير مـن أنسـبائه الذيـن شـهروا السـلاح في وجـه الحكومـة في مطلـع أيـام الدعـوة . ولـذا توقـع المهـدي أن يسـتاء مـن إسـناد القيـادة في منطقتـه لشـخص غـيره ، فبعـث لـه المهـدي برسـالة يـبرر فيهـا هـذا التعيـين ، فقـد وضـح أن بعـض الأهـالي مـا زالـوا يجهلـون حقيقـة الدعـوة ، فتباطـأوا في الانضـمام إليهـا ، ولـكي يتجنـب المهـدي اسـتخدام القـوة ضدهـم أرسـل أبـا قرجـة ليجادلهـم بالتـي هـي أحسـن [197] وربمـا يتعـذر لـود البصـير القيـام بهـذا الـدور لأنـه سـبق أن اشـتبك معهـم في عـدة مناوشـات دمويـة سـتقف بـلا شـك عائقـاً في سـبيل إبـرام تسـوية سـلمية . ويلاحـظ أن المهـدي سـبق أن وجـه رجـال الشـكرية وأتبـاع العبيـد ود بـدر بالعمـل مـع ود البصـير، ولكـن كلا الفريقـين قـد تـردد في تنفيـذ هـذا التوجيـه . كـما أن صالـح المـك الـذي أبـدى اسـتعداده للتسـليم رفـض أن يتـم هـذا عـلى يـد ود البصـير ، فآثـر المهـدي عـلى ضـوء هـذه الوقائـع أن يبعـث بقائـد

(197) المهدي إلى محمد الطيب البصير بعد 8 جمادى ثاني 1301 (6 أبريل 1884) فيوضات 50/3 .

لا تربطـه بأهـالي المنطقـة ضغائـن أو أحقـاد ، وكتـب في ذات الوقـت لـود البصـير حتـى لا يفقـد وده وتعاونـه . ولم يأبـه لـشرح الموقـف لقادتـه الآخريـن أمثـال العبيـد ود بـدر وعبدالقـادر إبراهيـم ، ربمـا لأن تاريخهـم في المهديـة مـا زال قصيراً . فقـد ظـل أولهـما عـلى الحيـاد حتـى أول عـام 1884 حتـى تأكـد لـه أن المهـدي منتـصر بـلا ريـب فأعلـن الـولاء لـه ، أمـا الثـاني فقـد كان أكـثر إيجابيـة ، فبقـي عـلى تأييـده للحكومـة ، وأقـام بداخـل الخرطـوم حتـى وصـول غـوردون ، ولكـن عندمـا اتضحـت لـه حقيقـة مشـاعر الأهـالي غادرهـا نهائيـاً إلى قريـة الكلاكلـة . لم يكـن أي منهـما ، إذن ، في موقـف يمكنـه مـن اسـتنكار عقـد لـواء قيـادة المنطقـة لقائـد عريـق مثـل أبي قرجـة .

إصطحـب أبـو قرجـة أربـع فـرق مـن جنـود كردفـان باسـلحتهم الناريـة بالإضافـة إلى ذوي الأسـلحة التقليديـة الذيـن تزايـد عددهـم بوصلـه إلى شـواطئ النيـل الأبيـض خاصـة في منطقـة القطينـة حيـث تقيـم عشـيرته . ومـا أن حـط رحالـه بالقـرب مـن الخرطـوم حتـى بعـث برسـالة لغـوردون يطلـب منـه التسـليم [198] . ولقـد كشـف بهـذا التزامـاً بالمنهـج الـذي يتبعـه المهـدي في مثـل هـذه الظـروف ، فهـو يسـتعد للحـرب إلا أنـه يحـذر الطـرف الآخـر ويقـدم لـه فرصـة أخـيرة لحـل النـزاع سـلمياً .

وعندمـا تجاهـل غـوردون النـداء أيقـن أن أبـو قرجـة أنـه لا يضمـر شـيئاً سـوى الحـرب ومـن ثـم شرع في وضـع الترتيبـات النهائيـة لمواجهتـه . وكان قـد عسـكر عنـد وصولـه في منطقـة الجريـف ، إلا أن بعـض أعوانـه نصحـوه بـأن بـري قـد تكـون أكـثر اسـتراتيجية فارتحـل إليهـا وكان أول مـن شـيد الطـوابي المضـادة لحصـون الخرطـوم هنـاك . ثـم وضـع عليهـا المدافـع وأقـام الأبـراج، ومـا لبثـت أن نأصبحـت مراكـب غـوردون هدفـاص لقذائـف الأنصـار ، يطلقونهـا عليهـا مـن وراء تحصيناتهـم وهـي في طريقهـا إلى سـنار ، ومنـذ ذلـك الحـين أخـذت المناوشـات العسـكرية بـين الفريقـين تتخـذ طابعـاً أكـثر عنفـاً وإن اقتـصرت عـلى المعـارك المحـدودة النطـاق . إذ كان كل منهـما في انتظـار تعزيـزات يأمـل أن تـأتي في القريـب ولم يشـأ بالتـالي أن يرمـي بثقلـه في معركـة فاصلـة . كان غـوردون يبـذل جهـداً ليحتفـظ بالمدينـة تحـت سـيطرته حتـى تصلـه قـوات مـصر . ويبـدو أن تعليـمات المهـدي لأبي قرجـة كانـت القـاء الحصـار حـول الخرطـوم والانتظـار خـارج بواباتهـا حتـى تصـل تباعـاً جيوشـه التـي تمركـزت في الرهـد .

(198) إسماعيل بن عبدالقادر ص 321 ، هذه الرسالة مفوقدة ولأنها قد أرسلت في حوالي يونيو 1884 فربما أرفقها غوردون بالوثائق التي حملها ستيورت إلى مصر في سبتمبر وتناقلتها الأيدي حتى وصلت إلى المهدي واختفى أثرها هنا .

فاقتصر نشاط الأنصار على تصديهم لجنود غوردون متى ما ظهروا خارج الطوابي والخنادق أو على ظهر البواخر ، وشددوا في ذات الوقت رقابتهم على دخول أي مواد غذائية للخرطوم .

لم تشتعل النيران في الجهة الجنوبية الشرقية وحدها بل قام فضلو أحمد بالتعاون مع عبدالقادر إبراهيم بفتح جبهة في الزاوية الجنوبية الغربية . فشيدا طابية في الضفة الشرقية للنيل الأبيض واستعانا بقسم من جهادية أبي قرجة في إطلاق القذائف النارية التي كانت كثيراً ما تصيب أهدافها داخل أسوار المدينة ، لم يقف غوردون مكتوف الأيدي إزاء هذا الوضع ، بل بعث قوة من رجاله بقيادة عبدالقادر أفندي حسن وساتي بك لإسكات مدافع الأنصار ، ورغم تمكنهم من هدم الطابية وتدمير منازل الكلاكلة التي كانت تتحصن فيها القوات المهاجمة إلا أن الأنصار تجمعوا مرة أخرى وعادوا لاحتلال مواقعهم . وفي ذلك الحين كانت أفواج من جيوش المهدي تشق طريقها تباعاً نحو الخرطوم ، فوردت أنباء عن تقدم قوة بقيادة حامد عبدالله الدنقلاوي ، ويبدو أن هؤلاء هم الرجال الذين إستنفرهم أبوقرجة من القطينة وهو في طريقه إلى الخرطوم . وفي 4 يوليو قاد ساتي بك فرقة للاشتباك معهم ووقف تقدمهم ، ولكن الأنصار انقضوا عليها في هجوم عنيف أبادوا فيه الفرقة وقتلوا قائدها . ومن ثم واصل الفوج سيره حتى استقر في قرية الكلاكلة . فسارع غوردون بعد خمسة أيام بإرسال فرقة أخرى بقيادة سيد أفندي أمين ، ورغم أن الأنصار قد فقدوا في هذه المعركة ما يقارب الألف قتيل إلا أن قوة غوردون فشلت في إرغامهم على إخلاء الموقع.

بقي غوردون في إنتظار الفيضان حتى يتمكن من إستخدام بواخره في المعارك المرتقبة ضد أبي قرجة . وفي 18 رمضان 1301 هـ (27 يوليو 1884) شن أول هجوم له على معسكر الأنصار في بري . فبعث بقائده محمد علي باشا على راس قوة من الجهادية منقولة على ظهر البواخر وارسل خشم الموسى بك على رأس قوة من الباشبوزق . فنجحت هذه الحملة في إنزال الهزيمة بالأنصار وإستولت على 1600 بندقية وبعض الحراب والسيوف . ومن ثم تراجعت قوات أبي قرجة إلى معسكرها الرئيسي في الجريف . ولكن غوردون لم يمهلهم بل تعقبهم إلى هناك . ودارت معركة في 4 شوال 1301هـ (22 أغسطس 1884) إنهزم فيها أبوقرجة وفقد أخويه نصر ومصطفى . وأجبر الأنصار على إخلاء معسكرهم والتراجع إلى قرية ود جار النبي جنوبي الخرطوم ، كان وقع هذه الهزيمة شديداً على الأنصار ، إذ كانت بالفعل ثاني هزيمة كبرى تلحق بهم بعد الهجوم الفاشل على الأبيض ، وبما أنها كانت هزيمة لأحد كبار قادة المهدي فقد

أرسل خطاباً لأبي قرجة يواسيه. جاء فيه : ((ولا تبتئس بما حصل فإن الله تعالى أراد أن يميز الخبيث من الطيب)) .

تفاءل غوردون بعد هذا الإنتصار فبعث بمحمد علي باشا وفرج الله بك علي في 7 شوال 1302هـ (15 أغسطس 1884) لاستعادة منطقة الحلفاية حيث نجح هذان فعلاً في إجبار أولاد الشيخ العبيد ود بدر على إخلاء المنطقة ، وأحس سكان المدينة لأول مرة منذ مارس أن حدة الحصار قد خفت كثيراً ، وأغرت الانتصارات الأخيرة - التي أحرزها الجنود - غوردون ليحاول القضاء نهائياً على تجمعات الأنصار في المنطقة ، وكان الشيخ العبيد قد أصدر منشوراً لرجال القبائل يدعوهم فيه للتجمع في العيلفون ، فاستجاب له 10 ألف رجل ، كما استنفر الشيخ مضوي 5 الآف محارب ، فحاول هؤلاء إقامة معسكرات لهم على شاطئ النيل الأزرق حتى يتمكنوا من شل حركة بواخر غوردون أثناء قيامها بدوريات استطلاعية ، أو في رحلاتها إلى سنار ، وما أن أيقن غوردون من غرض الأنصار حتى بعث محمد علي باشا في 21 شوال 1302هـ (29 أغسطس 1884) على رأس قوة مختلطة من الجهادية ، والباشبوزق ، وكان هدفها القضاء على الأنصار قبل إحتلالهم لأي مواقع يهددون منها سير الملاحة . ولعبت البواخر دوراً رئيسياً في إنزال الهزيمة بالأنصار واستولت القوة على كميات من المؤن الغذائية .

وربما لهذا السبب تعقبهم محمد علي باشا حتى توغلت قوته داخل غابة أم ضبان ، ولكن جهل محمد علي وقواته بالمسالك أدى إلى تعرضهم لنيران الأنصار المفاجئة . فكانت ضربة قاضية ، فقد فيها غوردون محمد علي باشا و 1600 من خيرة جنوده الذين ينتمون للآلاي السوداني الأول .

أسطول الخرطوم :

كان الأسطول النهري الصغير الموجود بالمدينة دعامة من الدعائم التي إرتكز عليها غوردون في دفاعه . فبالإضافة إلى الاستفادة من تلك المراكب في وظيفتها البديهية كوسيلة لنقل المؤن الغذائية والمكاتبات من العاصمة وإليها ، فقد أثبتت السفن النهرية فعالية شديدة في التصدي لهجمات الأنصار من جهات النيل الأبيض والأزرق . كما أنها إستعملت للقيام بحملات تفتيشية منتظمة على الشواطئ لمراقبة تحركات الأنصار وما يدب من نشاط في معسكراتهم [199] .

كان لبواخر الأسطول تاريخ بدأ في عهد محمد سعيد باشا حين وصلت إلى الخرطوم

.Datsun, “The campaign of Gordon’s Steamers” The Royal Engineers Journal, 21 October 1888, p. 8 (199)

أربع سفن هي ((الفاشر)) و ((المسلمية)) و ((التوفيقية)) و ((نمرة تسعة)) [200]وقد ووصل فوج آخر من السفن عندما أوكلت لصموئيل بيكر قيادة حملة للمديريات الإستوائية، وضم هذا الفوج كلاً من ((تل الحوين)) و((البوردين)) و ((الصافية)) و ((المنصورة)) و ((شبين)) و ((امبابة)) و ((الإسماعيلية)) و ((الخديوي)) و ((نيانزا)) وعند مجيء غوردون السودان في عام 1877 طلب باخرتين إضافيتين هما ((العباس)) و ((محمد علي)) إلا أن تجهيزهما للعمل لم يتم إلا في عهد رؤوف باشا 1881.

وقد تم أثناء حصار الخرطوم تركيب باخرتين هما ((الحسينية)) و ((الزبير)) فاعدت الأولى للاستعمال في أكتوبر 1884 والثانية في 27 نوفمبر 1884[201].

إلا أن غوردون لم يتمكن بسبب الحرب من الإحتفاظ بكل المجموعة تحت تصرفه طوال مدة الحصار . ففقد أولاً ((المسلمية)) و ((الفاشر)) التي استولى عليها الأنصار في بربر ، ثم فقد ((محمد علي)) في فداسي وقد استعملها محمد عثمان أبو قرجة فيما بعد في نقل الذرة من قرى شواطئ النيل الأزرق إلى معسكره جنوب الخرطوم .

كما أن ((العباس)) التي حملت ستيورت وقافلته إلى مصر في سبتمبر قد تحطمت على صخرة في قرية هبه بين مروي وأبي حمد . ورأى غوردون تعطيل ((نمرة سبعة)) وإستعمال أجزائها في إصلاح بقية البواخر ، وحطمت قوات الأنصار ((الحسينية)) بعد فترة وجيزة من إنزالها للماء بالقرب من المقرن . تبقى لغوردون بعد ذلك اسطول يتكون من ((التوفيقية، وتل الحوين، والصافية، والمنصورة ، والبوردين ، والإسماعيلية)).

كانت تلك البواخر صغيرة الحجم ولم تبن أساساً لتستخدم في أغراض عسكرية . إلا أن غوردون إستطاع أن يدخل عليها من التعديلات ما جعها قادرة على القيام بمهام حربية ناجحة . فكان أن ثبت قطعاً خشبية سميكة على جانبي كل باخرة من الخارج ، وقط حديدية من الداخل ، وسلح كلاص منها بمدفعع جبلي وضع في المقدمة ، وآخر في المنتصف، مع مجموعة تتكون من خمسين جندياً مزودين بكمية من الذخيرة والمؤن الغذائية.

واستخدم غوردون البواخر في نقل المكاتبات بين الخرطوم وبربر حينمااا قام الأنصار بقطع الخط التلغرافي . فكان أن بعث في ايام الحصار بموسى بك شوقي ليأتي بالبريد من بربر على ظهر الباخرة ((العباس)) وتحت حراسة سفنتين ، وظلت هذه

(200) Hill, Sudan Transport, pp. 3-5.

(201)

وسيلته في نقل الرسائل إلى القاهرة طوال مدة الحصار ، إذ بات يبعث بها إلى بربر بواسطة إحدى بواخره ، ويحملها الجواسيس من هناك إلى دنقلا .

كان دور البواخر في القيام بمراقبة تحركات الأنصار كبيراً . فما أن تقاطرت الأنباء عن تقدم قوة للأنصار من جهة القطينة حتى أصدر غوردون أوامره لساتي بك ليقوم بحملة على ظهر الباخرة ((المنصورة)) ذات هدف مزدوج ، إذ عليها أولاً تقدير قوة الأنصار وموقعهم ، ثم الاشتباك معهم . وقد أدى ساتي بك هذه المهمة بنجاح ، فأعقبها غوردون بأخرى على ظهر ((تل الحوين)) و ((البوردين)) واستمرت هذه الحملات إلى أن تمت هزيمة أبي قرجة ، وتراجع إلى الجريف . فداوم غوردون بعد ذلك على إرسال باخرة لتستكشف تحركات النصار وتهاجم أي فئة منهم تحاول الوصول إلى بري أو المنطقة التي تجاورها .

تمركزت فائدة الأسطول بالدرجة الأولى في مقدرته على صد هجمات الأنصار المتتالية على المدينة . فما أن يسمع غوردون عن تجمعات لهم خارج الأسوار حتى يبعث بجنده على ظهر البواخر للتصدي لهم وإجبارهم على التراجع . إلا أن الأنصار سريعاً ما فطنوا إلى الدور الذي يقوم به الأسطول ، فشيدوا طابية في شجرة محو بك ، ودأبوا من هناك على ضرب البواخر أثناء قيامها بالحملات التفقدية . فأرسل غوردون ساتي بك على رأس مجموعة من الجند على ظهر كل من ((البوردين)) و ((المنصورة)) و ((الإسماعيلية)) فكان أن أنزل ساتي بك نصف مجموعته إلى الشاطئ ، واحتفظ بالنصف الآخر في البواخر ليقوم بحماية المهاجمين عند تراجعهم وقد نجحت هذه الحملة في تدمير الطابية والإستيلاء على المدفع الذي كان فيها .

ورغم النشاط المتعدد الجوانب الذي كانت تقوم به البواخر ، إلا أن صغر حجمها كان يشكل نقطة ضعفها الأساسية . فقرر غوردون الاستفادة من المراكب الشراعية وتقويتها بقطع من الخشب السميك وتسليحها بالمدافع ، فكان من جراء هذا أن ارتفع العدد الذي يمكن أن تحمله الباخرة إلى حوالي المائتين جندياً .

وقد تمكن بعد هذا من إيفاد ثمانمائة من الجنود النظاميين والباشبوزق على ظهر كل من ((البوردين)) و ((تل الحوين)) و ((المنصورة)) و ((العباس)) لمهاجمة قوات أبي قرجة في معسكرها ببري . وقد أدت الحملة مهمتها بنجاح ، بل إن هذه العملية تعد من أنجح العمليات التي قامت بها قوات الحكومة على الإطلاق . إذ طبقت في الهجوم خطة إنزال قوات لتهاجم ، وأخرى لتبقى في البواخر لترسل بقذائفها

نحـو الأنصـار وتحمـي في ذات الوقـت خـط تراجـع القـوات البريـة ، فأجـبرت أنصـار أبي قرجـة عـلى إخـلاء المعسـكر والتراجـع حـوالي 1000 مـتر جنـوب الخرطـوم ، كـما تمكنـت مـن الاسـتيلاء عـلى كميـات وافـرة مـن المـواد الغذائيـة . وقـد أثبـت أسـلوب إشراك البواخـر مـع المشـاة في الهجـوم فعاليتـه ، فـكان أن اشـتركت كل مـن ((المنصـورة)) و ((تـل الحويـن)) و ((الصافيـة)) محملـة بثمانمائـة جنـدي في معركـة العيلفـون التـي هـزم فيهـا محمـد عـلي باشـا أنصـار الشـيخ العبيـد وأجبرهـم عـلى التقهقـر إلى قريـة أم ضبـان .

ومـن ثـم يمكـن القـول إن العمليـات الناجحـة التـي حققهـا غـوردون أثنـاء الحصـار كانـت في جملتهـا تلـك التـي سـاهمت فيهـا البواخـر بمفردهـا أو بمسـاندة قـوات بريـة .

كذلـك اسـتعملت السـفن في حمـلات إمـداد المدينـة بالأغذيـة مـن سـنار والقـرى المجـاورة، فأرسـل غـوردون أولاً محمـد عـلي باشـا عـلى ظهـر سـت بواخـر إلى أبي حـراز لجمـع مـا يجـده فيهـا مـن مـؤن .

وقـد واصلـت إثنتـان مـن البواخـر رحلتهـما إلى سـنار تحـت قيـادة بخيـت بـك بطـراكي وقـد عـاد قائـدا الحملتـين بكميـات مـن الـذرة والمـواد الأخـرى ، ولعـل نجـاح هاتـين الحملتـين قـد شـجع غـوردون ليبعـث بنصحـي باشـا بعـد أربعـة أسـابيع لسـنار مـع مائتـين مـن الجنـود عـلى ظهـر ((البورديـن)) و ((تـل الحويـن)) وقـد عادتـا محملتـين بحصيلـة مـن الـذرة تعتـبر أكـبر مـا أدخـل للمدينـة طـوال فـترة الحصـار .

إلا أن ذلـك النشـاط الفعـال قـد تقلـص كثـيراً عندمـا قـرر غـوردون التخـلي عـن بعـض قطـع أسـطوله . ففـي 12 سـبتمبر 1884 تخـلى عـن الباخـرة ((العبـاس)) فرحلـت وعـلى ظهرهـا سـتيورت باشـا وقناصـل إنجلـترا وفرنسـا وألمانيـا وبعـض التجـار الراغبـين في العـودة إلى مـصر. كـما رحلـت ((المنصـورة)) و ((الصافيـة)) مـع هـذه القافلـة لتأمـين خـط سـيرها حتـى تتعـدى منطقـة الخطـر عنـد مشـارف بربـر . ورغـم أن هاتـين الباخرتـين عادتـا إلى الخرطـوم مـرة أخـرى في العشريـن مـن نفـس الشـهر ، إلا أن مهمـة أخـرى خـارج نطـاق الحصـار كانـت معـدة لهـما ، إذ قـرر غـوردون أن يبعـث بهـما لانتظـار حملـة الإنقـاذ في شـندي مـع باخـرة أخـرى هـي ((تـل الحويـن)) فغـادرت هـذه المجموعـة الخرطـوم في 30 سـبتمبر ، وأرسـل فيـما بعـد ((التوفيقيـة)) وهـي تحمـل البريـد ، وأمـر نصحـي باشـا الـذي عقـد لـه لـواء قيـادة أسـطول المتمـة بالإحتفـاظ بهـا وإرسـال ((تـل الحويـن)) بـدلاً عنهـا إلى الخرطـوم .

وعنـد وصـول هـذه ، بعـث بهـا مـرة أخـرى مـع ((البورديـن)) ومـع تعليـمات لخشـم المـوسى بـك بالبقـاء في شـندي عـلى ظهـر ((المنصـورة)) في حـين يتوجـه نصحـي باشـا في

((التوفيقية)) و ((تل الحوين)) و ((الصافية)) إلى المتمة وتعود ((البوردين)) مرة أخرى إلى الخرطوم .

ومما لا شك فيه أن غوردون ارتكب خطأ بإيفاده تلك السفن لانتظار حملة الإنقاذ زهاء خمسة أشهر في شندي دون أن تقوم بأي عمل من شأنه أن يساعد في تخفيف حدة الحصار المضروب حول المدينة . بل إن هذه البواخر كانت معطلة تماماً طوال مدة بقائها هناك، إذ أن غوردون قد أمر الجند بعدم المبادرة بالهجوم خوفاً من أن تقضي عليهم قوات الأنصار التي تتفوق عليهم عددياً ، وكان من الممكن أن تواصل تلك البواخر نشاطها في الدفاع عن المدينة خاصة وأن الخرطوم كانت تمر بأحرج فتراتها ، إذ شهد شهر سبتمبر وصول تجمعات إضافية للأنصار ، وتصاعدت الإشتباكات بصور لم يسبق لها مثيل .

عجز غوردون بعد ذلك التاريخ عن التصدي الفعال لقوات المهدي ، ناهيك عن مبادرتها بالهجوم ، إلى درجة أنه اضطر لإخلاء الحلفاية . ولم يتمكن أيضاً من إيفاد أي حملات لسنار للحصول على مواد غذائية ، إذ كانت آخرها تلك التي قام بها نصحي باشا بنهاية سبتمبر .

لم تدم فترة الهدوء الذي أعقب تراجع قوات أبي قرجة طويلاً . فسرعان ما استدعى المهدي قائده عبدالرحمن النجومي من جبل الداير ليقود حملة إلى الخرطوم في 18 شعبان 1301 – (13 يوليو 1884)[202] وغادر النجومي الرهد في غرة شعبان 1301هـ (2 يونيو 1884) على راس جيش يقارب الستين ألفاً ، وقد اجتمعت معه قوات عبدالله ود النور التي قدرت بالعشرين ألفاً [203] . تسلحت غالبية المحاربين بالحراب والسيوف ، إلا أنه كانت هناك قوة من الجهادية تبلغ عشرة الآف رجل مسلحين بالبنادق ، بالإضافة إلى قوة مماثلة من الخيالة . وكانت معهم أيضاً أربع مدافع جبلية ، واربع مدافع كروب ، وصاروخ واحد ، وسار مع هذه القوة مجموعة من الأمراء ، بينهم حسن النجومي ، وعبدالقادر ود مدرع – شيخ قبيلة الحسنات ، وعبدالله سالم بن حاج عبدالله .

وما أن وصل النجومي إلى ضواحي الخرطوم حتى شرع في توزيع المنشورات على الأهالي يحثهم على القيام لمساندة القوات المحاصرة فاجتمعت أعداد هائلة .

(202) المهدي إلى عبدالرحمن النجومي وحمدان أبوعنجة وموسى الحلو فيوضات جـ 193/3 .

(203) عبدالله ودالنور من قبيلة العركيين ، أعلن إنضمامه للمهدي في أولى مراحل الدعوة . شارك في حصار عدة مواقع في كردفان بما فيها بارة والأبيض ، قتل في إحدى معارك حصار الخرطوم قبل حوالي شهرين من سقوط المدينة فعين إبراهيم أبوبكر مكانه . (أبوسليم معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم) .

عسكر النجومي مع جزء من قواته في قرية القوز ليقابل طابية الكلاكلة حيث يوجد أكبر قدر من الجند والعدة والعتاد الحربي ، وقد وجه الشيخ عبدالقادر إبراهيم لإقامة معسكره في منطقة تواجه طابية المسلمية في حين تمركزت قوات عبدالله ود النور وعبدالحليم مساعد في منطقة بري المعروفة بحساسيتها ، إذ منها يمكن السيطرة على الملاحة في النيل الأزرق وشل حركة بواخر غوردون في ذلك الاتجاه .

وكان المهدي يزود قادته بتعليمات من الرهد ، فبعث يوجه شيخ فضلو ود أحمد الذي كان مقيماً في شجرة محو بك لينضم مع عبدالله ود جبارة إلى الشيخ العبيد ود بدر لتعزيز الجبهة الشرقية ، إذ أنها تمثل المدخل الرئيسي لأية قوات قادمة من الخارج . ولهذا السبب بعث لهم فيما بعد بقوة إضافية بقيادة أبي بكر ود عامر .

خزن النجومي المواد الغذائية في الجريف تحت حراسة حاج خالد العمرابي ، ثم شيد طابية وضع عليها كلاً من شريف سليمان العبيد ، وحمد النيل حامد ، وعمر الخليفة محمد سوار الذهب ، فجعلوا رجالهم في حالة تأهب لإرسال اية نجدة قد تطلبها بري .

وشيد النجومي أيضاً جملة طوابي في مقابل طوابي الخرطوم حتى يتمكن أنصاره من إرسال قذائفهم عند ظهور أي من رجال الحامية خارج بواباتهم . وداوم المهدي على إرسال افواج من المحاربين بصفة منتظمة ، كما يفهم من إحدى رسائله ، وفيها يشير على النجومي بتوزيع القوات الموفدة على طول خط النار مع وضع كل راية في موقع إستراتيجي [204] وعند مقتل عبدالله ودالنور إنتقل النجومي إلى معسكر بري بناء على تعليمات المهدي في حين حل أبو قرجة مكانه في مقابل طابية الكلاكلة .

المرحلة الختامية للحصار :

وبوصول فوج المهدي إلى مشارف المدينة في 23 أكتوبر 1884 وصل موقف الحصار إلى ذروته المتوقعة ، فقد بدأت المسيرة من الرهد في 22 أغسطس . ولعل ضخامة حجمها قد اضطرها إلى اتخاذ ثلاثة طرق منفصلة إلى الخرطوم ، فسار المهدي والخلفاء في طريق الطيارة ، شركيله ، شات ، الدويم ، واتخذ رعاة الإبل الطريق الشمالي مروراً بخور سو، هلبة ، والترعة الخضراء ، أما الطريق الجنوبي فكان يناسب البقارة نسبة لوفرة المياه على طول إمتداده . ووصف أحد شهود العيان هذه المسيرة بقوله ((بحال قيام المهدي من الرهد إلى الخرطوم بالجيوش الجرارة التي ليس لها نظير قامت الدنيا بأثرها وتوجهنا مسافرين كأننا قرعة على البحر لا نعرف أولنا من آخرنا)) .

(204) المهدي إلى عبدالرحمن النجومي 8 ربيع أول 1302 (26 ديسمبر 1884) فيوضت جـ/178 .

وقدرت القوات التي جاءت في ركاب المهدي بحوالي 000ر200 شخص ، وقد شملت هذه بالإضافة إلى المحاربين كثيراً من زعماء القبائل الذين سارعوا بإعلان الولاء للمهدي قبل مغادرة الرهد ، وانضموا إليه مع عائلاتهم ، ولعل الهدف من النزول في القرى التي تقع على طول الطريق لم يكن الاستجمام وحده ، بل جذب أعداد إضافية من الأهالي لتسير في معية المهدي إلى الخرطوم .

ومن الطريق بعث المهدي برسالة إلى قواته المحاصرة للمدينة يدعوهم إلى تشديد قبضتهم عليها ويعلن لهم أن إلمامه بهم قد أصبح وشيك الوقوع ، كان الموقف في المنطقة يهدد بالانفجار ، إذ أن الاتجاه العام لكل فريق قد تحدد بصفة نهائية ، ولم يكن أي منهما يقبل التنازل عنه قيد أنملة . وكشفت الرسائل المتبادلة أن فريق المهدي لا يقبل حلاً سوى التسليم المطلق ، وإلا فلا مناص من الحرب . فكتب الشيخ عبدالقادر إبراهيم ((... إن ذات الإمام الشريف حضرت بشات ومعه من الجيوش ما لا يحصى عدداً وعن قريب حاضر بجيوشه للبندر فوجب علينا إعلامكم بذلك فلعل وعسى أن تقبلوا وتتركوا كلام المفسدين وتسلموا أمركم لهذا الإمام عليه السلام لأنه لا شك أنه هو المهدي المنتظر عليه السلام ، وأن جميع الدول يصير هلاكها على يده ، ولأنه مؤيد ومنصور بقدرة الله .. وهذا ما نصحناكم به إن أراد الله لكم ولأهل البندر قبوله ، وأعلموا يا سعادة الغوردون إننا خاطبنا حضرة الإمام المهدي في حقكم وردت إفادته بما يوجب سروركم وتأمينكم إن حصل منكم الانقياد أو التسليم [205])) .

ويكرر الشيخ عبدالقادر ذات الدعوة في خطاب آخر ويطلب من غوردون إغتنام هذه الفرصة لتأمين سلامته وسلامة المسلمين ، وإلا فإن الأنصار لن يترددوا بعد ذلك في إقتحام أسوار المدينة ((فهم في غاية التصميم وقوة العزم وكل منهم يغدو ويروح راضياً بالموت)) [206] . إلا أن غوردون كشف في رده على الشيخ عبدالقادر أنه لن يسلم لهم ، بل هو على استعداد لمواجهتهم عسكرياً ، إذ يقول ((زيادة على ما قوينا به إستحكام الخرطوم من ألغام وسلوك فإننا شارعين في أعمال زلزلة أرضية بواسطة الأجزاء الكهربائية))[207] .

وبعث عبدالرحمن النجومي أيضاً لغوردون يكرر فيه ما ورد في خطاب الشيخ عبدالقادر ويقول ((فإن اتبعت وسلمت الأمر لله ورسوله فزت بأجرك وأجر جميع

---

(205) عبدالقادر إبراهيم إلى غورودون باشا 18 ذو القعدة 1301 (10 سبتمبر 1884) ملحق أ .

(206) عبدالقادر إبراهيم إلى غوردون باشا غاية ذو القعدة 1301 (22 سبتمبر 1884) ملحق ب .

(207) غوردون إلى عبدالقادر إبراهيم 30 ذو القعدة 1301 (22 سبتمبر 1884) ملحق ب .

مـن معـك)) [208] فجـاء رد غـوردون ليقنعهـم بـالا مجـال لحـل القضيـة سـلمياً ، فهـو لـن يعـترف بالمهـدي، ولـن يستسـلم لـه . فايقـن النجومـي عندئـذ أنـه لم يعـد هنـاك طريـق سـوى الحـرب ، ومـن ثـم بـدأ يدعـو غـوردون إليهـا بقولـه ((وأعلـم أن المهـدي عليـه السـلام مـا قدمنـا الا لمحاربتـك ومدافعتـك وتوطيـة لجيشـه ولسـيادته، ومـا دام أنـت واليـا مـن دولتـين عظـام كـما ذكـت وحـضرت لتسـوية أحـوال السـودان فـلا تجـد فرصـة لنجـاح قصـدك ومـا مولـك الا في هذيـن اليومـين قبـل حضـور الجيـش وإسـتكماله فإنـك إن تأخـرت أنـت ومـن معـك بداخـل القـقـرة إلى أن تـم وصـول الجيـوش وحـل الـركاب الشريـف بهـذا الطـرف وأنتـم تحـت انظـار الإنكليـز فقـد خـاب قصدكـم وأملكـم فـالأولى أن تجمـع كافـة حزبـك ورجالـك وتخـرج لمقابلتنـا ومقاتلتنـا خـارج الإسـتحكام))[209] .

ويلاحـظ أن غـوردون رغـم رفضـه المبـدئي للتسـليم مـا زال يتجنـب المعـارك الواسـعة النطـاق التـي يمكـن أن تنـزل ضربـة قاضيـة بقوتـه ، فهـو يريـد أن يصمـد أطـول وقـت حتـى تصـل حملـة الإنقـاذ . ولا بـأس في هـذا الأثنـاء مـن بـذل محاولـة أخـيرة علهـا تنجـح في إقنـاع قـادة الأنصـار بنبـذ أمـر القتـال . فعـرض عـلى النجومـي وأبوقرجـة فكـرة الاعـتراف بهـما سـلطانين عـلى الغـرب إذا مـا عـادت الأمـور إلى مـا كانـت عليـه قبـل الثـورة [210]إلا أن هـذه المناصـب لم تغـر الأمـيران فقابـلا عـرض غـوردون باسـتخفاف ظاهـر . ثـم حسـمت آخـر رسـائلهم القضيـة ، فـلا دعـوة للتسـليم بعـد ذلـك ولا قبـول لهـا ((فبعـد هـذا لم يكـن بيننـا وبينكـم مكاتبـة أو مخاطبـة إلا الحـرب))[211].

وقـد عكسـت مكاتبـات المهـدي التـي بعـث بهـا لغـوردون نفـس الإتجـاه الـذي حملتـه رسـائل قادتـه ، فإمـا التسـليم أو الحـرب ، في حـين أكـد غـوردون رفضـه للحـل الأول وإصراره عـلى الصمـود ، والبقـاء مـن بعـد للأقـوى .

ولقـد كتـب المهنـدي في أول رسـالة بعـث بهـا لغـوردون بعـد وصولـه لمـشرع القيعـة بالقـرب مـن أم درمـان قائـلاً ((فـإن انبـت إلى اللـه تعـالى وأسـلمت وسـلمت الأمـر للـه ورسـوله وصدقـت بمهديتنـا أرسـل مخاطبـة منـك ومـن معـك جميعـاً إلينـا بعـد وضـع السـلاح ورفـع المحاربـة لنرسـل لكـم مـن يؤمنكـم ، وإن لم تفعلـوا ذلـك فأذنـوا لحـرب مـن

---

(208) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون باشا 21 ذو القعدة 1301 (13 سبتمبر 1884) ملحق ج .

(209) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى غوردون باشا 2 ذو الحجة 1301 (24 سبتمبر 1844) ملحق د .

(210) غوردون إلى الشيخ عبدالرحمن النجومي ، 2 ذو الحجة 1301 (24 سبتمبر 1884) ملحق د .

(211) عبدالرحمن النجومي وعبدالله النور إلى نوردون 3 ذو الحجة 1301 (25 سبتمبر 1884) ملحق هـ .

الله ورسوله))[212]ثم كرر المهدي هذا النداء في كل خطاباته التي بعث بها من ديم أبي سعد طوال الثلاثة أشهر التي سبقت مهاجمته للمدينة . ويبدو أن المهدي كان يأمل أن تثمر هذه الخطابات وتتم له السيطرة على الخرطوم دون اللجوء إلى الحرب ، إذ كان يعتقد ألا فائدة من الاقتتال إذا كان بالامكان اتباع طريق الحل سلمياً [213].

ثم كتب المهدي رسالة لأهالي الخرطوم يبدو أنها الأخيرة ، يعرض عليهم إغتنام الفرصة للنجاة بأرواحهم ، ويلومهم على إنتظار النجدة من الانكليز ، فقال ((نعرفكم أن الله تعالى غني عن العباد يهدي من يشاء إلى طريق الرشاد ويضل من يشاء ، ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً وقد طال ما تكررت منا النصائح وأردنا نجاة عباد الله ورسوله لطريق الله فأناب الله من أراد الله سعادته وخالف من خذله الله فاصمه وأعمى بصره فلا أدري ما الداعي إلى عدم الانقياد أو لله شركاء يستشيرهم فيمن يكون مهدياً أم له منازع في إرادته كلا بل هو القادر الفاعل لما يشاء فيجب على كل ذي بصيرة الوقوف معه على حد الأدب ... ومن المعلوم أني عبد دال إلى الله ، فمن اتبعني فقد حاز السعادة الكبرى ، ومن خالفني سيذيقه الله عذاب الخزي .. وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فإلى متى الغفلة والتسويف وإلى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ، ألم يأت لكم أن تميل قلوبكم إلى ما ينفعكم في آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر والضير ، أو ترغبون النجدة والفرج عند الإنكليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذي بيده أموركم وقوامكم وهو القوي العزيز فما الانكليز وغيرهم أضعافاً مضاعفة بشيء في جنب قدرة الله التي يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب . وما القوت إلا من عند الله القريب المجيب)) [214] .

يقال أحياناً إن المهدي لم يبدأ في مخاطبة غوردون عند وصوله إلى مشرع القيعة إلا بعد نهاية محرم (19 نوفمبر) ذلك لأنه يتجنب الحرب في ذلك الشهر ، ويصور هذا القول المهدي كأنما كان يسعى إلى الحرب ويبادر بالعنف ، إلا أن الوثائق اثبتت غير هذا . فرغم أن المهدي قد أعلن صراحة إستعداده لخوض غمار الحرب إلا أنه بذل جهداً كبيراً ليغري غوردون بالتسليم ، وكانت استجابة الأخير الرفض الصريح ، ومن ثم فلم يعد خافياً على أحد بعد ذلك أن الحرب هي السبيل الوحيد .

---

(212) المهدي إلى نوردون 2 محرم 1302 (22 أكتوبر 1884) ملحق د .

(213) المهدي إلى محمد الطيب البصير بعد 4 جمادى أول 1301 (3 مارس 1884) . فيوضات جـ 3/50 .

(214) المهدي إلى كافة أهالي الخرطوم ، إنذارات ب ص 225 – 6 .

وضع غوردون الفرقة المصرية الأولى المكونة من ثلاثمائة وعشرين جندياً تحت قيادة يوسف أفندي عفت في أول خط الدفاع من الجهة الغربية ، ويلي هذه عشر فرق من الباشبوزق الشايقية والمتطوعين تحت قيادة عثمان بك حشمت . ثم الفرقة المصرية الثانية بقيادة فرج بك علي وإبراهيم بك صالح ، وكانت تسيطر على المنطقة الممتدة حتى بوابة الكلاكلة ، وقد وضع هذا الجزء من خط الدفاع تحت قيادة حسن بك بهنساوي . وإلى الشرق من بوابة الكلاكلة وضع غوردون ثلاث فرق من الباشبوزق الأتراك والشايقية ، ثم الفرقة السودانية الأولى تحت قيادة علي أفندي صقر ، ثم تسع فرق أخرى من الباشبوزق بقيادة سرور بك بخيت ، ويلي هؤلاء الفرقة السودانية الثانية بقيادة محمد أفندي عثمان ، ثم فرقتان من الباشبوزق ، فالفرقة السودانية الثالثة بقيادة أحمد أفندي السوكي ، وقد كان هذا الجزء تحت قيادة بخيت بك بطراكي .

واتخذ غوردون جملة احتياطات دفاعية في أقصى الجزء الغربي من خط النار ذلك لأن انخفاض النيل قد أدى إلى ظهور جزيرة صغيرة بين طابية المقرن وأم درمان ، ولم تغب عن ذهن غوردون إمكانية إحتلال تلك الجزيرة بواسطة الأنصار ، فبعث لتوه بمائة جندي لحراستها . إلا أن إستمرار إنخفاض النيل أدى إلى إتساع تلك الرقعة حتى بلغ طولها حوالي 1500 متراً فشرع الجند في حفر الخنادق وتشييد الأسوار حتى تمكنوا من تغطية حوالي 1000 متر . ويبدو أن حالة الإرهاق التي وقع فيها الجند لم تمكنهم من إتمام الخمسمائة متراً المتبقية ، فظل ذاك الجزء ثغرة في خط الدفاع . ولقد تدهور الموقف من الناحية الشمالية ايضاً، إذ أن غوردون اضطر لإخلاء الحلفاية عند إرسال البواخر إلى شندي فما كان من الشيخ العبيد إلا أن تقدم لاحتلالها وبدأ أنصاره يرسلون قذائفهم بصورة منتظمة على المدينة .

طبق المهدي حال وصوله خطته النهائية في توزيع قواته حول المدينة فعسكر محمد عثمان أبي قرجة في الجنوب الغربي بمحاذاة النيل الأبيض ، في حين حاصر فضل المولى بك طابية أم درمان ، وعسكر حمدان أبوعنجة بين الطابية والنهر ، وأرسل غوردون ثلاث بواخر لتصد هجوم أبي عنجة على طابية أم درمان حيث نشبت معركة بين الفريقين كان تفوق الأنصار فيها عددياً هو السبب المباشر في إنزال الهزيمة بقوة الحكومة ، فأغرقوا إحدى السفن وهي ((الحسينية)) ، قرب جزيرة شيخ أبو زيد ونجحت الاثنتان في الرجوع إلى الخرطوم تحت وابل من الرصاص ، استمر التراشق بالنيران حتى تم تسليم حامية أم درمان، فكان لهذا أثر مباشر على موقف الخرطوم

، إذ إجتمعت قوات المهدي بأسرها حول المدينة ، وظلت ترسل قذائفها ليلاً ونهاراً على الجند والبواخر على حد سواء ورغم هذا صمدت الخرطوم قرابة الثلاثة أسابيع ويبدو أن الأنباء التي وصلت إلى المهدي عن قرب وصول حملة الإنقاذ جعلته يعجل بالهجوم . كما وضح ، من ناحية أخرى ، أن لا أمل البتة في السيطرة على المدنية سلمياً . ولكن هذه القوة الآتية من الخارج ربما تدعم حامية الخرطوم لدرجة لا تمكن الأنصار من إحراز النصر السريع الذي توقعوه ، فمن الأفضل – إذن – شن هجوم شامل قبل وصولها . وتمكن المهدي من الإلمام بتفاصيل خطة دفاع غوردون من بعض الجنود الهاربين ، فعلم أن القوات النظامية تقوم بحماية النقاط القوية ، في حين تركت الثغرات تحت حراسة الأهالي والضعفاء . ولهذا فقد بدأ الهجوم في صبيحة الاثنين 9 ربيع ثاني 1302هـ (26 يناير 1885) بالتركيز على أكثر المناطق ضعفاً ، تلك التي في أقصى الغرب ، وسرعان ما فوجئ رجال حامية الخرطوم بالأنصار وهم يضربونهم من الخلف ، فلم تكن هناك مقاومة تذكر بل ، أن أغلبهم وضع السلاح دون أن يطلق قذيفة . لم يكن بإمكان رجال الحكومة أن يردوا هجوماً يشنه ما يقارب المائة ألف محارب . بالاضافة إلى هذا فقد أفقدهم الارهاق الجسدي الذي تعرضوا له من جراء المجاعة التي اجتاحت المدينة كل لياقة تمكنهم من خوض معركة متكافئة .

أما حملة الإنقاذ فقد كان تاريخ وصولها إلى القبة يوم 20 يناير . ولعل ذاك القول الذي يردده بعض المؤرخين بأن الحملة لو سارعت طلائعها إلى الخرطوم يوم وصولها القبة لتمكنت من تغيير مجرى التاريخ هو مجرد تصور . فماذا كان يمكن أن تفعل حفنة من الجند على ظهر ((البوردين)) و ((تل الحوين)) أمام تلك الجحافل؟ . ولعل القول بأن وصول الطلائع كان سيدفع برجال الحامية إلى الصمود لأنه يبشر بقرب وصول حملة الإنقاذ هو الآخر بعيد عن الواقع ، إذ أن رجال الحامية كانوا في حاجة إلى من يحارب في صفوفهم لا إلى من يرفع من روحهم المعنوية .

الخاتمـــــــة

بسقوط الخرطوم في أيدي الأنصار ، في السادس والعشرين من يناير سنة 1885 ، وضعت النهاية العملية للمهمة التي أوكل أمر تنفيذها لغوردون . فبعد انقضاء زهاء العشرة أشهر في المدينة ، وضح تماماً أن تعليماته التي تلقاها في كل من لندن والقاهرة ما زالت حبراً على ورق . وفي المكان الأول ، لم يتمكن من إخلاء أي من الجنود والمدنيين من رعايا الامبراطورية العثمانية الذين كانوا يرغبون في العودة إلى مصر . كل ما تم في هذا المجال هو ترحيل قرابة الألف شخص يشكلون في معظمهم عائلات الضباط والجنود الذين هلكوا مع هكس باشا في شيكان . ولم يتعد نشاطه إزاء حامية الخرطوم في هذا الصدد سوى نقل فرقتين من الجنود المصريين إلى أم درمان تأهباً للرحيل ، إلا أن تزايد جموع النصار حول المدينة قد إضطره لالغاء الخطة ، أو على الأقل تأجيلها ، فعاد بهم مرة أخرى إلى الخرطوم حيث بقوا فيها حتى سقوطها . لم يتمكن غوردون من عمل شيء أيضاً فيما يتعلق بالحاميات الأخرى التي كان من القرر أن يشملها قرار الإخلاء . فقد تأكد له أن الوضع في منطقة الخرطوم وفي المراكز التي تقيم فيها الحاميات لا يسمح بسحب أي منها ، فبقيت في مكانها تسعى بامكانياتها لتشتيت شمل الأنصار من حولها فسقط منها من خارت قواه وبقي بعضها يدافع عن نفسه لوقت لاحق لسقوط العاصمة .

أما الشق الآخر من تعليمات غوردون ، ذلك الذي يتعلق بالجانب السياسي ، فلم يكن نصيبه من النجاح أكثر من الشق الأول . فقد فشلت محاولاته في إبقاء السودان تحت النفوذ التركي – المصري ولو صورياً . وتأكدت أول بوادر هذا الفشل عند سقوط بربر بعد حوالي ثلاثة أشهر من تاريخ تعيين مجلس الوجهاء الوطنيين الذين نصبهم غوردون ليحفظوا سلطة الخديوي . أما بالنسبة للخرطوم فرغم أنه شخصياً ظل يسيطر على الموقف طول مدة بقائه ، إلا أنه حاول تطبيق خطة بربر بتعيين مجلس من الأعيان يحتل رعايا الإمبراطورية العثمانية أغلب مقاعده . ولم تلق محاولته لإغراء ذوي النفوذ من الأهالي بالسلطة صدى في نفوس هؤلاء . من ثم غادر عبدالقادر إبراهيم قاضي الكلاكلة الخرطوم نهائياً رغم تمتعه بعضوية ذلك المجلس . ولم يتمكن عوض الكريم أبو سن من قبول منصب مدير الخرطوم الذي عرضه غوردون عليه متعللاً بخطورة السفر وسط منطقة فقدت الحكومة السيطرة عليها تماماً . ولعله آثر مراقبة الوضع عن بعد خاصة وأن قبيلته كانت تتأرجح في موقفها بين الفريقين المتنازعين .

لم تثمر ، إذن ، محاولات غوردون في الوصول إلى حل وسط يتمثل في سحب السلطة التركية الفعلية وإبقاء نفوذ صوري يسنده جهاز حكومي يقف للمهدي بالمرصاد ، ولم يكن الوضع في الواقع يحتمل حلاً وسطاً ، وكانت الثورة قد انتظمت جميع القطاعات القبلية ، وأكد المهدي سيطرته التامة على أجزاء كبيرة من البلاد فاندفع الناس لمساندته بحماس منقطع النظير . وأبدوا استعدادهم للتضحية بأرواحهم وأموالهم . كانت الرؤيا أمامهم واضحة لا غموض فيها ولا لبس ، فهم يسعون للسيطرة على الخرطوم كجزء من مخطط يستهدف القطر بأكمله ، بالإضافة إلى هذا فقد توفرت لهم العوامل التي تساعد في إستكمال هذا النجاح ، توفر لهم العنصر البشري المسلح بأسلحة تقليدية ، وتوفرت لهم أيضاً كميات من الأسلحة الحديثة والأموال والعتاد الحربي ، ولم تفتقر حامية الخرطوم إلى كل هذا فحسب ، بل افتقرت في المكان الأول إلى روح المبادرة التي تدفع الجنود نحو خوض معارك ضد الأنصار بحماس حقيقي ، فقد تاه الهدف من تلك الحرب بالنسبة لهم وسط ضباب كثيف ، فهل يحاربون من أجل ترسيخ أقدام الحكومة المصرية التي أعربت عن زهدها في البلاد رسمياً ؟ أم من أجل الحكومة البريطانية ؟ أم من أجل غوردون؟ بالطبع ثمة جنود بين أفراد الحامية لا تنقصهم الشجاعة والإقدام ، ولكنهم كرهوا التفريط في أرواحهم من أجل قضية غامضة أهدافها وغير محددة معالمها .

كان لا بد أن تكتمل سيطرة الأنصار على البلاد بعد سقوط الخرطوم فتشمل المراكز التي لم تزل تحت قبضة جنود الحاميات الحكومية ، وكانت كسلا في حالة حصار بواسطة عامل المهدي مصطفى مهدي وأعوانه ، فكتب مديرها أحمد عفت إلى السلطات المصرية طالباً النجدة ، إلا أنه لم يكن في الامكان الاستجابة له بعد سقوط الخرطوم ، فقد انتزع المهدي من أيديهم السلطة التي كانت تخول لهم حق التدخل في البلاد . وقد خشي حكام مصر أن تفسر أي إشارة بإرسال جنود إلى السودان على أساس أنها محاولة للتصدي عسكرياً للأنصار ، الأمر الذي يعرض حدود مصر الجنوبية على الأقل للخطر . إزاء هذا الوضع لم يكن أمام مدير كسلا سوى الرضوخ لنداء التسليم الذي وجهه عامل المهدي ، فتم هذا في شعبان 132 (مايو 1885) .

أما حامية سنار فقد ظلت حبيسة خنادقها لفترة لاحقة لسقوط الخرطوم حتى أرسل المهدي محمد عبدالكريم ، فتم له الاستيلاء على الموقع في جمادى آخر 1302هـ (مارس 1885) .

ومن ثم فطن المهدي إلى ضرورة تأمين منطقة شمال الخرطوم المتاخمة لحدود

مصر والتي يمتد عبرها أسهل الطرق البرية والنهرية التي تربط بين البلدين . فأوكل لعبدالرحمن النجومي مهمة تعقب الحملة الانكليزية ، فسار إلى المتمة وبقي فيها يتسقط أخبار الحملة ، وفي يونيو من نفس العام قررت حكومة جلاد ستون إخلاء دنقلا ، فأمر المهدي محمد الخير بالتوجه إلى إحتلالها ، فوقعت في قبضتهم لقمة سائغة .

نظم المهدي أيضاً حملة بقيادة حمدان أبي عنجة إستهدفت بعض قبائل جبال النوبة وجبال تقلي التي تمردت على سلطته .

لم تبلغ إنتصارات الأنصار ذروتها إذن في السادس والعشرين من يناير كما يتبادر للذهن لأول وهلة ، بل تم لهم هذا بعد خمسة أشهر من ذلك التاريخ . ففي ذلك الحين لم يسيطروا على الخرطوم فحسب ، بل أمن لهم سقوطها إمكانية الاستيلاء على كل المراكز التي كانت لم تزل تحت سيطرة الحاميات ، وقد انقلب الانكليز على أعقابهم عائدين من حيث أتوا . وبدأ المهدي يتطلع إلى بسط نفوذه وسيطرته على مناطق خارج حدود البلاد . وعاد مرة أخرى إلى ممارسة إستراتيجيته الإعلامية التي درج عليها في نشر الدعوة عن طريق المنشورات العامة والرسائل الخاصة ، فكتب خطاباً إلى الخديوي وآخر إلى أهالي مصر وزود دعاته بالوثائق ، فأخذوا يجوبون بلاد العرب من مشرقها إلى مغربها في محاولة للخروج بالدعوة إلى نطاق يشمل العالم الإسلامي بأكمله .

المصادر
مصادر أولية :
أ. مخطوطات دار الوثائق المركزية ، الخرطوم .

Board of Officers headed by Muhammad Nushi Pasha,

The life of Gordon Pasha in Khartoum.

Ramadan 1303.

Egyptian Intelligence, Class I, Box 3/20

إبراهيم البورديني ،

تقرير عن حصار الخرطوم وتحريرها

20 أغسطس 1887

Egyptian Intelligence, Class I, Box 10/52

عبدالرحمن النجومي.

مخطوط النجومي .

.Mahdia Class 8/Box 4

محمد خالد زقل ،

.Mahdia Class 8/Box 4

أفراد من الجنود والمدنيين ،

تقارير وإفادات عن حصار الخرطوم وسنار

Egyptian Intelligence, Class I, Box 8/54

أبوسليم ، م . أ ،

معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم

(غير مصنفة وغير مرقمة)

دوائر رسمية ،

A Handbook of Khartoum Provice

(غير مصنفة وغير مرقم)

Leverson, J.,

Insurrection of the False Prophet

Egyptian Intelligence, Class I, Box 8/3

Col. Fraser,

Report on the Relief of Khartoum 30.4.1884.

مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية –جامعة درام

نصيحة العوام للخاص والعام

20 رمضان 1301 Box, 98/4

إسماعيل بن عبدالقادر ،

سعادة المستهدي في سيرة الإمام المهدي (إسماعيل بن عبدالقادر)

Box, 99/6

عوض الكريم علي المسلمي ،

الفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية محمد المهدي المنتظر

Box, 98/5

مقالات لم تنشر :

Parr, M. W., A Rough Outline of the History of Gordon Notes

Box 424/10

Tarttelin, B, 'The Gordon Currency Notes' Box 424/10

Box 424/10

Hill, R., ‘Gordon’s Steamers’

(unclassified)

Public Records office, London

Offical Papers Egypt FO 78

Cromer’s Papers 633.

Granville’s Papers G/D 29.

British Musuem

Gordon, C.G.,

The journals of Gordon at Khartoum 34473-9

Glastone Papers, Add. MSS.

Hansand Perliamentary Debates, 1884.

State Papers Vol.42. (Egypt No. 1,5,6,12).

قسم السودان ، مكتبة جامعة الخرطوم

محمد نصحي باشا ،

جورنال الحوادث

(غير مصنف وغير مرقم)

عثمان دقنة،

دفتر وقائع عثمان دقنة ، ف .

مكتبات خاصة:

إبراهيم البورديني ،

تقرير عن حصار الخرطوم وسقوطها

20 أغسطس 1887

(بروفسور ب . م . هولت)

يوسف ميخائيل ،

تاريخ حياتي

15ر12ر1934 (بروفسور ب . م . هولت)

ب: مطبوعات

محمد أحمد المهدي :

- منشورات الإمام المهدي ، الجزء الأول ، ديسمبر 1964 ، الطبعة الثالثة .
- منشورات الإمام المهدي ، الجزء الثاني ، يوليو 1964 ، الطبعة الثالثة .
- منشورات الإمام المهدي ، الجزء الثالث ، الأحكام والآداب ، يوليو 1964

نعوم شقير ،

جغرافية وتاريخ السودان

دار الثقافة بيروت 1967

إبراهيم فوزي ،

السودان بين يدي غوردون وكتشنر

المؤيد ، القاهرة 1319هـ

بابكر بدري ،

تاريـــخ حيـــاتي

محمد عبدالرحيم ،

الندء في دفع الإفتراء ، المقطم ، 1946

Gizzi, G.,

15 Years Prisoner of the False Prophet (English, Translation 1967).

Hake E. The Journals of Gordon at Khartoum, London 1885.

Ohrawlder, J., Ten Years Captivity in the Mahdist camp.1883-1892, London 1892.

Slatin, Fire and Sword in the Sudan London, 2nd Ed. 1896.

المصادر الثانوية

Allen, Gordon and the Sudan, Macmillan and Co., London (1931)

Cromer, Earl of, Modern Egypt, Macmillan and Co., London (1908)

Dictionary of National Biographies, Oxford, (1900).

Elton, L., General Gordon.

Gailskell, A., The Gezira, A Story of Development in the Sudan, London 1958).

Hill R., Egypt in the Sudan, Oxford University Press, (1958)

Hill, Sudan Transport.Oxford University Press, (1966)

Hill, A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan. Clarendon Press, Oxford, (1951)

Holt, P.M., The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, Oxford University Press, 1958.

Shibeika, M., British Policy in the Sudan 1882-1902 Oxford Universtiy Press, (1952).

Wingate, F.R., Mahdiism and the Egyptian Sudan, Macmillan and Co., London (1891).

الشيخ أحمد كاتب الشونة ،

تاريخ ملوك السودان ، تحقيق م . شبيكة ،

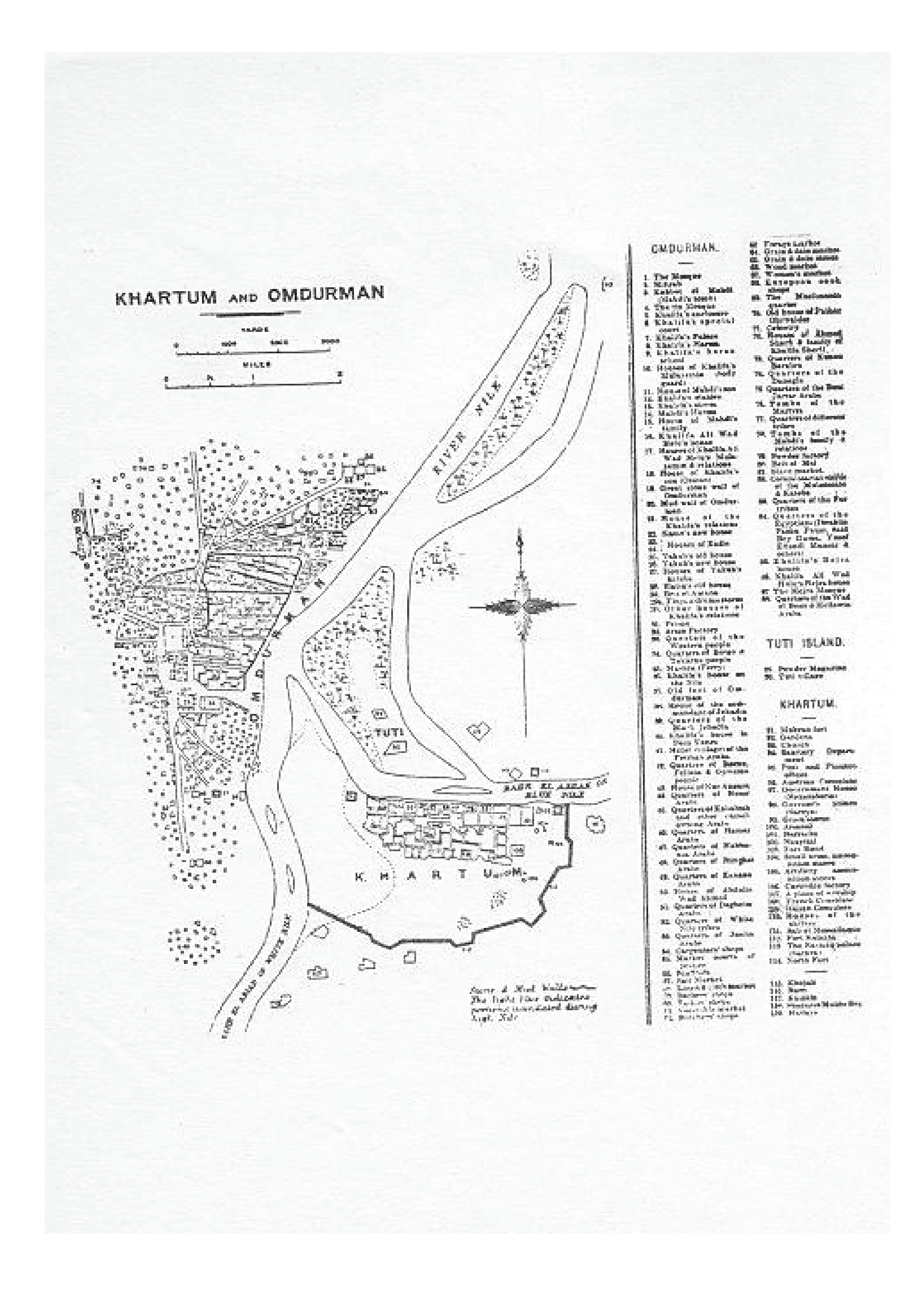
الخرطوم (1947)

سليمان كشة - تأسيس مدينة الخرطوم

الخرطوم (1966)

دوريات:

- The London Times
- The Royal Engineers Journal
- Sudan Notes and Records
- Bulletin of School of Oriental and African Studies


KHARTUM AND OMDURMAN
OMDURMAN.
TUTI ISLAND.
KHARTUM.
RIVER NILE
TUTI
K H A R T U M
BAHR EL AZRAK OR BLUE NILE

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

وبعد فمن عبد ربه احمد المصطفى عامل المهدي عليه السلام [illegible] الى [illegible] [illegible] وكافة الضباط والعساكر [illegible] هداهم الله للصواب

ايها الاحباب لقد طالما دعوناكم الى الله ورسوله والمهدي عليه السلام [illegible] ولا ترسلوا لنا رسل من طرفكم كما طلبنا منكم ذلك ولكن ما دام ان الفقرا اهل الدين والفقرا [illegible] لم تقربوهم [illegible] بالقريب [illegible] فلم نتعرض [illegible] فنحن هنا [illegible] الخير ورجونا لكم من الله الهداية وقد كان في الزمن فسحة والان قد حضر صاحب الوقت امام المسلمين كافة خليفة رسول الله سيدنا محمد المهدي [illegible] قريب منا [illegible] واحدة من [illegible] شفقتنا على عباد الله كلمنا [illegible] ما جرى منكم [illegible] ارسلنا لكم اخوانكم [illegible] [illegible] لاجل ان [illegible] على [illegible] [illegible] قبل وصول المهدي [illegible] شفقتنا على الناس وعدم [illegible] على [illegible] فلا [illegible] ولا من الامام عليه السلام الذي هو افضل [illegible] من خلق الله بعد رسول الله [illegible] ورسوله والمهدي [illegible] [illegible] علينا [illegible] في الدنيا والاخرة [illegible] عليكم [illegible] [illegible] على [illegible] هذا الليل الذي هو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الوصول الينا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] المنتظر [illegible] الذي [illegible] [illegible] الارض [illegible] [illegible] الخرطوم [illegible] [illegible] والمطامع [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] والفقرا [illegible] [illegible] [illegible] فلا [illegible] انفسكم [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

[illegible]